

مصر ليست أمي..

دي مرات أبويا

الطبعة
الخامسة



أسامة غريب

مصر ليست أمي..

دي مرات أبويا

أسامة غريب

مصر ليست أمي...
دي مرات أبويا

أسامة غريب

الطبعة الأولى يناير 2008
الطبعة الثانية مارس 2008
الطبعة الثالثة إبريل 2008
الطبعة الرابعة إبريل 2008
الطبعة الخامسة مايو 2008

محمول: 0123415179

رقم الإيداع: 2007/27394

الغلاف إهداء من
الفنان أحمد مراد

حقوق النشر محفوظة للمؤلف



إهداء

إلى "أبو حازم"

فنان الإخراج الصحفي

صديقي الجميل.. أحمد محمود



يا صابحة متعطّرة

ماء حلّفا للقطرة

أنا اللي دمعي اشتري

أغلى مناديلك

هاني شحاتة

مُقَلَّمَةٌ

مُقَدِّمَةٌ

المسألة بدأت بهذا..

كنت أجلس مع صديق لي على دكة خشبية تطل على النيل في أحد أيام شهر مارس ٢٠٠٥ عندما بادرنى قائلاً: الآن وقد صار لك ثلاثة شهور بالقاهرة بعد عودتك من سفرة كندا التي امتدت لخمس سنوات، ما رأيك في الحالة السياسية والاجتماعية التي أصبحت عليها مصر الآن؟ قلت له: إني أري مصر وكأنما قد تعرضت في وقت واحد لضربة إعصار من ماركة تسونامي، مع زلزال بأقوي ما يستطيع الأخ ويختر أن يسجل، علاوة على ضربة كيماوية ساحقة أنزلها بها الأعداء!

هتف صديقي مفزوعاً: إعصار وزلزال وضربة كيماوية في وقت واحد، كيف هذا؟ قلت: هذا هو ما أراه.. ملايين المصريين يعيشون داخل عشش صفيح على امتداد نهر النيل من أسوان حتي دمياط، كما يعيشون في المقابر. هل يمكن أن يحدث هذا إلا عقب الزلازل والأعاصير التي تقتلع بيوت الناس وتلجئهم لسكني العشش والمقابر؟

قال صاحبي: وماذا عن الضربة الكيماوية؟ قلت: هل يمكن لوطن في حالة سلم أن يصاب أهله بالسرطان على هذا النحو المخيف حتي صار أقرب إلى مرض وبائي؟ هل لاحظت تلوث مياه الشرب وتلوث الهواء والسحابة السوداء؟ هل لاحظت حجم مرضي التهاب الكبد ومرض الفشل الكلوي؟ هذه كلها أمراض التلوث ولا تحدث أبداً لأبناء دولة تعيش حالة سلم، هذا كله نتاج ضربة كيماوية تعرضت لها مصر على يد أعدائها.

قال صديقي: إذاً هذه هي مصر كما تراها؟ قلت: بكل أسف نعم. قال: وما رأيك في حالة الحراك السياسي التي يشهدها المجتمع المصري الآن؟ قلت: مجرد سراب يحسبه الحرمان.. بانجوا!! سألتني: وما رأيك في الحالة الصحفية حالياً؟ قلت له: إن صحف الحزب الوطني كالأخبار والأهرام والجمهورية تصيبنني بالضجر وتكاد تقتلني، والأنكى أنها تفعل هذا على حساب شعب مصر وليس من فلول أعضاء الحزب الوطني، أما الصحف المستقلة فبعضها يبشر بالخير وبعضها مستقل على مبادئ الحزب الوطني!

قال صديقي ضاحكاً: الحمد لله أن هناك شيئاً يعجبك، فبادرته قبل أن يطلق لتناول العنان: إنما قصدت إنها أفضل من صحف الحكومة من حيث أنها تنشر الأخبار ولا تعتم عليها، أما من حيث المقالات والأعمدة فهي تنشر الملل والسأم والضجر كغيرها، وإن كنت ألح في جريدة جديدة اسمها "المصري اليوم" اختلافاً عن السائد، ذلك أن حجم المقالات والأعمدة المملة بها أقل من المعتاد ومساحة الأفكار الجديدة والطازجة بها أكبر، وهنا بادرنى صديقي: ما رأيك والأمر كذلك أن تكتب بالمصري اليوم مقالاً أسبوعياً؟ فأجبت: الحقيقة أنني غير معتاد على الكتابة المنتظمة، ولعلك تعرف عني حالة الكسل التاريخي التي أسفرت عن كتابة قصة قصيرة كل عدة سنوات! قال: إبدأ وربما أغرتك التجربة بالاستمرار.

و هكذا قد كان . . أرسلت للمصري اليوم مقالاً بعنوان: "تداول السلطة والانسان المحترم" تم نشره بتاريخ ١٦ يونيو ٢٠٠٥، ولا أنكر أن رد فعل أصدقائي كان مفاجئاً ومشجعاً، كذلك الأصدقاء الأعزاء بالمصري اليوم رحبوا بي وأفسحوا لي مكاناً بينهم، فبدأت أغالب الكسل وأكتب أسبوعاً بعد أسبوع، وكان ذلك يضمني سخونة على الجلسة بالقي يوم الخميس ويمنح أصحابي مادة للشجار وهم يأخذون ما أكتب بحماس وجدية غير مدركين إنني "باهزر!" ولكن الأمر الذي ساهم في تورطى على نحو كبير كان رسائل القراء التي أدهشني وغمرتني بثناء لا أستحقه وصوت جوشي أحياناً، وأمدتني بأفكار عجيبة. ومن هذه الرسائل اكتشفت أن هناك قراء يفوقون كثيراً ممن يملأون الدنيا كتابة ويطرطشون خبرهم في وجوهنا، وتأكدت أن معظم السادة الكتاب لا يصلحون أن يكونوا قراءاً.

و بقدر ما أغضب ما كتبت بعض الناس أو من كنت أحسبهم كذلك! بقدر ما أكسبني الكتابة أصدقاء من حيث لا أحسب، وأنا أعترف أنني أدين لهذه المقالات بصداقات لم أكن أحلم بها لأناس يُشرفون بلداً بأكملهم.

و عندما كنت أراجع المقالات لاختيار ما أظنه يصلح لهذا الكتاب تذكرت أن بعضها قد أضحكني عندما كنت أكتبه مثل "البشوري" و"الحمام جاهز يا باشا" و"المسمط الكبير"، وتذكرت أن بعضها الآخر كتبه داعم العينين مثل "فولكلور" و"أطباء وقتلة".

لكن صادفتني مشكلة عند الشروع في تقسيم وتبويب فصول الكتاب، لأنني على مدي عامين ونصف كتبت عن كل ما خطر على بالي بدون تحفظات . . فهل يا تري أضع المقالات طبقاً لتتابعها

لزميني أم أهتم أكثر بتجانس الموضوعات؟. وجدتني منحازاً للحل الثاني كما وجدتي أنظر لتألاتي بعين جديدة كما لو لم أكن كاتبها واكتشفت أنني كتبت عن عدد من أولاد البلد المصريين الذين عرفتهم طوال حياتي، ورأيت أن يجمعهم فصل واحد بعنوان: "أصدقائي" وفي هذا ترجمة لشعوري الحقيقي نحوهم. ولا أنسي أن أحد هؤلاء الأصدقاء وهو "أباطة" قد وصلني بشأنه عدد كبير من رسائل القراء تطلب عنوانه أو نمرة تليفونه، الأمر الذي أذهلني لأن أباطة هذا كان يدير مكتباً لتحصيل الديون المعدومة. . . وعندما كتبت عنه فإن الهزار كان دافعي، لكن أهل مصر لضبيبن اليائسين من العدل وجدوا في أباطة الملاذ والملجأ!

و رأيت أنني تناولت في بعض الكتابات بعضاً من أصدقائي المثقفين الذين كشفت لي الأيام أنهم أصدقاء فالصو أو عيرة أو قشرة، فرأيت دجهم في باب تحت عنوان: "أصدقاء كدة وكدة". نفس وحدة الموضوع دفعني لتخصيص فصل اسمه: "سكافوللي" وضعت به السكافوللية من البشر إلى جوار بعضهم! أما عن "ركن الطبخ" فقد كان لازماً لجمع المقالات الحلوة والحادة والخريفة التي علقت فيها على أصحاب "طشة اللوخية" و"الأوزي والبرور" وعشاق البُنْيَك والفيليه المشوي الذين أضحكوني وسرّوا عني، هذا إلى جوار مقال - كشري أبو طارق ومهلبية هاني سرور - الذي وصلني يوم نشره ما يزيد على مائتي رسالة من القراء مما جعلني لا أنام ليلتها من السعادة.

كذلك رجحت أن أخصص فصلاً يضم المقالات السوداء، على غرار السينما السوداء أو **Cinema noir** المعروفة في هوليوود والتي تناولت موضوعات ثقيلة وقاتمة، فقامت بوضعها معاً في فصل تحت اسم "الهولوكوست" إشارة إلى المحرقة اليومية التي تشوي المصريين!. هذا إلى جانب فصل "العبت اللذيذ" وفصل "الجدية التي لا تطاق" . . . والعنوانان معاً يشكلان اسم أحد المقالات العابتة!

و رأيت من المناسب أيضاً أن أخصص فصلاً بعنوان "حواديت" جمعت فيه مجموعة من الحواديت التي رويتها للقراء، وكلها رغم غرابتها. . . حقيقية، ومن أكثرها طرافة حدوتة "كاوتشا والأتيخ" وبطلاها اليوم يشار إليهما بالبنان. . . (الوسطى).

كما أنني ختمت هذا الفصل بحدوتة رومانسية على نحو مغاير لما ألفه القراء مني.

و بنفس الطريقة فقد اصطفيت معاً مجموعة المقالات التي رصدت بعض تجليات "الوكسة" في حياتنا في فصل واحد اختار لنفسه اسم: "سفر الوكسة" يتصدره مقال "يا أمة ضحكت من وكستها الأمم" يتحدث عن البرنامج المصري لإنتاج الرغيف الطباقي، في مواجهة البرنامج النووي الإسرائيلي!!

و لم يفتني وقد كتبت عن جانب من مشاهداتي التي رأيت فيها بأم عيني أناس يأكلون لحم مصر ويمصصون عظامها في شهية غريبة . . لم يفتني أن أقدم لهم فصلاً من بطولتهم بعنوان: "السُحت" ويتصدره مقال: "موسم السُحت الكبير" .

أما الحرب العربية الاسرائيلية التي خاض غمارها ببسالة حزب الله في مواجهة الوحش الاسرائيلي صيف ٢٠٠٦، فقد وضعت ما كتبت عنها معاً في فصل: "آه يا لبنان" وفيه سجلت تبرؤي من العقلاء العرب الذين كانوا وسيظلوا دائماً "مع الرصين" !

و كانت هناك كلمات اعتدت أن أختتم بها بعض المقالات أحياناً تحت عنوان جانبي "كلمة أخيرة" . . هذه الكلمات الأخيرة تضمها آخر صفحات الكتاب طبقاً لنصيحة العقلاء من أصدقائي!

أما عن الدافع الحقيقي الذي دعاني إلى تجميع هذه المقالات في كتاب فهو استجابتي لأصدقائي الذين لا أدري لماذا يحسنون الظن بي وعلي رأسهم صديقي وحيد عتابي وصديقي أشرف ابراهيم وكانت هذه فكرتهما .

و مع هذا فأحياناً يخيل إلي أن أصدقائي لو عرفوا حقيقة الأمر وأنني كنت طول الوقت أضحك عليهم لما سألوني . فهم يتصورون أنني كنت أكتب طوال هذه الأسابيع من أجلهم ، ولا يدركون السبب الحقيقي الذي اكتشفته أنا نفسي متأخراً ، وهو أنني كنت طوال هذه المدة أكتب لأعالج نفسي . . . أو لعلهم كانوا يعرفون منذ البداية . . ولأجل هذا شجعوني!

أساهة غريب

المقطع - ٨ ديسمبر ٢٠٠٧



أباطة.. لتحصيد الديون المكدومة!

قرأت في الصحف منذ أيام أن تعليمات سيادية قد صدرت للسيد محافظ البنك المركزي تمهله حتي نهاية ٢٠٠٧ ليتمكن من عقد تسوية لمديونيات الهاربين بأموال البنوك والتي تقدر بالمليارات ، حيث أن نتيجة جهوده في هذا المضمار عام ٢٠٠٦ لم تكن مرضية بالمرة وأسفرت عن استرداد حوالي ١٧٦ مليون جنيه فقط .

و بقدر ما أحسست بصعوبة موقف الرجل وأشفتت عليه من المهمة ، بقدر ما فرحت أن هناك من لا يزال يأمل في إمكانية عودة المال المسروق مع أن الفأر القابع في "عبي" وخزني بسؤاله : كيف يريدون استرداد الفلوس بعد أن تركوا اللصوص يخرجوا بها من صالة كبار الزوار؟!

و على الرغم من أنني لم أعتبر أبدا أن مصر هي أمي ، ودائما ما أنظر إليها بحسبانها "مرات أبويا" التي عذبتني وكوتني بالنار ، إلا أنني كمواطن صالح من نفس الفصيلة الواردة في كتاب التربية الوطنية بتاع سنة خامسة لا أملك سوي أن أضع معلوماتي عن السوبر لصوص بين يدي من يطلبها .

و الحكاية أنني أثناء إقامتي في كندا قد تعرفت على أغلب اللصوص الهاربين بأموال مصر الذين استقروا في مونتريال . وكنت أراهم بشكل دائم يتسكعون في واحد من أشهر شوارع المدينة - شارع "سانت كاترين" - حيث المتاجر والمقاهي والملاهي والسهر . . ثم يعودون آخر الليل إلى قصورهم التي اشتروها في أشيك وأرقى أحياء المدينة - حي "ويست ماونت" - الذي صار معروفا بأن سكانه ينقسمون إلى قسمين : الأغنياء اليهود . . واللصوص المصريين! والحق أننا من كثرة من كنا نصادفهم في غدوننا ورواحنا منهم في هذا الشارع فقد أطلق عليه المصريون : شارع الحرامية !

و لا أتمالك نفسي من الضحك كلما تذكرت يوما كنت أسير فيه بالشارع أحمل في يدي كوبا من القهوة الساخنة وأعني ، عندما التقيت بأحد القطط السمان الذي بادرني بإلقاء التحية وقال : مساء الخير يا أستاذ فلان . . فوجدتني لدهشتي أنا نفسي أقول له : مساء الخير يا حرامي ! وعندها علت الدهشة وجه الرجل واحتقن بالغضب ، غير أنني لم أكرث ومضيت في طريقي وضحكاتي

المواصلة تشق الفضاء . والحق أنني أقدر دهشة الرجل وغضبه ، فمن ناحية لم يسبق لي أن شتمته هو أو أي لص آخر ، ومن ناحية أخرى فقد اعتاد هو وأصحابه أن يلقوا من المصريين الاحترام اللائق بأصحاب الملايين حتي لو كانت مسروقة !

و لا يشذ عن هذا الكثير من السادة المسؤولين الذين يترددون على كندا طول الوقت لأنهم كنديو الجنسية وقد حسموا مسألة الوطن البديل تحسبا ليوم الطوفان ، ودائما ما تكون إقامتهم أثناء الزيارة في معية نهّابي البنوك وعلي حسابهم .

وأعتقد أن ما دفعني إلى هذا التصرف النزق مع الرجل هو حالة النشوة التي كنت عليها ذلك اليوم بعد أن سمعت ما فعله الروائي الأديب صنع الله ابراهيم بالأمس عندما وجه صفعة للقبح والنطاعة وأعلن على الهواء رفضه قبول جائزة قيمتها المالية ١٠٠ الف جنيه من جهة فاقدة للمصداقية على حد تعبيره ! كنت أسير يملؤني شعور بالزهو والكبرياء كما لو كنت أنا صاحب الموقف المدهش . ومع هذا فكرت أن أسرع وراء اللص وأعتذر عن خطأي في حقه ، و أحكي له عن صنع الله . . لكنني استبعدت الفكرة .

خلاصة هذا الحديث أنني على أتم استعداد أن آخذ أي مسؤول من يده وأذهب به إلى محل إقامة كل من نهب البنوك المصرية واختبأ في كندا ، ومستعد أن أريه المقاهي التي يجلسون بها والكاзино الذي يقامرون فيه بفلوس المصريين إذا كانوا يجهلون أماكنهم ، أو إذا كان المحضر الحكومي الذي يرسلونه يعود دائما دون أن يستدل على العنوان !

غير أن ثمة مسألة أخرى تثير قلقي ، صحيح هي مسألة إجرائية ، لكن القوم في بلاد الفرنجة يهتمون بهذه الأشياء التافهة ، ومنها أننا لكي نسترد أي لص ممن سرقوا فقراء مصر وطاروا للخارج لابد أن تكون قد صدرت بحقهم أحكام قضائية ، ولكي يعترف الغرب بهذه الأحكام القضائية لابد أن تكون صدرت عن القاضي الطبيعي الجالس على منصة قضاء طبيعية . يعني المحاكم التي تضم موظفين حكومة لا أحد يعترف بها . . ومن هنا فإنني أدرك صعوبة الموقف و أدرك حرج الحكومة المصرية التي بعد أن أدلها على أماكن الحرامية . . تنف عاجزة عن الإمساك بهم .

غير أن الأقدمين قالوا أن كل عقدة ولها حلال ، وبما أنني أخذت على عاتقي أن أتولي الموضوع من باب . فحلال هذه العقدة عندي وأعرفه جيدا وأثق في قدراته ، وهو رجل طبقت شهرته

الأفاق . . ولو قُدر لك أن تتحول بشارع القبيسي بالظاهر ستطالعك لافتة مكتوبة على شقة بأحد بيوت الشارع القديمة . . اللافتة تقول بالخط العريض : (أبازة . . لتحصيل الديون المدومة) وأبازة هذا هو مجرم سابق ، تاب عن الطريق البطال ونذر نفسه لفعل الخير واسترداد الحقوق الضائعة والديون الميؤوس من عودتها . ومن هنا فإن كل من له حق وعجز عن تحصيله إما بسبب أن الجاني واصل أو بسبب أن الطريق القانوني وعر وحباله طويلة - موظفون ، رجال أعمال ، صناعية ، ستات بيوت - كل هؤلاء ذهبوا لأبازة صاحب الحلول الأكثر نجاعة وحسما . ومن المعروف عن أبازة أنه تأثر في طفولته بفيلم " الأب الروحي " وأعجبته أساليب " دون كورليونني " ورجاله في الإقناع عندما كانوا يقدمون للرجل المستهدف عرضا لا يمكنه رفضه . . إما الفلوس وإما طلبة في الرأس !

و لم يحدث أبدا أن فشل أبازة في مهمة أوكلت إليه ، ولم يحدث أن عاد خالي الوفاض . إلا أن الأمانة تقتضي أن أذكر نقطة عارضة ، على الحكومة أن تضعها في الحسبان إذا فكرت في الاستعانة بجهود أبازة لاستعادة أموال البنوك المنهوبة ، ذلك أن أبازة يسترد الفلوس دائما وهذا ليس محل شك ، لكن هذه ليست نهاية القصة . يتبقى السؤال الوجودي الحارق : من ذا الذي يستطيع أن يسترد لك فلوسك من أبازة ؟! غير أن هذا حديث آخر .

بلوتونيوم الحاج عاشور

في مثل هذه الأيام المفترجة من العام الماضي أعلن الحزب الوطني عن دخول مصر إلى العصر النووي . وتقديراً مني للعلم ونسب الفضل إلى أهله فقد قمت حينئذ بتذكير القراء بإسهامات الحزب الوطني العلمية على مدى السنين ، وخصصت بالذكر الإستجابة الفورية للتحدي الإسرائيلي عندما قامت تل أبيب بإطلاق قمرها الصناعي عام ٨٨ . . وقتها لم تقف القاهرة مكتوفة الأيدي ، ففي نفس الأسبوع قامت مصر بإطلاق الرغيف الطباقى المحسن مما أخرج الألسنة التي تحدثت عن تخلفنا العلمي !

و هذا العام بعد أن جدد الرئيس مبارك الدعوة إلى انطلاق البرنامج النووي أكاد أسمع نفس الأصوات المنكرة تقول أن هذا هو الموعد السنوي للتصريحات النووية ، وأن موعدنا العام القادم في نفس التوقيت للإعلان عن دخول العصر النووي وبناء مفاعلات لتوليد الطاقة !

و هكذا أجد نفسي مضطراً للتدخل مرة أخرى للذود عن سمعة الحزب العلمية ولو اقتضى الأمر أن أكشف سراً لا أعتقد أو أن كشفه قد حان . . لكن للضرورة أحكام .

بعد إعلان العام الماضي مرت الأيام دون اتخاذ أي إجراءات عملية للبدء في بناء المفاعلات ولهذا فقد تصور الناس أن الأمر كان مجرد مزحة من أجل الفرفشة ورفع الروح المعنوية . كان من الممكن أن أتأثر بهذا الكلام لولا أن ساقطني الأقدار إلى زيارة الحاج عاشور بصحبة أحد أصدقائي .

أخذني الصديق في مشوار إلى "عطفة كلاوي" عند سفح جبل الزبالة ، وهناك قابلنا الحاج عاشور جالساً داخل الكشك الصغير ، وبعد التحية والذي منه وجدت صديقي يطلب واحد شوكلاتة صاروخ ماركة "أقبل الليل" وصاروخ آخر ماركة "هذه ليلتي" . . اخني عاشور على صندوق صغير وأخرج منه منتجاً مغلفاً وقدمه لصديقي وهو يهمس : هذا آخر اختراعاتي ، لم أقدمه لأحد قبلك وهو خلاصة تجارب سنين قضيتها في العمل ، ثم أردف : واسم صاروخ الشوكلاتة الجديد هو : بلوتونيوم .

نقلت بصري بينهما في دهشة وتساءلت : ما حكاية البلوتونيوم هذه؟ فانتفض عاشور محذراً ويده على فمه : اسكتوا . . تعالوا معي وسأشرح لكم كل شيء . انتقلنا إلى بيت عاشور المجاور

وهناك أحضر لنا شايًا وقال: سأطلعكما على سر لا يعرفه أحد.. تعرفون أنني أعمل في هذه الخلطات منذ أن ورثت الصنعة عن أبي رحمه الله، وتعرفون كذلك أن منتجاتي حازت ثقة الجمهور في المحيط القريب، ثم انتشرت بعد ذلك وذاعت شهرتي وأصبح الرجال يأتون لي من أقاصي البلاد فأعطيهم الإكسير الذي يمدهم بالطاقة ويرفع رؤوسهم عالياً ويجعلهم منقوشين الريش أثناء قيامهم بالجولة تلو الجولة. قال صديقي: نعلم كل هذا ولكن ما الجديد في الموضوع؟ أجاب عاشور: الجديد أنني وبينما كنت في المعمل أجرب مقادير جديدة ومواد لم أستخدمها من قبل وصلت دون أن أدري إلى تصنيع البلوتونيوم!!

قلت له: بلوتونيوم إيه يا عاشور.. واضح انك بتضرب حاجات قوية.. عارف إيه هو البلوتونيوم؟ قال: عارفه يا ناصح وعندي في هذا الكشكول جميع الخلطات التي تركها لي المرحوم ومن بينها كيفية تصنيع البلوتونيوم وكذلك اليورانيوم! ثم أضاف منعلاً: ولكن لأنني رجل ملتزم بالشرعية الدولية وأعلم أن الوكالة عينيها مفتحة وأن الدكتور البرادعي لا يتسامح أبداً مع تجارب التخصيب التي تجري بعيداً عن إشراف الوكالة إلا لو كانت تقوم بها إسرائيل، كما لا يتسامح أيضاً مع تجارب التخصيب التي تجري تحت رقابة الوكالة لو كانت تضايق إسرائيل! لهذا كله فقد آثرت الابتعاد عن سكة اليورانيوم.. أما البلوتونيوم فمسألة أخرى.. لم أسمع طوال حياتي عن أي جهة تحدثت عن البلوتونيوم أو عن دولة ضربت أخرى واحتلت أراضيها بناءً على مزاعم بتخصيب البلوتونيوم..

ثم لتأكيد نظريته قال: الفرق بين اليورانيوم والبلوتونيوم هو نفس الفرق بين الخمرة والحشيش، الخمرة حرام لكن ممكن تشتريها من عند البقال، أما الحشيش فممنوع بقوة القانون.. وأنا لا أعمل في الممنوع مهما كانت الإغراءات، وأحب أن أضيف لمعلوماتكم أنني لا أقوم بتجاري هذه من تلقاء نفسي، فقد حضر إلى أحد زبائني القدامى وهو عضمة كبيرة في الحزب ولما علم بمحاولاتي شجعني وساعدني بإحضار مواد كانت ناقصة من السوق وقال لي: إن مصر كلها تنتظر نتيجة شغلك.

سألته: أي مواد هذه التي أحضرها إليك. أجاب: بردقوش وعين العفريت. قلت له وقد شغلتنى المسألة: وكيف علمت أن ما توصلت إليه هو البلوتونيوم بعينه وليس شيئاً آخر؟ قال في فخر: عرفت من خلال شيئين، الأول هو هذا الكشكول، فقد وضعت المقادير كما هي مسجلة هنا: بيضة حنش و ٤٠ جرام زعفران مع ٥ بلحات جوزة الطيب ونبات اليبروح وجاوي وزر عود

ولبان ذكر بالإضافة إلى ملعقة زيت حار مع لحسة عنبر وبابريكا ناعمة، وبعدها لا تسألوني ما اسمه حبيبي . . لأنكم ستسمعون استغاثته بأنفسكم! الشيء الثاني أن كل هذه المقادير تحت درجة ضغط معينة ممكن أن تصل بكم إلى الكتلة الحرجة . . هل تعرفون معني هذا؟ قلت له : البرنامج المصري سلمي يا عاشور، لا تدخلنا في مشاكل . قال : لهذا أنا لن أصل إلى الكتلة الحرجة . . قبلها بمحطتين أكون قد وصلت إلى المنتج الجديد : "بلوتونيوم الحاج عاشور"

خرجت من عند عاشور وأنا أشعر بالخجل من نفسي . . لقد كدت أصدق الشائعات المغرضة، بينما الحزب طوال عام كامل يعمل في صمت من أجل مصر ويحاول مع الحاج عاشور أن يستولد البلوتونيوم من أضلع . . الحوافريت !

منصور شجرة ونظيرة خشبة الملب!

تابعنا على مدى الأسابيع الماضية بعضا من الأخبار المريعة عن التعذيب الوحشي الذي اقترفه فريق من المنحرفين من أفراد الشرطة ضد مواطنين أبرياء دون سند من قانون أو عُرْف أو دين . وشاهدنا فصولا من الجرائم بالصوت والصورة بعد أن قام المجرمون أنفسهم بتصويرها ونشرها على الانترنت وإرسالها الى الموبايلات عبر خاصية " البلوتوث " حتى يكون لها أثرا ترويعيا في طول البلاد وعرضها . حدث ذلك بعد أن أصبح الجناة من الجبروت والثقة بأنهم في مأمن من العقاب مهما فعلوا ومهما اقترفوا من جنایات ، حتى لو جعلوا من مصر أمام الدنيا كلها وطنا للعار !

أحد هذه الكليبات المصورة يحوي صورة رجل شرطة ضخم في حجم باب زويلة ، يتضح من هيئته أن أصحابه يقومون بتغذيته بشكل جيد . وفي الصورة يظهر مواطن بائس وقع في يد الوحش الذي رسم الرعب على وجه ضحيته وراح يسدد اليه صفعات قوية متتالية بشكل سريع جدا . ومن الواضح أن حيوانا كان يمسك بالكاميرا يسجل المأساة الانسانية وهو في قمة السعادة بدليل ضحكاته هو وبقية فريق المشاهدين المنحرفين الذين حاولوا استعادة الرجولة المهذرة مع أسير فاقد الحيلة !

أما الضحية الآخر الذي شاهدنا على النت الكليب المصور الخاص به فقد نشرت الصحف قصته المؤلمة مع بعض النفايات البشرية الذين اختطفوه ومارسوا ضده اعتداء بربريا وهتكوا عرضه وقاموا بإدخال خشبة في مؤخرته مع تصوير الجريمة لحظة بلحظة وتوزيع نسخ من الفيلم على الدنيا كلها .

قرأنا أيضا عن الجريمة البشعة التي وقعت على طريق البحر الأحمر ضد مهندس شاب كان بصحبة أسرته في طريقه لقضاء أجازة بالغردقة ، عندما أوقفه كمين برئاسة ضابط شرطة اسمه سيد الكازاماني أو شئ من هذا القبيل ، وقد قام هذا الكازاماني بطرح المواطن أرضا وجعل قواته تخلع ملابس الرجل وهمّ باغتصابه في الشارع لولا أن الرجل افتدى نفسه بتقيل أحذية قطع المجرمين استجابة لطلب زعيمهم الكازاماني بيه ! ولم نشاهد هذه الجريمة على الانترنت لأن القوم على ما يبدو لم يكونوا مستعدين للتسجيل وقد باغتتهم الضحية وأسرته على حين غرة وجعلهم يضربونه ويطرحونه أمامهم على الأرض مجردا من ملابسه دون أن يكون فريق التصوير جاهزا !

وقد نشطت الصحف في تغطية هذه الجرائم وفي عمل التحقيقات الصحفية التي شملت استطلاع آراء علماء النفس والاجتماع عن الرأي العلمي في مقتربي هذا النوع من الجرائم التي تختلط فيها السادية بالجنون .

ومع كل الاحترام لآراء السادة الأساتذة، إلا أن أستاذنا من نوع آخر وجددتني أشد الرجال اليه ليفيدني بالرأي فيما هو به عليم . ذلك هو " منصور شجرة " الفتوة المتقاعد . . صاحب أقوى " روسية " في الشرق الأوسط، الرجل الذي عرفته كل سجون مصر وتعامل مع كل أنواع المجرمين كما تعامل مع رجال الشرطة وله عنهم حكايات تصلح للدراسة الأكاديمية، وقد رأيته في سنوات الصبا يجندل كتيبة من الرجال بذراعيه العاريتين . جلست مع نفر من أصدقائي بصحبة عم منصور في بيته بوكالة بندقة وطفق يحكي عن ذكرياته أيام الشقاوة، ثم انعطف إلى جرائم الترويع التي يرتكبها بعض المنحرفين من رجال الأمن، وكان له بشأنها تفسير غريب لم أتوقعه .

قال عم شجرة: أنتم أيها المتعلمون تستريحون إلى التفسيرات الجاهزة التي تتفق مع حالة الكسل العقلي التي تأسوا اليها، وأظنكم تعتقدون أن أفراد الشرطة الذين يتهكون أعراض الضحايا ويضعون العصي في أدبارهم . . تظنونهم وحوشا آدمية فقدت الانسانية والضمير والشرف، وتتصورون أن من يفعل هذا لا بد وأن يكون معقدا نفسيا، كارها للبشر ومحتقرا للنفس الإنسانية، كما لا بد أنكم تعتقدون أنه لا يمكن أن يكون مؤمنا بالله أو يتوقع وجود آخرة وحساب وعقاب . . سح؟ هكذا تساءل منصور شجرة . قلت: صح يا أبو الأشجار . قال: غلطان يا صاحبي . هؤلاء الناس ليسوا أبدا كما تعتقدون، هم ليسوا وحوشا . . هم فقط مختلفون، والحكاية أن هناك من الناس نوع تطلقون عليه اسم الشواذ، أي أنهم استثناء في الخروج على الفطرة السوية، يعني بلغة السياسيين قلة منحرفة أو شذوذة ضالة . . هؤلاء الناس يا أستاذ قد قويت شوكتهم واكتسبوا شرعية بعد أن صار منهم رجال كبار يسافرون لحضور مظاهرات الشواذ في إيطاليا وغيرها ومؤازرة الرفاق . . صح؟ لم يعلق أحد فاستطرد: ولا تنسي أيضا أن هناك قبائل عربية في دول مجاورة لا يري كثير من أبنائها في الشذوذ عيبا ولا يعتبرونه فعلا ينال من كرامة المرء أو شرفه . ولعلك لاحظت أن من يسافر إلى هذه البلاد يرجع ومعه زاد من الحكايات عن هذا الأمر . . صح؟ وبعض هؤلاء نزح واستقر في مصر وجلب معه عاداته وطقوسه الخاصة، وسوف أفاجئك وأزيد بأن هؤلاء الناس يعتبرون مضاجعة الرجال محبة!

قلت له وأنا مصدوم: انت شارب حاجة يا منصور؟ ما هذا الذي تقوله؟ قال: باكيته بالبحر

واحدة وحياتك، لكن ليس للبانجو علاقة بما أحكيه . . إسمع يا أستاذ أنت وهو: إن من يقوم بتعرية جسم إنسان وإدخال خشبة في دبره لا يفعل هذا عن غل أو عدوانية أو رغبة في الإيذاء، أغلب الظن أنه إنما يفعل ما شاهده في بيته وبين أهله، يفعل ما فُطر عليه وتعلّم أنه أمر طبيعي ودليل على المودة حيث الأب والأم والأبناء يتداولون العصا . . وأردف: هذه نظريتي وأنا حر فيها، إذا شئتم استفيدوا منها أو اعتبروني مجنوناً ولا تروني وجوهكم مرة أخرى، ثم قام وفتح الباب وأغلقه خلفنا في عنف وهو يسب ويلعن . . في الوقت الذي كنا نبادله السباب وأصواتنا تعلو: الله يلعنك يا شجرة ويلعن نظرياتك!

رؤوف وزه ومناسبته الإجتماعية الخاصة

قرأت ما كتبه الأستاذ مجدي مهنا في عموده " في المنوع " عن صديقه الذي طلب منه التوسط لدي المسؤولين من أجل أن يفتحوا له قصر عابدين لإقامة فرح ابنته، مثلما تم فتح قصر محمد علي من أجل خطوبة الدكتور محمد كمال عضو الأمانة العامة بالحزب الوطني ومسؤول التشريف والتدريب .

كذلك قرأت رد الدكتور كمال، وتبينت حقيقة الأمر، وعرفت أن الموضوع لم يكن به أفراح أو ليال ملاح، وإنما كان عبارة عن حفل استقبال بسيط لمناسبة خاصة تمت إقامته في أحد عمارات القصر وليس في قاعة من قاعاته التاريخية، وأن الأمر اقتصر على المأكولات والمشروبات الخفيفة لمدة ثلاث ساعات فقط .

عرفت كذلك أن الأمر تم وفقا للقواعد المتبعة في هذا الشأن والتي تتضمن تقديم طلب لإقامة حفل الاستقبال في القصر، وأن الطلب أخذ الإجراءات العادية والقانونية، والموافقة قد تمت بدون تدخل أي جهات عليا، لأن القصر مفتوح للمؤسسات والأفراد لإقامة بعض الاحتفالات الخاصة وفقا لسياسة وزارة الثقافة .

من المؤكد أن كثيرين غيري قد قرأوا هذا الكلام، وأنه قد وقع من نفوسهم موقعا طيبا، خاصة بعد أن طمأنهم الدكتور كمال أن المصريين سواسية كأسنان المشط، وأن أي مصري يستطيع أن يتقدم إلى وزارة الثقافة بطلب لإقامة مناسبته الاجتماعية الخاصة .

لكن تبقى مشكلة . . . أن من ضمن من قرأوا هذا الكلام وسعدوا به هو الأخ رؤوف وزه، ورغم أن الطابور الواقف على باب وزارة الثقافة لحجز قاعة بقصر محمد علي لا شك طويل ويضم كل ألوان الطيف بالمجتمع المصري بعد أن اطمأنوا لعدم الكيل بمكيالين، إلا أن رؤوف وزه له خصوصية تميزه لأنه أولا أحد رجال الحزب المخلصين، وقد وقف معهم في الانتخابات الأخيرة وقفة مشرفة لدرجة أنه يفخر أن قام بالتزوير كسياسي مخضرم! وثانيا لأنه وإن كان استورياً يقوم بدهان الموبيليا إلا أنه رجل مطلع ومتنور وعارف لحقوقه، ويقرأ أحيانا في كتب أولاد أخته المدرسية، ثم يطلع على أصدقائه الاستورجية فيعيد على مسامعهم ما قرأه خاصة الأشعار مع

فاصل من التوبيخ والشتائم لمن يسمعون فلا يعون شيئاً .

قرر الأسطي وزه أنه سيقم حفل ظهور ابنه شوكت في قصر محمد علي ، وعرض الأمر على أصدقائه ، فلما سخرُوا منه ، توعدهم غاضباً وقال أنه سيلقاهم ذات يوم بمنعرج اللوي ، أو بحومانة الدراج . . ويومها لن يرحمهم . . فلما عقدت الدهشة ألسنتهم أوضح لهم : دي أسماء أماكن يا عجر ، فناوشه أحدهم : يبدو أنها أماكن شرحة وترد الروح يا وزه !!

و الحقيقة أن تعلق رؤوف بالطقوس الملكية وعشقه للفخامة والأبهة قد بدأ يوم أن دخل قصر أحد الباشوات لدهان بعض قطع الموبيليا ، فخرج من هناك ممسوساً بعد أن عانت أفكاره الصور المعلقة على الحوائط لرجال ذوي فخامة ومهابة وشوارب أرستقراطية ، يرتدون حللاً مزرکشة وتبدو على سيماهم ملامح المجد والفخار . . من يومها لم يعد وزه هو نفسه الرجل الذي عرفه أهالي كفر الزغاري بالدراسة ، صار إنساناً آخر ، ملاً غرفته فوق السطوح بصور الملك فاروق وأمراء العائلة المالكة حتى محمد علي الكبير ، وصار ملكياً أكثر من الملوك .

و لإثبات ولائه للفكر الجديد الذي آمن به ولتأكيد النزعة العثمانلي التي تلبسته قام بتسمية ابنه شوكت على اسم شوكت الأناضولي صاحب القصر الذي سحره ، وفي السجل المدني طلب من الموظف أن يكتب الاسم في شهادة الميلاد شوكت الأناضولي ، لكن الموظف الغيت كتبه شوكت رؤوف !

و مع الاستعداد لتقديم الطلب سأل أصدقاءه إن كان الفيش والتشبيه مطلوباً ضمن الأوراق المطلوبة فقال أحدهم : وهل تنوي التقديم في كلية الشرطة ؟ انت قلت إن كل المطلوب هو دفع " المؤن " وحجز القاعة ، فرد ثالث بأنه لا يعتقد بأن الأمر بهذه البساطة ويخشى أن موضوع الفازة التي أخذها رؤوف من منزل الأناضولي قد تعرقل الموضوع . . فاحتد وزه : قلت لكم أكثر من مرة أن الفازة كانت تذكاراً من الأناضولي ، فسألوه في سخرية : وهل التليفزيون الملون الذي ضبطوه لديك كان أيضاً تذكاراً من الباشا ؟ ! فقال لهم : خستّم يا حوش . . ذات يوم سيعلمكم شوكت ابني معنى الاحتشام بعد أن يصير عضمة كبيرة في الحزب . ورغم التوجس فإن وزه يستعد لتقديم الطلب وينوي أن يحجز قاعة بأكملها وهو لن يكتفي بعمل الحفلة في أحد الممرات مثل الدكتور كمال لأنه يخشى على الواد شوكت أن " يتلط " في الممر ، وسيطلب من أم شوكت أن تجهز سندوتشات اللانشون وصناديق الكازوزة وعلب الملابس .

ولئن كان الدكتور كمال قد أكد على أن حفله كان بسيطاً ولم يكن به أفراح أو ليال ملاح، فإن الأخ وزه يعتقد أن كل واحد حر في مناسبته، وإلا لماذا هي خاصة؟ كان ممكن أن يصدر بها منشور ويتم تعميمه على الجميع، لكن حلاوتها أنها مناسبة خاصة سيدعو فيها الحبايب الذين يريدون مجاملته، وله في أعناقهم نقوطاً لا يقل عن ٣٠٠ جنيه، وسيصخب ويمرح ما شاءت له الشقاوة والسعادة بولي العهد وأول فرحته.

لنتركه لأحلامه واستعداداته ونساءل عن مأزق الحكومة مع رؤوف وزه الرجل الذي قرأ كلام السيد عضو الأمانة العامة ومسؤول التحقيق بالحزب الوطني فاقتنع به وصار يملاء العشم ويعني نفسه بليلة سلطاني في حفل ظهور ولده شوكت بقصر محمد على أسوة بالدكتور محمد كمال في مناسبته الإجتماعية الخاصة.

شهادة هند ستم وشهادة مأمون عجمية

أتابع بإعجاب ما يكتبه الأستاذ أحمد المسلماني من خلال حواراته لتدشين حركة المؤرخين جدد، وندهشني اختياراته لشخصيات قريبة من قلب الجمهور المصري، وتسم في الوقت ذاته باللقائية والبعد عن التّعبر أو ادعاء ما لا يعتقدون. . هذا بصرف النظر عن رأيي في شهاداتهم.

في الوقت نفسه تحظي هذه الشهادات بمتابعة دقيقة من رجل حرفته الأساسية هي التاريخ، ونكته أيضا جلبها له هوسه بالتاريخ. ذلك هو الأستاذ مأمون عجمية مدرس التاريخ السابق. وقد صار الرجل سابقاً بعد أن دأب على تنحية منهج الوزارة جانباً وتدرّس ما يحلو له على غير ما يذكر الكتاب المدرسي. الأمر الذي دفع بالوزارة إلى فصله نهائياً.

أخبرني الأستاذ مأمون أنه علّم تلاميذه أن التاريخ هو الحكايات الكاذبة المسلية التي تجعل أسافل الناس أبطالاً من خلال التواطؤ على إخفاء الحقيقة من جانب أعوان المجرم، في ظل صمت الشهود الحقيقيين وكتمانهم للشهادة، وقال لي أن أحداً لا يمكنه أبداً أن يعرف حقيقة ما جرى في أي عصر من العصور، حتي الأحداث التي تقع أمامنا ونحن على القهوة جلوس، سوف تتعدد الروايات بشأنها ولن يفتي منها سوي رواية أشدنا بأساً وأوسعنا نفوذاً.

وبناء على هذا التصور أخذ الأستاذ مأمون يروي للأولاد في حصة التاريخ عن أخبار دولة المماليك الجوية التي حكمت مصر في العصر الحديث تمييزاً لها عن دولة المماليك البحرية التي عرفت سلاطين عظام خاضوا أعظم المعارك مثل السلطان "وحشمرُ البندقاري" صاحب الضربة البحرية الذي انتصر على السلطان "البيكيكي" وأغرق أسطولاً في موقعة "متشخرمين". . هذا وقد حاول مفتش المادة أن يفهم من الأستاذ عجمية أين قرأ عن موقعة متشخرمين هذه، وأي المراجع استند إليها. فلم يصل إلى شيء، مما عجل بقرار الرفت والجلوس الأبدي على القهوة.

ولهذا كانت سعادته بالغة عندما بدأ يقرأ شهادات أناس بعيدين عن منهج الوزارة عما حدث في مصر خلال الخمسين سنة الماضية. وقد أسر لي بعد قراءته لشهادة السيدة فاتن حمامة والسيدة هند رستم أنه سعيد بما قرأ لأنهما خرجتا على الكتاب وأدليتا برأيهما الحقيقي (رغم اختلافه التام مع مجمل شهادتهما) لكن نبرة حزينة بدت في صوته وهو يقول: هند رستم ابنة باشوات كانت

تذهب إلى العزبة وتستمتع بفرحة الفلاحين لظهور الباشوات بطلعتهم البهية ، وفاتن حمامة ابنة بكوات يتبرأون من مصر عند الهزيمة ويدعون أنهم أترك . سألته وما الذي يجزئك إلى هذه الدرجة فقال لي بجمدة : يعني ماحدث أمه غسالة غيري؟! قلت له : بلي هم كثر ولكن لا يعترفون . . .

ولمن لا يعرف الأستاذ مأمون ، هو أحد أبناء ثورة يوليو المخلصين الذين استفادوا من أهم إنجازاتها وهو إشاعة التعليم على نطاق واسع وإتاحته بالمجان ، الأمر الذي مكّنه من الالتحاق بالجامعة والحصول على ليسانس التاريخ . وقد ظل على ولائه للثورة ولم ينتقص من هذا الولاء إدراكه أن بعض رجالها كانت لهم أهداف أخرى علاوة على الأهداف الست المعلنة . . من بينها الحصول على شاليهات المنتزه ، وشقق في عمارات الإيموبيليا ويعقوبيان واستراند ، والإستيلاء على نساء الطبقة الراقية ، كما أن بعض الثوار تفرغ للحصول على نصيبه من الرقاصات والمغنيات .

و إذا كانت السيدة هند رستم تنفي أن أحداً قد حاول استغلال الفنانين على نحو سيء كما ورد في مذكرات البعض ، فإن الأستاذ عجمية يري أن الثورة التي كرمت الفن والفنانين ، قد أوغل بعض رجالها في التكريم إلى درجة أن الفنان محمد عبد الوهاب الذي مدح الحكام من أول السلطان حسين كامل حتي الرئيس مبارك كان يغني في منزل أحد الثوار وفرائضه ترتعد من الخوف !

كل هذا غفره لهم قياساً بالإنجازات التي تحققت والتحديات التي واجهتها الثورة في الداخل والخارج . لكن ما لم يغفره أبداً هو رحلة صعود الواد " شولج " الذي كان زميلاً له بالمدرسة وكانت أمه الست محبات تبيع نبوت الغفير على باب المدرسة ، ولأنه كان متوسط المستوي فلم يستطع سوي الالتحاق بكلية الشرطة أيام أن كانت تقبل أبناء المصريين - على حد قوله - تخرج شولج وصار ضابطاً ولكنه لم يستطع أن يشعر بالسيادة إلا على حساب الفقراء من أمثاله ، وماتت الست محبات وهي تدعو على البطن التي أنجبت جاحداً مثله ، ثم ترقى شولج وصار محافظاً فجعل الناس تتحسر على أيام السلطان " بشاميل " حيث كانت السرقة بالمعقول !

مشكلة الأستاذ مأمون الوجودية هي : أيهما أشد فتكاً بالمصريين . . حكم الباشوات ذوي الأصول الأرستوقراطية الذين لا يعرفون عن مصر سوى أنها منجم للعمالة والخدم بأجر نجس ، أولئك الذين ترى السيدة هند رستم أنهم كانوا محبوبيين من أقتان الأرض . . . أم حكم المصريين أبناء من كان يسرح بقرد ، ومن كان يبيع أم الخلول فلما أوصلته تضحيات المصريين لأعلي السلم

ر كل السلم بقدمه ليمنع صعود غيره وصار أشد غلظة على أهله من الأعداء . . والدليل أن كل
لذين يعادون مجانية التعليم اليوم هم الذين تعلموا حتي الدكتوراة من كندا وأمريكا على حساب
فقراء المصريين ، وهم أمثال شولح زميل الأستاذ مأمون الذي عصف بما تبقي للرجل من عقل
وجعله يدرك أن كل تضحيات مصر بلا مرجوع !

عبداه شوماخر العنتبلي - التحذير سابقاً

كانت جلستنا بالمقهى هذا الأسبوع شائقة للغاية . . . التقيت بعد غياب طويل بصديقنا القديم شوماخر العنتبلي فيلسوف وحكيم قهوة طوطح بالسكاكيني ، كان قديماً يحرس مرمى فريق ميمي عبد القوي بأرض الجميل ، وأطلق عليه أصدقاؤه اسم حارس مرمى المنتخب الألماني القديم ، لم فكر أبداً في السؤال عن اسمه الحقيقي ، له آراء في الحب والفن والحياة . . . ومن أكثر مواقفه . . . نيكالية إيمانه بأن الثورة في ٢٣ يوليو ما قامت إلا لأن الضباط وجدوا البرنسيات ونساء الطبقة معيلاً لا يجدن رجالاً حقيقيين يقومون على شؤونهن العاطفية ويلبون احتياجاتهن ، وأن هؤلاء لضباط إستكثروا على الشبان " البسكويت " الذين تربوا في السرايات أن يحوزوا كل هذه لأصناف الفاخرة من الملبس والقشطة والمهلبية ، فقررُوا أن يقوموا بالثورة وأن يستولوا - إلى جانب حكم - على هؤلاء النساء اللاتي كن الهدف الحقيقي من الحركة المباركة .

عندما قابلته هذه المرة حاولت أن أختبر إخلاصه لأفكاره القديمة في هذا الشأن فأكد لي بيقين عتبيدي أن التاريخ سوف يعيد نفسه وأن حركة مباركة أخرى في الطريق للإندلاع ، وذلك نتيجة وجود قوى عديدة " محتقنة " بالمجتمع تتلمظ وتستعد للإنقضاض على الساحل الشمالي من نعجمي حتى السلوم لصيانة نساءه " الحلويات " ممن وصفهم شوماخر بالشباب " الحمضان " الذين ينعمون بما لا يستحقون من " المزز " الفاخرة .

علّق أحد الأصدقاء بأن شوماخر العنتبلي يتمثل المعتقد الشعبي الموروث عن المستعمر لأوروبي الذي طالما ظن أبناء الشعوب المحتلة أو أقنعوا أنفسهم بأن رجاله باردون ، وأن نساءه تنوق للتعرف على " البلدي الأصيل " .

ما رأيك يا عم شوماخر فيما يحدث هذه الأيام؟ قال : لا تحدثوني عن الإنتخابات ، فنحن نعلم أنها سواء رئاسية أو برلمانية كلها في " البكلويز " . . . يعني تقول لي لجنة مرعي . . . لجنة أبو الليل تقول لك في البكلويز ، تقول لي يعني ايه في البكلويز أقول لك يعني في الكلثش . سأله أحد الحضور : هل تقصد أنها . . . فبادره شوماخر : نعم أقصد أنها في الحمبلاظ !

قلت له : مفرداتك مُعبّرة تماماً وخصوصاً . . . الحمبلاظ . أردف : هل تعلمون ما يؤلمني ويعذبني

هذه الأيام؟

قلنا : ماذا؟

قال : إنهم الشباب الذين صرعههم الولد القطري الصايع وأسكن الحسرة والألم في قلوب أهاليهم . . هل تريدون أن تعرفوا لماذا تركت الحكومة الشاب الرقيق يهرب بعد أن دهس مصر بسيارته وتركها تنزف على الرصيف؟

- نعم نريد أن نعرف . .

قال : حكومتنا وجدت بين أيديها صيداً ثميناً فساومت قطر وقالت لها : سيب وأنا اسيب . . سنترك الولد يعود في الأمان وأنتم تقومون بتكثيف قناة الجزيرة بالحبال حتي لا تكشف جرائسنا في حق شعب مصر أمام العالم .

سألته : يعني حكامنا الحلوين وجدوا في هذه المأساة التي أوجعت قلب كل مصري فرصة ذهبية تمنحهم أوراقاً جيدة للتفاوض مع العدو القطري!

قال : بالضبط .

"منك لله يا شوماخر . . نكدت علينا يا بعيد" علت الهمهمات ، فقال الرجل : دعكم من حديث الكوارث والمصائب ، سأحكي لكم عن آخر أعمالتي ، سأله أحدنا : أعمالك الأدبية؟ قال : لا . . أعمالتي السفلية التي يعجز الجن عن الإتيان بها . . أنتم تعرفون طبعاً أنني أمتلك حارة بإسمي وضعت على بابها لافتة معدنية تقول : حارة شوماخر العنتبلي في منطقة المطبعة بدار السلام . . عندما انتقلت إلى المرح حيث أسكن الآن وجدت الأمر لا يختلف ، أرض زراعية صعدت بها الأبنية الإسمنتية ، وأصحاب البيوت يطلقون اسماءهم على الشوارع التي ظهرت فجأة . . كانت المسألة هي من يضع يده أو يدق لافتته أولاً ، ذهبت إلى محسن الخطاط وكتب لي لافتتين من الصاج وضعتهما على أول الحارة وآخرها ، وبعد فترة امتدت أحلامي إلى الشارع الذي تقع على ناصيته حارتنا وكانت تصدره لافتة كُتب عليها "شارع زعتر قاسم" ولما كان زعتر قاسم هذا مجرد بواب تحول إلى مقاول يمتلك عدة بيوت في الشارع فقد وجدت أن إسمي أكثر واقعية وتأثيراً ، فجهزت لافتتين وضعتهما مكان القديمتين ، وعندما غضب زعتر صالحته بتعبيرة من الصنف العالي ، وأنوي في خطوتي القادمة أن أخرج إلى الشارع العمومي . . أنزع لافتاته وأضع لافتاتي بهدوء .

قال صديق لنا : وهل المسألة بهذه البساطة؟ أي واحد ينزع إسم الشارع ويضع لافتة باسمه ثم يتحول إلى أمر واقع . . أين نظننا نعيش؟ تغير وجه شوماخر وقال : هل تظنني أكذب يا أستاذ؟ أقسم لكم بصدق ما أقول ، وتعالوا لتروا بأنفسكم ، إن مصر هي بلد الحريات . . أي إنسان يستطيع أن يفعل أي شيء . . الجميع في غيبوبة ، وإذا انتبه لك أحد بالمصادفة سواء مخبر أو من البلدية أو من السكان يمكنك أن تمنحه عميرة ، أو ثلاث برايز على الأكثر . . ثم استطرده . . سأقول لكم سرّاً لم أكن أنوي التصريح به الآن : إنني أضع خطة على مراحل للتوغل في المدينة ، وليس صعباً أبداً أن ترصدوا معدل سريان الغيبوبة وملاحظة آثارها بين الناس ، وفي غضون عدة سنوات سنكون قد وصلنا لأزهي عصور الرز بلبن ، وأستطيع أن أضمن لكم أن المرء إذا صنف أحداً على قفاه في الشارع فلن يلتفت حتي بداعي الفضول ليري من ضربه ، في هذه الأثناء سأكون قد وصلت إلى شارع رمسيس ومسمرت حوائطه بإسمي ، ثم سأقتحم التاريخ بعبور ميدان عبد المنعم رياض والوصول للمجد في ميدان التحرير وسترون الميدان الشهير - لو أحيانا ربنا - وقد تحول إلى ميدان شوماخر العتيلي " التحرير سابقاً " .

❖ في الليلة الظلماء يُفتقد البشوري

في عام ٩٠ وبينما الاستعدادات تجري على قدم وساق من أجل تدمير العراق بعد غزوه حكوت أرسل الرئيس مبارك حوالي ٣٥ نداء للرئيس صدام حسين يطلب منه أن يستجيب صوت العقل ويسحب قواته حتي يتجنب المصير الذي أعد له، غير أنه أبي واستكبر. في الوقت نفسه قام عدد من الزعماء العرب بإرسال كما هائلا من الرسائل والنداءات للرئيس العراقي تحمل نفس المعني وتنذر الرجل بسوء العاقبة.

في ذلك الوقت وفي خضم المعمة لم ينتبه أحد للنداءات التي أطلقها ابراهيم البشوري والتي دق عددها المائة واربعون نداء لحاكم العراق وكانت تحمل كل أنواع الترغيب والترهيب والإغراء وتوعيد من أجل إنقاذ العراق وشعبه من الدمار.

كان أشد ما أحزن البشوري وآله أن وسائل الإعلام من صحف ومجلات وقنوات راديو وتليفزيون وقد أفردت لنداءات الزعماء العرب مساحات كبيرة. لم تعط لنداءاته ما تستحق من اهتمام وتقدير، بالرغم من أنه -علي حد قوله- قام بمجهود عشرة زعماء عرب علب الأقل!

و ابراهيم البشوري لمن لا يعرفه هو رجل صناعة قديم، كان يقوم بتصنيع المفتقة وتعبئتها في -رضمانات وصفائح من داخل غرفته التي يسكنها بحارة- صاري جلة" في باب الشعرية منذ عشرات السنين، ولئن كانت صناعته وتجارته قد كسدت في السنوات الأخيرة فإنه قد ظل على ولائه للمهنة حتي في ظل تحذير الشباب العايب له من أن معمله موضوع على جدول الخصخصة وأن محمود محيي الدين يتلمظ في انتظار الوقت المناسب للتنفيذ، فلما أخبرهم أن معمله للمفتقة هو قطاع خاص بالفعل فكيف تتم خصخصته. لم يجبه أحد!

حكى لي عم ابراهيم - وكنت أقصده من وقت لآخر للإثناس برأيه - أن زبائنه القدامي كانوا من الأكابر وعلية القوم لدرجة أن الملك كامل لم يكن يأكل المفتقة إلا من يديه. لم أشأ طبعاً أن أسأل عمن يكون الملك كامل لأنني خشيت أن يسؤوني الأمر إن ما بدا لي، لكنني توجست أن تصل المعلومات للأستاذ ممتاز القط الذي يتصور أن الملوك والرؤساء يصعب عليهم تسقية رغيفين في الملوخية. فماذا لو علم أن الرجل ينسب للملك كامل أنه يفطر مفتقة. إذن لربما سلط عليه من لا يخاف الله ولا يرحم البشوري!

في زيارتي الأخيرة له وجدته غارقاً في الحزن والاكتئاب وقد التف حوله شباب المنطقة يطلبون منه أن يعود لسالف مجده السياسي ويقوم بإرسال نداءات بمناسبة العدوان الاسرائيلي على لبنان، فلم يجدوا منه أدنى استعداد . . حاولت إغراءه بالقول بأن الزعماء العرب هذه المرة لم يتوجهوا بنداءات، وبالتالي فالملاعب خال وقد يكون هو اللاعب الوحيد . . فلم يتحمس وقال لي أن هذه الحرب لا تعجبه . . لماذا يا عم ابراهيم؟ هل بسبب الوحشية الشديدة وعدد القتلى من الأطفال؟ فأجاب ليس هذا فقط وإنما أيضاً لغياب البعد الكوميدي والروح الفكاهية

ثم استطرد: هل نستيم حرب الخليج الثانية عندما كان يظهر علينا كل نصف ساعة العقيد أحمد الربيعان المتحدث الرسمي باسم التحالف لإذاعة بيان جديد عن العمليات؟ هل نستيم كيف كان يضحكننا عندما يلقي بيانا يخلو من أي معلومات لأنه بالفعل لم يكن يعرف أي شيء، لكنه كان يظهر باعتباره الكفيل المعتمد لكل المراسلين وممثلي وسائل الإعلام في المملكة، ثم يحيلنا إلى الجنرال شوارتسكوف الذي لديه كل الأخبار . . أين هذا مما يحدث الآن . . أصبحنا نري كائناً ناصر وغسان بن جدو وعباس ناصر بأدائهم الجاد الحالي من الفكاهة . . ثم أردف: دعوني في حالي فقد أقسمت ألا أعود إلى السياسة .

لم أياس من مداعبته فقلت له وما رأيك يا عم بشبوري في الموقف المصري من الأحداث؟ . . ففرق في الضحك المزوج بالسعال وقال: الموقف المصري من أي شيء يمكن أن تعرفه إذا توجهت إلى ميدان ابن سندر بالقاهرة، هناك ستري لافتة مكتوب عليها شارع سليم الأول، تجاورها لافتة للشارع الذي يليه مكتوب عليها شارع طومان باي . . قلت له: وماذا في هذا يا عم ابراهيم؟ فأجاب في حدة: يا بني إن سليم الأول هذا هو الذي قتل طومان باي وعلق جثته على باب زويلة لتنهشها الطيور، وهذا لا يختلف عن أن تسمي شارعاً باسم الإمام الحسين والشارع المجاور له باسم قاتله يزيد بن معاوية أو أن تسمي ميداناً باسم حسن نصر الله وبجواره ميدان إيهود أولمرت . . فهمت يا أستاذ؟ إن الموقف المصري هو أن القاتل حلو والقتيل حلو، وأنا حلو وانت حلو!

انتحي بي أحد الحضور وقال لي: أراك ميالاً لهذا الرجل وتأخذ كلامه بجدية . . إني أحذرك . . هذا رجل مخرف، ونداءاته التي كان يرسلها للزعماء . . هل تعلم أي وسيط إعلامي كان يستخدمه في إيصالها؟ لقد كان يمكس بكوز مخروم مربوط في دوبارة طويلة ويتحدث بصوت عال موجهها نداءاته ورسائله، فضحكت قائلاً: أظن أن ابراهيم البشوري واع تماماً لما يفعل، ورسائله هذه كانت موجهة لكم انتم وليس لأحد آخر . . ومعناها أن ما يفعله هو نفس ما يفعله الحكام العرب وكله في النهاية . . في الهجايص!

قالت لي السمراء: "اسقيني مانجة"

كان الرئيس السادات رحمه الله يحب أن ينسب كل شيء على أرض مصر لنفسه باعتباره صاحب البلد وما عليها من إنس و طير وشجر وزواحف الخ . فكان يقول شعبي وجيشي ومعركتي وقضيتي وصحافتي . وكنت ألح نفسي معجباً بأسلوبه ومتمنياً أن يصير عندي أشياء حسرة أباهي بها مثله . وكان مما أجمع رغبتني هذه أن صحفياً كبيراً هو الاستاذ سمير رجب . وكان رئيساً لمؤسسة دار التحرير . قد سار على الدرب نفسه فأنشأ عدة صحف ومجلات تحمل أسماء محسني وعقيدتي وحريتي لأنه على ما يبدو أراد أن يشاركه القراء بعض أشياءه الخاصة ، ويقال أن مشروعات أخرى كانت في الطريق لصحف ومجلات جديدة هي ولاعتي ومحفظتي وفانلتي ، لكنها لم تنر النور بعد خروج الاستاذ رجب ، ومع ذلك فالناس ما زالت تأمل من خلال تواصل الأجيال . يكمل الأستاذ محمد على ابراهيم البرنامج الطموح للأشياء .

وعن نفسي وبعد تجربة لا بأس بها في الحياة لو أنني أملك فرصة إصدار صحيفة أو مجلة لما ترددت في أن أسميها بأسماء أحبها منسوبة إلى شخصي ، وأود أن أحدثكم عن بعض هذه الأسماء ومنها على سبيل المثال صفيحتي ، وقد كان لها دوراً في إسعادي لفترة من حياتي . . كانت صفيحة في الأصل تحوي سمناً ماركة الميزان . عندما فرغ منها السمن أخذتها واستخدمتها كخزانة حفظ أدواتي المدرسية ولتخبة المصاصة والعسلية من إختوتي ، وبعد أن قضيت منها وطراً زهدها نمت استخدامها كوعاء للزبالة . كان ذلك قبل اختراع الأكياس السوداء الشهيرة التي شجعت على قتل الأزواج وتقطيعهم ووتعبتهم .

كانت صفيحة الزبالة لا تسمح بكل ذلك ، ولهذا لم نسمع في تلك الفترة عن امرأة قتلت زوجها ، وهذه بكل أسف حقيقة وليست نكتة ! لهذا تراني أحمل للصفحة ذكريات طيبة ، كما أذكر أن جارنا وهو صاحب البيت في نفس الوقت كان يحب أن يمد يده ويفتش في صفيحتنا ويستخرج أحشاءها ويفحصها ثم يعيدها مرة أخرى . . وهي متعة افتقدها الرجل بعد ظهور الأكياس المربوطة . أه . . سقياً لذلك العهد .

جرفني الحنين إلى صفيحتي وأنساني أهم وأروع ما أنوي الكتابة عنه . . عزيزتي ، الحب الأول في حياتي . كانت عزيزة هي أجل فتيات الحي وصاحبة السمانة المخروطة ، بقوامها الملفوف والنعطافات جسمها وبشرتها الناعمة وملاحها السمراء الدقيقة ، كانت تحطف القلوب ومن بينها

قلبي وأنا بعد طالباً بالمدرسة الثانوية . كنت أسهر أَدَوْنَ محاولاتي الأولى في الشعر وعيناها الجميلتان تملآن مخيلتي ، وعندما ألتقيها بالنهار كنت أقرأ عليها ما كتبت ونحن نقطع شوارع العباسية والظاهر .

كانت أشعاري تضعها في حالة وجد شفيف لدرجة أنها كانت تدخل بيتها يوماً دامعة العينين من فرط التأثر . ولا أنسي أبداً أنها حاولت أن ترد بعض جمالي الشعرية فأسمعتني قصيدة حب كتبتها عني ، وكان مما قالت : أحلف يمين الله . ما عمري قلت الآه ، ولا قاسيت الوي . عيونك الحلوة . رمتني ع الشكوي ، شكيت لأهل الحي . فلما انتهت سألتها : عيوني أنا؟ قالت : عيونك يا حبيبي ، فقلت لها وأنا خجل : لكن هذه الغنوة من شعر صالح جودت ، قالت لي : يعني أنا كذابة؟ قلت لها : لأ صالح جودت هو اللي كذاب يا عزيزة!

لم تؤثر محاولتها الكاذبة في نسب شعر لم تكتبه إلى نفسها على علاقتي بها أو حبي لها وعزوت الأمر إلى فرط المحبة والرغبة في إسعادي ، لكن الذي أثر بشدة لدرجة أن وضع نهاية لقصة حبنا الخالدة هو الموقف التالي : كنا نسير متشابكي الأيدي نغني ونضحك عندما مررنا بجوار محل جنة فواكه العباسية ، ووجدتها لدهشتي تقف وتتسمر في الأرض وتقول لي : اسقيني مانجة ، قلت لها : استهدي بالله يا عزيزة ، فردت باصرار أشد : اسقيني شوب مانجة ، حاولت أن أشرح لها أن الخمسة تعريفة في جيبني هم ثمن سيجارتين كليوباترا ستسهمان بعد أن تعمراً الجمجمة في كتابة أشعار جميلة عنها سيحفظها التاريخ ، فما كان منها إلا أن صغعتني بجملة كنت أسمعها للمرة الأولى ، وإن كنت قد عشت لأسمعها بعد ٣٠ سنة منسوبة لقائد كبير : " أنا لا عاوزة أدخل التاريخ ولا الجغرافيا " !

كانت الصدمة أكبر مما يمكنني احتماله ، الفتاة التي أهواها لا تلقي بالاً إلى التاريخ الذي سيحفظ قصتنا وتؤثر عليه شوب مانجة ! ثم بفرض أنني تهورت اليوم وسقيتها مانجة فماذا عساني صانع غدأ بعد أن تعتاد ذلك ؟ هل انحرف من أجل تلبية طلباتها التي قد تتصاعد إلى درجة لا يمكن التسبؤ بها . في محاولة أخيرة يائسة لإنقاذ حبنا قلت لها متضرعاً : عزيزة . . مستعد أسقيك عصير قصب ومن ثم يتبقي لي ثمن سيجارة واحدة . ما قولك؟ قالت بلهجة أمة : قلت لك اسقيني مانجة .

ناولتها كوب المانجو ووقفت أرقبها وهي ترتشفه في سعادة ومع كل رشفة كانت محبتها تتسرب من داخلي ، وعندما أعادت إلى الكوب فارغاً كان الحب قد رحل إلى غير عودة .

كلايظان السيد العميد!

طالعت بالمصري اليوم منذ بضعة أيام خبراً غريباً أشد الغرابة تصدّر الصفحة الأولى . كان خبر المنشور بالصور يحكي عن عميد كلية العلوم بجامعة طنطا وكيف أنه على مرأى من الجميع دخل مدرج مكتظ بالطلبة قام بتسديد مجموعة من اللكمات إلى أحد أبنائه الطلاب لأن الأخير دعا زملاءه إلى رفض زيادة الرسوم الجامعية ! فركت عيني غير مصدق ، ثم نحت الجريدة جانباً وأنسكت بجريدة أخرى وجدت بها نفس الخبر بنفس التفاصيل والصور للسيد العميد والسيد وكيل الكلية وكلاهما يمسك بتلابيب الفتى ويكيل له اللكمات طبقاً لرواية الطالب المضروب وزملائه المذهولين .

استرجعت سنوات الدراسة الجامعية وعلاقتنا بعميد كلية الإعلام ، فلم أذكر أبداً أن الدكتور عبد الملك عودة أو الدكتور خليل صابات قد قام أياً منهما بتوجيه لكماته نحونا . . حتي الدكتور على الدين هلال الذي قام في السنوات الأخيرة بلكم مصر في أنفها لم يحدث أبداً أن ضربنا بالبوكس .

اتصلت بأحد أصدقائي وهو استاذ جامعي لأسأله إذا كان ضرب " البونيات " مقررأ هذا العام أو إذا كان عليه أعمال سنة؟ . . لم يفهم الرجل سؤالي وطلب الإيضاح ، فبينت له أنني أقصد اللكمات أو اللكميات أو الضرب بقبضة اليد ، فأجاب الأستاذ الصديق بالنفي ، وهو ما وضعني في حيرة شديدة فلم أعرف ماذا أفعل لأستجلي الأمر . ثم فتح الله على وتذكرت خبير البونيات المتقاعد الكاتب " كنعان " مدرب الملاكمة السابق بمركز شباب " علوة مدين " وهو الرجل الذي إذا غضب كان الأهالي ينامون من المغرب فرقاً ورعباً ، وكانت مستشفى سيد جلال المجاورة تعمل بكامل طاقتها عندما يكون كنعان في حالة نشاط زائد ، إذ كانت لكماته تشكل تحدياً داخل غرفة العمليات !

نزلت بسرعة للقاءه حتي أستفيد من علمه الواسع في تحليل الحدث ، ووجدته كما توقعت على القهوة في الطشطوشي . بادرت به بدون مقدمات : قل لي يا كاتب . . هناك عميد بإحدى الكليات ضرب طالباً بالبوكس وسدد له لكمات صاروخية وقد نشرت الجرائد الواقعة معرزة بالصور ، والناس في البيوت حائرون ، يتساءلون في جنون . . عميد علوم طنطا من يكون؟

سحب كنعان نفسين عميقين من البوري وزفر زفرة حارة وهو ينظر إلى السماء وقال : لا يعرف الشوق إلا من يكابده . قلت له : أي شوق يا كنعان . . الولد هوجم على حين غرة بدفعة من اللكمات في وجهه وكل أنحاء جسمه وانت تحدثني عن الشوق ! سألتني في جدية صارمة : مجموعة اللكمات التي نتحدث عنها . . هل كان من بينها شمال خطافية ؟ قلت له : أظن وإن كنت غير متأكد ، قال : هل كانت هناك يمين مستقيمة أو كانت هناك واحدة ستوماك ؟ أجبت : والله أنا لم أشهد الواقعة ولكن الجرائد تحدثت عن عدد لا بأس به من الضربات الساحقة ، قال كنعان : المباراة كانت من كم جولة ؟ رددت في ذهول : أي مباراة ؟ أنا أحدثك عن . . .

قاطعني في حدة : هذا هو ما أعنيه بأنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده . . هذا الرجل كان ملاكماً سابقاً يا أستاذ ، وقد تقطعت به سبل الحصول على مباريات حقيقية وأراهن أن خبطته من الممكن أن يختار فيها الطب ! ثم أضاف : بعد اعتزالي التدريب كنت أخرج إلى الشارع ألتمس أي خناقة أطلق فيها ذراعي من عقاليهما وأسري عن عضلاتي النعيسة ، ولم يكن يسعدني سوى الحصول على خصم من نفس وزني وأحياناً اثنين أو ثلاثة ، وكنت أتمتع معهم لمدة نصف ساعة على الأقل . سألته في فرع : كيف كنت تتمتع معهم ؟

قال : الأئين الذي يعقب كسر الفك كان يمنحني متعة صافية ، ورؤية الوجه مغطي بالدماء المتفجرة من المسام كان يغسل أشواقي ويمنحني السكينة والصفاء . غمغمت وأنا أنظر إلى عينيه المسبلتين ووجهه المنتشي : يا وعددي على المتعة ! . . لكن إذا كان توقعك صحيحاً عن أن سيادة العميد كان يمارس رياضة الملاكمة في السابق ، وأن ما حدث لم يكن أكثر من محاولة للحفاظ على حساسية اللاعبين فلماذا صرح سيادته لجريدة الدستور بما نصه : " أنا لا أعتقد أنني ضربت الطالب " أجاب كنعان في حماس : لأنه فعلاً لا يعتقد أنه ضرب أحداً . الأمر كان مجرد مباراة . . صحيح كانت من طرف واحد ولكنها على الأقل خير من التدريب على كيس الرمل ! ثم خبط كنعان جبهته كمن تذكر شيئاً وسألتني في لهفة : هل كان سيادة العميد يرتدي الكلابضات ؟

(الكلابضات هي القفازات التي يرتديها الملاكمون وهي مأخوذة من كلمة Gloves الإنجليزية)
وجمعها جلفرات ثم جري تحريفها على لسان العامة وصارت كلابضات)

قلت : والله يا كنعان لقد أخذتني في سكة بعيدة تماماً عما كنت أعتقد وأدخلتني في متاهة ، إن الصور المنشورة لا توضح هذا الأمر ، وعليّ أن أعود إلى شهود الواقعة لأسألهم عن موضوع

ملاحظات . قال : أرجوك بسرعة يا أستاذ لأن هذا الأمر على قدر كبير من الأهمية ، ذلك أن سحب الفتي بالقبضة العارية يجعل الماتش غير قانوني ويلغي النتيجة من سجلات الاتحاد وقد يهدد سحب النتائج السابقة وسحب الميداليات والكؤوس ويهبط بما حدث أمام الطلبة إلى مستوى حافة البلدي .

عذرت المقهي وأنا أشعر بالرضي ، فقد عثرت على حل اللغز . ولا يهم في شيء موضوع غدرات هذا ، فحتي لو قام الاتحاد بشطب النتيجة فيكفي أن سيادة العميد قد حقق الانسلاخ . وحي ونال المتعة التي حكى عنها الكابتن كنعان مدرب علوة مدين السابق .

شارع هياتم

كنت بالإسكندرية الأسبوع الماضي عندما قرأت بصحيفة الدستور بتاريخ ٣١ أغسطس خبراً يقول: حي شرق الاسكندرية يطلق اسم الراقصة هياتم على شارع بجوار كوبري استانلي . وقد نقلت الجريدة استنكار رموز الشارع السكندري لهذا الإجراء على أساس أن الراقصة والمثلة هياتم ليست سكندرية المنشأ، بالإضافة إلى أنها لم تسهم في أي دور سياسياً كان أو اجتماعياً في الحياة السكندرية . فكيف يتم وضع اسمها على الشارع؟

كان الأمر سهلاً بالنسبة لي للتحقق من صحة الخبر ، فأخذت سيارتي وانطلقت في اتجاه الكورنيش ووصلت للمنطقة وشاهدت الشارع تزينه اللافتة كما نشرت الدستور صورتها تماماً . وعلي عكس ما قد يتصور البعض فإنني لم أشعر بأي انزعاج أو استنكار لإطلاق اسم هياتم على الشارع ، فمدينة الاسكندرية تعج بأسماء شوارع لم يكن صاحب أي منها سكندري الأصل أو المنشأ مثل " صريع الغواني " الذي لم يذهب للاسكندرية أبداً حتي صرعه الغواني فتم تخليده على يد المجلس المحلي .

علاوة على هذا فإن شوارعنا في الاسكندرية وفي غيرها من المدن تمتلئ حتي الثمالة بأسماء طغاة وأسماء جبابرة ورجال حكم وساسة من كل صنف ونوع ، بعضهم كان في أحسن الأحوال شخصية تافهة لا تمتلك أي ميزة سوي شغل مقعد وزاري في غفلة من الأيام ، وبعضهم ارتكب جرائم ضد الانسانية و كان أشد عداء للمصريين من الهكسوس !

ومن يتابع أسماء الشوارع بنظرة متعمقة لا بد سيدرك أن أسماء الشخصيات التي تقترن في أذهان المصريين بالحب والاحترام هي قليلة للغاية ، فضلاً عن أن الفاتازيا كانت دوماً ملمحاً مميزاً لأسماء شوارعنا ، فشوارع بإسم العيش والملح لا يعني سوي رضي المصريين التاريخي بالفقر ، وشارع " حزقيال " لا مدلول له سوي الرغبة في العبث ، أما شارع السكر والليمون فإنه لا يمثل سوي مكونات عجينة لنزع الشعر !

لهذا كله فإن إطلاق اسم هياتم الرقاصة على شارع بالاسكندرية لا يعد اختياراً كارثياً ، فالإسم لا يستدعي للذهن أي ذكريات أليمة كأسماء رموز الاحتلال الانجليزي والفرنسي وأسماء عملائهم من المصريين ، أو أسماء المماليك القدامي والجدد . غير أن سؤالاً خطراً ببالي وأنا ناقش مع نفسي موضوع شارع هياتم وهو ما الذي جعل الناس تتصور أن هياتم تلك هي نفسها هياتم

الراقصة؟ من أدراهم أنها قد تكون نوعاً آخر من الهياتم؟ وعندما قمت باستعراض تاريخ الاسكندرية ورائدات العمل العام بها من حملن اسم هياتم لم أجد سوى اثنتين فقط سمعت عنهما ولم أتشرف باللقاء المباشر .

الأولي هي "هياتم الهبو" وكانت من أكبر تجار الصنف بالمدينة، ويعرفها كل عشاق الثغر من اغتواوا بالأمر المحال وهو الحصول على قطعة غير مضروبة، وقد اكتسبت الست هياتم سمعتها الطبية من كونها لم تغش أبداً ولم تفعل مثل غيرها من الذين كانوا يخلطون البضاعة بالحناء واللبن الدكر، وأذكر أنني أيام الدراسة قد ذهبت بصحبة صديق سكندري من الغاوين، وصعدت معه على جبل من الزباله خلف السكة الحديد بالعصافرة وشاهدت الزبائن يقفون في طابور أقسم أنني لم أشهد لانتظامه مثيلاً في مصر طوال حياتي وكان ينتهي عند كوة في الجدار تمتد منها يد نسائية تدلي منها الغوايش الذهبية، وكانت تأخذ الفلوس من الزبائن وتمنحهم طلباتهم في ورق سولوفان، وصك سمعي للمرة الأولى مصطلحات مثل غُبارة، ويروت، وزيت . . . وهي أسماء أفضل الأنواع في ذلك الوقت. فهل يا تري هياتم الهبو هي صاحبة الشارع المذكور؟ وهل يا تري ما زال حي شرق يذكر أفضالها وأمانتها في التجارة ونثر الهبو على شواطئ المدينة؟ . . . لا أدري؟

أما هياتم الأخرى فهي هياتم الديناري سيدة الأعمال السفلية، نجمة المجتمع السكندري لسنوات طويلة وصاحبة أفخم موائد الرحمن . . . وقد كان اسمها الأصلي هو "هياتم شنتوح" وأبوها كان شنتوح القواد الذي ورث المهنة عن والده شنتوح الكبير. قامت هياتم بتطوير الأداء وصعدت لفوق مع زبائن الكبار، وتخلصت من لقب شنتوح الذي لازمها منذ خرجت للحياة في جبل ناعسة، ونسبت نفسها للديناري باشا صاحب محالج الأقطان الشهير . . . ويزعم بعض زبائنها القدامى أن لقب الديناري قد التصق بها عندما كانت لا تقبل التعامل سوى بالدينار . . . والدينار وحده. ويذكرون أيضاً أن أحد الزبائن أراد أن يتذاكي ودفع لها يوماً بالدينار التونسي فما كان منها إلا أن جعلته عبء للمستظرفين، وأعلنت أن دينار جنوب المتوسط سواء الجزائري أو التونسي غير مقبول لديها، وأن الدينار المعتمد هو دينار غرب المحيط الهندي وبحر العرب الذي يتم فكه بعشرين!

فهل يا تري هياتم هانم الديناري ابنة الريس شنتوح هي المقصودة بشارع هياتم؟ أعتقد أن الإجابة عند المسؤولين بمحافظة الاسكندرية الذين عليهم أن يتحلوا بالشجاعة ويعلنوا أن الفنانة هياتم هي صاحبة الشارع، حتي لا يظن الناس أن هياتم الهبو أو هياتم شنتوح هي المقصودة.

وعليهم أيضاً أن يعلنوا برنامجهم للمرحلة المقبلة والذي قد يعيد الاعتبار للفن كقيمة في حياتنا خاصة إذا تضمن البرنامج أسماء مثل قطقوطة ونيللي مظلوم وكيكي وسوزي خيري وصولاً حتى دينا التي أمتعتنا العام قبل الماضي بالكليبات المصورة التي ارتفعت فيها بالأداء إلى ذري غير مسبوقه، لهذا فقد شاهدها العالم كله، حتى أن نسخة قد وصلتني حيث كنت أعيش بالقطب الشمالي في كندا!

عنود مونتجومري.. ممرًا لمصر الصامدة

صاف بخاطري السؤال التالي: هل خلت مصر في وقتنا الحاضر من الرموز؟ أم أن مصر التي -ت على الدوام ولادة، لم تعقم وما زالت تزخر بالقيم الشاخنة في كل المجالات؟

حضرت بيالي أسماء لأشخاص محترمين أظهروا شجاعة وتجرداً في وجه الغيلان والديناصورات -نهي الزيني ويحيي حسين عبد الهادي، هشام البسطويسى وزكريا عبد العزيز، لكني مع هذا حبت أن أستعين بصديق في مناقشة هذا الأمر فذهبت إلى قهوة كوكو في الهضبة الوسطى بالمقطم -نتني بواحد من أعز أصدقائي وأقربهم إلى قلبي، ذلك هو ممدوح مونتجومري زميل الدراسة -نسيم الذي كنا نعتبره أكثرنا ذكاء ومهارة وقدرة على التخطيط والحسم فأسميناه مونتجومري -نبره سيكون قائداً لأي مكان يذهب إليه، وبشاء القدر أن يموت والده فلا يكمل دراسته ويعمل -نثوية العامة لفترة، ثم يستصلح أرضاً وعندما تبدأ في العطاء يستولي عليها الموظفون بحجة أن -رته كانت ناقصة دمغة! ثم يبدأ من جديد ويدخر قرشين يضعهم بشركة توظيف أموال، -ينعون الرجل الملتحي والحكومة الخليفة في الاستيلاء على فلوسه، ثم يمنحونه عشرة بالمائة من -نخراته على شكل صابون ومكرونة، فيجلس على الرصيف لبيعهم فيباغته أمناء الشرطة في حلة -سبدية ويصادرون البضاعة.. ويبدأ من جديد للمرة العاشرة، ويتمكن بعد عذاب من شراء توك -رت يعمل عليه الآن على خط المفقار- صبحي حسين بالمقطم، وكل أمله أن يتمكن من الزواج من -نصيته سحر.. حسناء مساكن الزلزال.

وجدته على القهوة يجلس مع زملائه سائقي التوك توك بالمنطقة وأغلبهم مؤهلات عليا. -نرحته بسؤالي عن الرموز في حياتنا الحالية وهل حقاً عقلت مصر؟ ففوجئت بأحد زملائه يسرع -نجابة: لينتها عقلت! إن مصر لم تعقم يا أستاذ، لكنها حملت سفاحاً من الشيطان وأنجبت كل -ولاد الحرام الذين عذبونا والحقوا مصر بمملكة جهنم.. ثم أعقب إجابته بضحكة مجلجلة. سألت -مدوح: وأنت يا مونتجومري هل تؤيد صاحبك في رأيه؟ فشد نفسين من الشيشة وقال: لا.. أنا -نعتقد أن مصر مليئة بالرموز في كل المجالات.. أنظر إلى حياتنا وأنت تتأكد مما أقول.

فقلت له مندهشاً: مثل من؟ قال: عندك مثلاً وزير التعليم بسيوني الجمل، الرجل صاحب -كادر.. هل تعرف الكادر؟ قلت له: سمعت عنه. قال: الوزير وضع نفسه في الكادر، وهو

ليس الكادر الذي ينتظره المدرسون ، إنه الكادر الذي ورد ذكره في أغنية " كاتش كادر في الأولولو " لقد وضع الرجل يده على قطعة في الأولولو ، وعندما كانت الطفلة أميرة تلفظ أنفاسها تحت شمس قنا الرهيبية وهي تقف في انتظار الأخ بسيوني لم تكن تعرف أن سيادته يجهل عذابها وهو جالس في الأولولو المكيف . ثم أردف مونتيجمري : هل تريد نموذجاً آخر من الرموز .

قلت هل كل رموزك بهذا الشكل ؟ وهنا تدخل أحد الجالسين واقترح رمزاً آخر : عندك مثلاً الأستاذ عبد السميع الذي أصبح مؤلف مسلسلات يشترها التلفزيون في الحال . سألته : عبد السميع من ؟ فقال : عبد السميع شاهين . . حفيد شاهين بك الذي خدع الباب العالي في الأستانة وهرب من قضية تحرش ثم تزوج من يasmine بعد أن ألقى بحسن الهالالي في السجن . قلت له عم تتحدث ؟ فرد سائق آخر : لا يا أستاذ . . إنه يقصد عبد السميع بدران حفيد بدران رئيس الشرطة الذي حبس أخاه عبد الجليل في قبو مظلم وأرسل حسن الهالالي إلى معتقل المغول . . و انفجر الجميع في الضحك .

قلت لممدوح : أنا لا أدري إن كان كلامكم جد أم هزار ، فأجاب وهو ينظر للأفق : جد و حياة غلاوتك . . هذه هي الرموز في حياتنا ، وهناك المزيد ، عندك مثلاً الدكتور صاحب فتوي إرضاع الشحط . . لقد صار الرجل رمزاً بعد أن حل مشكلة أرقت العالم الإسلامي وأقضت مضجعه ، لكننا مع هذا ما زلنا في انتظار المذكرة التفسيرية للفتوي التي تتضمن الإجابة على تساؤلات الجمهور ، مثل هل من حق المدير أن يرضع أولاً قبل صغار الموظفين ، ومثل الموظف الذي أخذ ثلاث رضعات فقط . . هل من حقه أن يحضر أخيه لتناول الرضعتين الباقيتين أم يأخذ بالباقي كبريت ؟ ! ثم انفجروا في الضحك من جديد .

و بادرنى أحدهم : وانت يا أستاذ أليس في ذهنك أحد الرموز ؟ قلت له : لو سرت على منوالكم لعددت مئات الرموز وليس آخرهم الشيخ صاحب حكاية البول المقدس الذي حكي للناس أنه شاهد الرسول في حلم يقظة . . هذا الرجل أيضاً من رموز المرحلة ، وهو يذكرني بشيخ الأزهر السابق الذي دخل معه الأستاذ أحمد بهاء الدين في مساجلة عنيفة منذ سنوات عندما كتب الرجل أن من ضمن الأشياء التي لا تفطر في نهار رمضان الطين الأرمني وبزاق الصديق ! ! وقتها كاد الأستاذ بهاء أن يجن وهو يسأل عن معني الطين الأرمني وما الفرق بينه وبين الطين المكسيكي وهل يأكل الانسان الطين حتي تفكر إذا كان يفطر أم لا يفطر . . واستطيع أن أقول أن شرابين مخ الأستاذ بهاء قد انفجرت لأنه كان يأخذ هؤلاء الناس بمجدية ويرد عليهم ويناقشهم !

انتهت السهرة مع صديقي ورفاقه سائقي التوك توك وفي ذهني تصور جديد لمعني الرمز . . إن روح مونتجومري هو ذاته رمز حقيقي لهذا الوطن ، هو إنسان لم تمنحه مصر أي شيء ، وكلما تم بناء مستقبله هدمه الظالمون ، ومع هذا لم يكفر بالوطن ولم يتخاير لحساب إسرائيل ولم يتعاطى نحو مثل الملايين غيره ، ولم يطلق لحيته ويرتدي جلباب أفغاني ولم ينضم للحزب الوطني ولم يكسب قرشاً من حرام . . هذا هو الرمز إن أردنا أن نتحدث عن الرموز ، فهل يوافقني القراء أم يعتبروني مجنوناً؟

عزت بلتكانة والذي خربوها الكائن

جمعت جرائد الأسبوع الماضي التي فاتتني قراءتها نظراً لسفري ، وخرجت من البيت في الصباح قاصداً مكاناً يتسم بالرومانسية حيث يمكنني تصفحها على مهل . وصلت إلى عربة الفول التي يقف بها عزت بلتكانة على مشارف الصحراء في آخر التجمع الأول . اكتملت الشاعرية بعد أن جهّز لي كرسياً وترابيزة في ظل شجرة وأحضر لي بنفسه طبق فول بالزيت الحار والخلطة وجلس معي تصفح الجرائد .

كنت أعرف **جبه للسياسة ومتابعة للأخبار** . أشار إلى إحدي الصور وسألني بدهشة : أليست هذه صورة فؤاد الشامي بتاع عماد الدين ؟ قلت له : من يكون فؤاد الشامي ؟ أجاب : فؤاد الشامي الذي قتل امتثال زكي الرقاصة ، قلت له يا عم بلتكانة هذه صورة الدكتور هاني هلال وزير التعليم العالي ، قال : سبحان الله يخلق من الشبه أربعين ثم أردف : وكاتبين عنه ايه سي هلال ؟ قلت له : أبداً كاتبين ان احدي أولياء الأمور ذهبت تقدم لابنتها في التنسيق الالكتروني للثانوية العامة وكادت تهلك من الحر وغلظة الموظفين وجهل رؤسائهم الأمر الذي حدا بها إلى الصباح في وجه الوزير قائلة : حرام اللي انتوا بتعملوه فينا ده ، لا احنا عارفين ندخل على النت ولا احنا عارفين نسجل الرغبات ونكاد نهلك من الشمس . فما كان من الوزير إلا أن سخر منها قائلاً : " حركب لك تكييف في الخيام " . بادرني بلتكانة متشككاً : انت قلت لي ان ده وزير . أبوة يا سيدي وزير . يعني متأكد أنه مش فؤاد الشامي ؟ أصل فؤاد الشامي كان بيرد على الناس بالشكل ده . . سبحان الله !

نظر عزت إلى صورة أخرى وقال : أما ده بقي فأنا عارفه لأنه بلدياتي . . ده أحمد أبو الغيط الوزير المتصيت ، اللي حايرجع حق الأسري اللي قتلهم إسرائيل . . كاتبين عنه ايه ؟ قلت له كاتبين كلام زي الفل . . قال للأمريكيين بمناسبة أنهم أنقصوا من المعونة مبلغ ٢٠٠ مليون جنيه : احذروا غضب المصريين لأن غضبهم وحش . سألني بلتكانة : وعهد الله قال لهم كدة ؟ قلت له : آه والله . . أطلق الرجل ضحكة عالية وسحب في آخرها واحدة اسكندراني وقال : مش قلت لك ده راجل واعر وغويط . . حد غيره يقدر يأكل الأمريكان الأونطة ويقنعهم أن هذا الشعب البليد عديم الإحساس غضبه وحش ، بكرة الأمريكان يرجعوا المعونة ونشوف الجبهة الصفراء واللبن البودرة من

جديد . . الدبلوماسية الحقيقية يا أستاذ أساسها التهويش وفنجرة الحنك وضرب المطاوي في الهواء،
عفارم يا أبو الغيط .

قلت له : وهل تظن ان امريكا ممكن تخاف من هذا التهويش ؟ رد قائلاً : العيار اللي ما يصبيش
يدوش ، ولو أمريكا ما خافتش ممكن السعودية تخاف ، ليبيا تخاف ، الصومال تخاف ، ماهو احنا
لازم نخوف حد . . قال هذا ثم مديده إلى جريدة أخرى تزينها صورة أحمد المغربي وزير الإسكان
وقال اقرأ واشجيني . . ماذا قال هذا الرجل السعودي اللي كله بركة ؟ قلت له هذا الرجل
السعودي اللي كله بركة قال أنه لن يقلق حتي لو وصل سعر الأرض في القاهرة الجديدة إلى ٣٠
ألف جنيه ، وقال أيضاً أن أزمة مياه الشرب سببها أن الماء يباع بسعر رخيص . . ما رأيك يا
بلتكانة ؟

قال : أنا أعرف عن هذا الرجل كل خير ، هذا رجل لا يكذب ولا يخدع أحداً . . هل قال لكم
من قبل انه مشغول بالبعد الاجتماعي ومحدودي الدخل . . هذا ملياردير سعودي له استثمارات في
كل مكان . . لا هو رجل سياسة ولا هو يعرف شيئاً عن حياة المصريين ، لكن حظه الحلو جعل
أصدقاءه يأتون به إلى المنصب . . أمانة ما حدش يزعل منه علشان ده راجل مبروك ودعوته
مستجابة . قلت له وقد غاظني بروده : أنا لن أكمل قراءة الجرائد معك يا بلتكانة لأنك رجل
مستفز ومثير للأعصاب ، ألا تجد في أداء هؤلاء الوزراء وتصريحاتهم ما يدفع إلى الغضب
والحنق . . كل ما يفعلونه مبرر لديك ؟

رد بهدوء : وماذا يفيد الغضب ويفيد الحنق يا أستاذ . . إن هؤلاء الوزراء وغيرهم هم الذين
خرّبشوا الكارت فكسبوا الوزارة . . هل تسمع عن الإعلانات التي تدعو الناس ليل نهار لخرّشة
الكارت ؟ هل شاهدت الإعلان الذي يحكي عن رجل أنفق عمره في الكد والعمل حتي استطاع في
النهاية أن يركب سيارة مرسيدس ، بينما المحظوظ الذي خربش الكارت كسب نفس السيارة بدون
أي مجهود . . هؤلاء المسؤولون خربشوا الكارت فطلعت لهم الوزارة ، فلماذا تتوقع منهم أداء
رفيعاً . . هل أنت الذي أوصلتهم للحكم حتي نحاسبهم على أدائهم ؟ هذا هو زمن الكارت وزمن
الخرّشة . . ويا ويل اللي ما يعرفش يخربش !

١. ننسوا عسرانا!

ذهبت لزيارة صديقي الأستاذ عسران، فوجدته يجلس منتشياً بجوار الكاسيت يستمع إلى بعض لأغاني الوطنية القديمة، وأخبرني أن هذه الشرائط هي بهجة حياته. يكفي أنها تذكره بالزمن جميل، زمن الأغاني التي ألهمت مشاعر الناس لأحلام الحرية والعدل والوحدة في الستينيات. ثم نفز من الستينيات إلى التسعينيات وقام بتشغيل أغنية "اللهم لا اعتراض" التي غناها عبد الله نرويشد إبان حرب تحرير الكويت سنة ٩١ وصارحي باعتقاده أنها كانت عاملاً أساسياً في تأليف لقنوب حول قضية الكويت العادلة.

إضطرت أن أكون صريحاً معه وأخبرته أن كل أزماننا غبراء وأن الزمن الجميل الذي يتحدث عنه لا يوجد سوي في مخيلته المشوشة وقلت له انني على الرغم من ميلي العاطفي لأغاني ستينيات الوطنية التي مست قلبي منذ الطفولة، إلا أن هذه الأغنيات قد ارتبطت في ذهني بأسوأ كارثة يمكن أن تحل بإنسان: تدمير وطنه. والأمر أشبه بحالة الارتباط الشرطي عند "بافلوف" عندما كان يُسمع الحيوانات صوت الجرس ثم يقدم لها الطعام، فيصبح صوت الجرس وحده بعد ذلك كفيلاً بتنشيط الغدد اللعابية.

أليس هذا ما حدث؟ عبد الحليم يغني صورة ويا أهلاً بالمعارك ويغني ولا يهتمك يا رئيس، ويعدها تنتهك طائرات العدو سماءنا وتدمر طائراتنا على الأرض، وتقصف منشآتنا وبيوتنا ومصانعنا، ثم تتقدم دباباته وتجتاح أراضينا وتدفن جنودنا أحياء ثم تفرض علينا الهزيمة سريعة. كل هذا بينما بلدنا على التربة بتغسل شعرها، في الوقت الذي كان يتوجب عليها أن تترك شعرها قليلاً وتفرغ للمعركة!

لهذا فقد كان طبيعياً عندما اندلعت معارك حرب أكتوبر وبدأت الأغاني تتدفق أن يزداد خلعي. و كان جمال أغنيات على الربابة لوردة وويّا أول خطوة فوق أرضك يا سينا لمحمد رشدي دعياً لبث الرعب في قلبي من الكارثة التي اعتدت أنها تأتي تالية للأغاني الجميلة. ورغم أن الأداء لبطلولي الرائع للجندي المصري قد صدر الكارثة هذه المرة للجانب الإسرائيلي فإني لم أبرأ من خاوفي.

بعد حرب أكتوبر تبدل الحال. اختفت الأغاني الوطنية التي كانت تدفع بالأدريين في الدم وتجعل العروق تنتفض بالكبرياء، وحلت محلها أغان سخيفة تشبه المرحلة تماماً، أغاني وطنية

"دايت" لا تثير في النفس سوي السخرية والرغبة في إطلاق الكلام "الأبيح" فسمعنا مطربين يغنون كلمات ركيكة لأغان تقول: مصر السادات، وبيا حبيبنا يا سادات وأغنية أخرى هزلية تقول: (ياللي حطّمت جميع النظريات) رغم أن النظريات كانت ولا تزال صحيحة وبجالها ولم تُصب بمجرد خدش!

لكنني أعترف بأن سخافة الغناء الوطني في هذه الفترة قد منحتني طمأنينة تشبه حالة الخراف وهي تأكل من الزبالة بين الخرائب حيث يسرح بها الراعي بعيداً عن المرعي الطبيعي الذي تأكل منه كل خراف الدنيا. وكان لمنع إذاعة الأغاني المرتبطة بالفترة الناصرية لمدة تزيد على عشر سنوات أثراً في تهدئة مخاوفي واستقراري على حالة الخروف التعيس.

أما حكاية صدام حسين وغزوه للكويت فقد أحدثت نقلة نوعية في دنيا الغناء الوطني، فنفس الأغنية التي كان يبثها راديو بغداد تتوعد الظالمين (الكويت واسرائيل والسعودية ومصر وأمريكا) كانت تذاع من راديو المملكة تتوعد الظالمين أيضاً (العراق وفلسطين والأردن واليمن)! وعندها تقدمت مصر الصفوف وأطلقت أغنية اللهم لا اعتراض التي كتبها عبد الرحمن الأبنودي وغناها عبد الله الرويشد وتم تصويرها في وجود فتيات ينتحبن ونساء كحلّ السهاد جفونهن من أجل إضفاء مزيد من الأسى واللوعة والتعاطف بين المشاهدين. إلا أن الجمهور المصري أدرك بفطرته أننا جميعاً نساقي إلى المذبحة أياً تكون نتيجة الحرب التي أخذت تدق الأبواب بعنف.

و رغم الاصطناع الواضح في الأغنية وعدم خروجها من القلب (قلب الأبنودي على الأقل) ورغم تعامل المصريين معها باستخفاف . . إذ بينما يغني الرويشد: (أنا في وادي يا ربي وولادي في واد) فقد كان المصريون يرددون: (أنا في ومبي يا ربي ومعايا الولاد، والله لا اعتراض) في إشارة إلى انتشار اللاجئين الكويتيين في ذلك الوقت في مطاعم ومبي وكنتاكي . . على الرغم من هذا فقد ذكرتني بأغاني ٦٧ التي سبقت الكارثة . . ولم يحب ظني، فقد تم تدمير العراق ودخلنا جميعاً في نفق مظلم لا ندرى كيف الخروج منه حتي الآن.

الأمر الطريف الذي أعقب الحرب هو إعلان الكويت وجود أسري يقدررون بالمئات لدى الجانب العراقي، وظل الكويتيون على مدي ١٢ سنة يرفعون شعار: "لا تنسوا أسرانا"، ولم يتخلوا عنه إلا بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣ وانكشاف أنه لا أسري ولا يحزنون!

كل هذا ذكرت به صديقي عسران، لكنه بعناده المعهود لم يكثر لما ما قلت، وإمعاناً في إغاضتي فقد أخبرني بنيتي التقدم إلى الانتخابات القادمة، وقال انه سيعتمد حملته الإنتخابية شعاراً جديلاً ثبت تأثيره وسره البائع، إذ سيناشد جمهور الناحيين في دائرته قائلاً: لا تنسوا عسرانا!

أصدقاء من ومن

صفحة مهترئة مه كتاب الصداقة

عجبة هذه الدنيا . لا تكف أبداعن إدهاشي ، وكلما ظننت أنني قد فهمت ، أجدني مضطراً للبدء من أول السطر . تجعل أناسا يدخلون إلى حياتك بقوة ويصرون جزءاً من أيامك ولياليك ، حتي لتعتقد أنه لا يمكنك الاستغناء عنهم ، ثم إذا بالذي حسبته صداقة أبدية هو علاقة عادية هدفها إزجاء الوقت ودفع الملل والرتابة عن الأيام . . صداقة تنتهي بانتهاء أسبابها !

كانت أيامي بالكويت مترعة ، صاخبة ، مليئة بالأصدقاء والزيارات والسهرات وجلسات المسامرة والحكي . ثم تمر السنوات وأعود إلى مصر ، وكأن السنوات التي مضت كانت حلماً وكأن أبطالها كانوا أشباحاً تبخرت واختفت . . عندما اختفت المصلحة اختفت الصداقة ! لا بأس هذا لا يصدمني كثيراً ، تعودت أن أعذر الناس ، وألا أتوقع منهم الكثير ، والحمد لله . . الزاد الوفير من الأصدقاء يجعلني لا أنتبه سريعاً لاختفاء بعضهم .

بعد سنوات وكنت قد انتقلت للعيش في كندا ، استلمت رسالة من أحد أصدقاء شلة الكويت أسعدتني جداً ، كاتبها روائي مصري ارتحل إلى الخليج وراء لقمة العيش ، وقمع مشروعه الأدبي ، فأمضي بالغبرة سنوات طوال ووضع موهبته في خدمة الأشقاء . يكتب الافتتاحية التي يضع رئيس التحرير اسمه عليها ، كما يكتب لمدير التحرير وسكرتير التحرير نزولاً حتي بواب التحرير ! فرحت بالرسالة وكتبت له رداً مطولاً ، ثم صار التراسل بيننا عبر البريد الإلكتروني أمراً متصلاً .

كانت رسائله تقطر مودة وعذوبة . . حدثني عن الأيام وقسوتها ، وكيف تأخذ من الإنسان أجمل ما لديه ، وذكرني بأيامنا وليالينا وحواديتنا المشتركة وجلساتنا على مقاهي الخليج ، وأكد على أن الصداقة الحقيقية هي أغلي ما ينبغي أن نحرص عليه مهما كان انشغالنا ، وأعاد إلى ذاكرتي سهرتنا الأسبوعية في بيت أحدنا نقرقز جبلاً من الكابوريا مع فيلم فيديو ، وأضاف أن من كان مثلي ومثله لا يجب أن يسمح لصداقة بهذا العمق أن تنتهي لأي سبب من الأسباب . ظل مداوماً على مراسلتي . . يكتب لي أخباره في العمل ويحكي لي عن صراعات الأصدقاء على مغامراتنا ، ويشدد على أهمية التواصل الإنساني والمشاركة التي تجعل للحياة معنى وقيمة . لا أنكر أن كتابته الودودة المتصلة قد أسعدتني وأدخلت دفئاً على حياتي وجعلتني أجاهد الكسل وأحرص على الرد عليه رغم استثنائي كتابة الرسائل .

وفي ذات رسالة أخبرني أنه قد أخذ قراراً بمصريا بالهجرة إلى كندا هو وزوجته وأنه ليبدأوا

حياة جديدة بعد أن شعر بأن الأرض قد ضاقت به ، وأن وجودي هنا كان أكبر دافع شجعه على اتخاذ القرار ، وبضعة شهور فقط صارت تفصله عن تلقي رد السلطات الكندية وحمل حقائبه والمجيء لنعيد أيامنا الحلوة ونسهر في ليل مونتريال البديع !

بعد ذلك تسارعت وتيرة رسائله وحملها كل أحلامه المستقبلية في تأمين حياة ابنه الذي يتمني له أن يكبر في وطن حقيقي يعامل أبناءه بسخاء ويوفر لهم اللقمة والكرامة ، ويكفينا نحن ما لقيناه في الوطن الأكذوبة الذي يسمونه "أم الدنيا" وهو مجرد خرابة تحكمها شريعة الغاب . ثم كبرت أحلامه فسألني بالحاح عن البيوت الخشبية على ضفاف النهر . . لا شك أن هناك نهراً (هكذا تساءل) وأخبرني عن حلمه بمحديقة صغيرة يزرعها بنفسه وأمنيته أن يقف خلف زجاج النافذة يشاهد الثلوج تتساقط بينما هو محتم بالبيت الدافئ !

و الغريب أنه كان يشركني معه بحيث أصبحت موجوداً في كل أحلامه . . يريد بيتاً مجاوراً لبيتي ويريد أن يفتح الحديقتين على بعضهما ليلعب أبناءنا معا ، كما يريد أن نقيم مشروعاً مشتركاً لعمل مكتبة لبيع الكتب بها مقهى يقدم الشاي والقهوة يؤمه المصريون والعرب . قلت له أنني لا أريد المكتبة لأنني سأفتح قهوة بلدي عندما يأتي ، ومازحته قائلاً أنني أقدم له وظيفة صبي عندي في القهوة ، فأخبرني أنه يقبل الوظيفة ويكفي أنه سيكون إلى جوارى ! واقترح أيضاً مشروعاً آخر نعمله سوياً وهو كتابة روايات بورنو مليئة بالرعب ، وأن أقوم بصياغتها لأنني أمتلك على حد قوله لغة إنجليزية ساحرة !

سنة بأكملها وأنا أتلقي أحلامه وآماله معبأة في رسائل . . صحيح أنني لم أكن أملك نفس الأحلام لأن حياتي كانت مستقرة بالفعل وكل الأشياء التي لعبت بخياله مثل الثلج والمعاطف الثقيلة والمطر المنهمر والخروج بالشماسي ثمانية أشهر في السنة كانت من أسباب تعاستي ورغبتني في العودة إلى مصر ، لكنني كنت سعيداً بالتواصل والمشاركة و . . الصداقة .

ثم توقفت رسائله ! . . اسبوع ، اسبوعان ، شهر ، شهران . . لا حس ولا خبر ، ورسائلي إليه لم تستوقف لكن لا رد . طلبته في التليفون فقالوا النمرة غلط . سألت أصدقاءنا عنه فقالوا انه بخير وانه انتقل إلى شقة جديدة فتغير رقم تليفونه . طلبت منهم أن ينقلوا إليه قلقي عليه وسؤالي عنه ، فعادوا وأخبروني أنهم أبلغوه الرسالة .

و رغم أنني حصلت على رقمه الجديد إلا أنني لم أشأ أن أطلبه ، وتوقعت أن يحدثني أو يكتب لي ، لكن هذا لم يحدث !

مثل الأمر بالنسبة لي لغزا، لكنني رغم دهشتي أو قل صدمتي فإن دوامة الحياة تكفلت بنسياني
مره. حتي عدت إلى مصر، ولقيته بالصدفة ذات صباح بجوار مكتبة مدبولي. أين أنت يا رجل
حن الأبالسة والشياطين؟ وما هذا الإختفاء الغريب؟ لقد أقبلت فجأة ومن غير مناسبة وأغرقني
بمثلك وأشركتني في همومك وحاصرني بأحلامك ثم اختفيت بدون مقدمات. أعتقد أنه من
حنني أن أحصل على تفسير. فقال: أبداً. لقد رفض الكنديون طلب الهجرة الذي تقدمت به،
بعد أن ظلوا يدرسونه لمدة عام. عقدت الدهشة لسانني للحظات، ثم أفقت وتساءلت في ذهول:
يصل الكنديون منحك الهجرة فلم تعد بك رغبة في معرفتي؟! فنظر إلى الأرض ولم يرد!

حبيب اسمي.. زوجات أصدقائي!

لم أستطع أبداً أن أتجاوز حالة الفتور التي ميزت موقفني من زوجات أصدقائي أو معظمهن ، وربما كان السبب هو فقداني للكثير من الأصدقاء الأعزاء بعد زواجهم أو بسبب زواجهم ، حتي أنه لم ينج من هذا المصير سوى علاقات الصداقة التي ربطتني بأشخاص لا تعرفني زوجاتهم !

ولإدراكي أهمية الصداقة فقد سعت دوماً لأن تكون لقاءاتي بالأصدقاء خارج البيوت . . في شامي والمحلات العامة بعيداً عن قبضة الزوجات . ومع هذا فقد كنت أصطدم أحياناً بمن يصر من الأصدقاء على حضوري إلى بيتهم وبصحبتي المدام ، أو قدومهم لزيارتي في بيتي . كنت أري في الأمر محاولة تلفيقية لا داعي لها لاصطناع علاقة صداقة تربط عائلة بعائلة ، وهو الأمر الذي كنتشفت شدة صعوبته لدرجة الاستحالة بسبب أن الزوجتين قد لا تتفقان في الميول والطباع ، وقد لا تصلحان لتكونا صديقتين ، مما ينعكس في النهاية على علاقتي بهذا الصديق .

ولهذا فقد قررت أن أنحي زوجتي خارج نطاق صداقائي وألا أحاول أن أجعلها طرفاً في صداقة لم تطلبها ولم تسع إليها . لكن بقي أن بعض الأصدقاء ليسوا بالضرورة حكماء مثلي ، وما رلوا لا يستطيعون أو لا يرغبون في الخروج وحدهم ، ولا بد أن يلقونني ومعهم حرمهم صون . . لذلك كان على إما أن أقبل هذا الـ **Package** كاملاً أو أن أضحي بصداقاتهم !

واكتشفت شيئاً غريباً . . أغلب من كانوا مستأنسين لا يخالفون زوجاتهم ويسعون للإلتصاق ندائم بهن كانوا من الرجال الذين فشلوا في الزواج الأول ولا يحتملون أي هزة في التجربة الثانية ، لأمر الذي سهّل على الزوجات أن يطرحنهم أرضاً في حركة "لمس أكتاف" من أول حولة . . اكتشفت أيضاً أن هشاشة الرجل في تجربته الثانية (أو حتي الأولى) وقابليته للكسر لا تقابلها هشاشة مماثلة على الجهة الأخرى ، فالمرأة وإن كانت بالقطع لا تريد الفشل إلا أن هذا ليس أي ثمن ، وجاهل من يتصور أنها الجنس الضعيف . . الرجل هو الضعيف ، وأستطيع بضمير مضمئن أن أقرر أن الرجل في ٩٠ في المائة من الحالات هو كائن "خرونج" بامتياز ! وقليل من رجال فقط هم من يملكون صفات نسائية مثل قوة الإرادة والتصميم ، والقدرة على التحمل وتجاوز الأزمات والبدء من جديد ! .

طالت غيبة أحد الأصدقاء وكان يتسم بقدر كبير من الرهافة ورقة المشاعر .. اتصلت به للإطمئنان فأخبرتني زوجته أنه مكتئب بسبب مشاكل في العمل ومشاكل مع زوجته السابقة، ولهذا فقد اعتزل الناس ولا يريد الرد على أي مكالمات أو مقابلة أي أحد، وعلمت أن الطبيب النفسي منحه أجازة لمدة شهرين . تكرر سؤاله عنه ولم يضايقني عدم استقبالي لمكالماتي ودعوت له أن يخرج من نفق الإكتئاب سالماً . حتي كان يوم تلقيت منه مكالمة يخبرني فيها أنه يتحدث من السيارة ومعه زوجته وأنهم في الطريق لزيارتي . كدت أقفز من الفرحة لأنني حقيقة اشتقت إلى صحبته وقد أثقل قلبي مرضه واكتئابه واعتبرت خروجه لزيارتي من علامات الصحة والعافية .

تحدثنا وتبادلنا الففشات كمادتنا منذ تعارفنا من زمن طويل .. مع هذا كنت أشعر أنه حزين وأنه يبذل جهداً كبيراً يبدو طبيعياً أمامي ولمحت نفساً مجهداً تتواري خلف الابتسامة المغتصبة، وتساءلت بيني وبين نفسي عما حمله على النزول وهو في هذه الحالة، ووددت أن أسأله عما به، ولكن وجود زوجته وقف بيني وبين الحديث معه بقلب مفتوح كما كنا نفعل دائماً .

انتهت الزيارة وقمت أودعهما حتي باب المصعد، وقبل أن أغلق الباب التفتت إلى زوجته قائلة : أه .. بالحق كنت عايزة أسألك على حاجة .. وشرعت تحكي عن الخدمة التي تريد مني أداءها لها، والتي تبين أنها كانت السبب الأساسي للزيارة !! اعتذرت بذوق عن عدم قدرتي على مساعدتها في هذا الطلب لعدم شرعيته قالت : علشان خاطري حاول .. أحسست بقدر هائل من الإشفاق على صديقي المسكين الذي جرت به معها وهو في أسوأ حالاته وبالكاد قادر على الحديث، ودهشت لأنه كان من الممكن طلب الخدمة بالتليفون دون تجشم عناء الزيارة، ولكن يبدو أن للنساء حساباتهن وتقديرتهن !

بعد أسبوع اتصل بي صديقي، وكان الاجتهاد بادياً في صوته حتي وهو يتصنع المرح قال لي : أوحشتنا، نحن في انتظارك غداً على العشاء .. ما رأيك في أكلة سمك وجبري وكابوريا .. لا تتأخر عن التاسعة حتي نبدأ مبكراً .. فقلت : ومن الذي يستطيع أن يتأخر عن نداء الفوسفور .. سأكون عندكم من العصر وضحكنا، قبل أن أضع السماعة سمعته على الطرف الآخر يقول (علي طريقة زوجته) أه بالحق .. عملت إيه لمراتي في موضوعها؟ فأجبت : لقد سبق وأخبرتها بعدم استطاعتي، وليس عندي جديد أقوله، فأحسست أنه وجع كما لو كان لا يعرف ماذا يقول لزوجته، ثم تبادلنا التحية وانتهت المكالمة . غرقت في حيرة شديدة وسرحت في الموقف .. من الواضح أن ردي على طلب زوجته بالسلب قد صدمه، ولم أعد أدري ماذا أفعل في عزومة العشاء التي دعاني

لـيها، ودفعت عن ذهني فكرة أن تكون الدعوة مرتبطة بأداء الخدمة، لكنني مع هذا لم أعد متأكدا من كوني ما زلت موضع ترحيب .

في المساء التالي أخذت سيارتي وذهبت إلى السينما المجاورة لمنزلهم وقمت بشراء تذكرة . الساعة الآن التاسعة وما زال هناك ساعة قبل بدء الفيلم ، جلست في الكافيتريا أحسني قهوة، و تمنيت أن يطلبني يسألني لماذا تأخرت . . حتي أقول له انني أقوم بركن السيارة أسفل منزل وسأكون معهم بعد دقائق . عند العاشرة دلفت إلى السينما وعلي غير عادتي عند دخول سينما تركت الموبايل مفتوح .

مضت سنتان على هذا اليوم . . وما زلت فاتح الموبايل !

صديق مه الزمه الجميل

ما أشد فرحة الإنسان حين يلتقي على غير توقع بصديق قديم فرقته عنه الأيام . هذا ما أحسست به حين لمحت وجهه وسط الزحام في أحد المولات الشهيرة بالقاهرة . هو هو ، لم تتغير ملامحه وكأنما سنوات طويلة لم تنقض منذ افترقنا بعد التخرج من مدرسة غمرة الإعدادية .

ارتفع صوتي بالسنداء : حامد ، التفت نحوي وأدهشني أنه تعرف على فوراً . جلسنا نحسني القهوة وتبادلنا الذكريات . قلت له أن هدوءه وتقلبه هو ما كان يشدني اليه في تلك الفترة ، وقال لي إن حيويتي وجرأتي في مواجهة المدرسين هي أكثر ما كان يعجبه في . يبدو أن الذكريات الجميلة المحفورة في ذاكرة كل منا عن تلك الأيام تجعل صورة الرفاق حاضرة بكل الحب والمودة ، وعندما استعدت مع صديقي حامد أيام زمان فقد حضرت أمامي ومعها مشاعري عن تلك الفترة فأحسست بشعور غامر بالحب نحو هذا الصديق الذي لم أره منذ ثلاثين عاماً أو يزيد .

و قد تذكرت كلاماً قرأته للأستاذ حسين أحمد أمين كان يتحدث فيه عما يسميه الناس بالزمن الجميل وحينهم الدائم للأيام الخوالي ، واعتقادهم اليقيني أن أصدقاء زمان هم الأصدقاء الحقيقيون وأن أفلام زمان هي السينما الحقيقية وأن غناء زمان هو الطرب الحقيقي . فسّر الأستاذ أمين الأمر على نحو أعجبنى جداً ، فقد قال ما معناه إنه لو كان هناك في الأمر شيء جميل أيام زمان فهو أنت . أنت الذي كنت جيلاً بشبابك وإقبالك على الحياة ، بتفاؤلك ورويتك للأشياء والناس بحسن نية . الجميل هو مشاعرك الخضراء الغضة وفتوح مسام قلبك للحياة والحب . الجميل ليس طبق الفول الذي كنت تتناوله على الرصيف وما زلت تعتقد أنه أروع ما أكلت في حياتك ، ولكن الجميل هو معدتك الشابة العفوية التي كانت تهضم الزلط قبل أن تعرف الزائتك والفوار وأدوية القولون .

طالت جلستي مع صديقي حامد ، ولما استأذنت في الإنصراف بسبب موعد مع العمال الذين سألتهم للإتفاق على القيام بأعمال التشطيب لشقتي الجديدة ، عرض بأريحية لبست غريبة عليه أن يأتي معي نظراً لخبرته العريضة في هذه الأشياء . سألته عن سر هذه الخبرة فأخبرني أنه بعد تخرجه من كلية الهندسة لم يسترح للعمل في الحكومة فأنشأ شركة مقاولات تتولي أعمالاً في طول البلاد وعرضها . ذهب معي للقضاء الصناعية وفوجئت به يخبرهم بأنني قررت أن أرحي أعمال التشطيب في الوقت الحالي ويصرفهم بمنتهي الهدوء .

برر لي الأمر بأنه أدرك أنني لا أملك أي خبرة أو دراية بهذه المسائل ، وبالتالي من السهل على هؤلاء العمال أن يمنحوني أردأ شغل بأغلي الأسعار . قلت له وأنا في منتهى السعادة أن كل تجاربي من هذا النوع كانت شديدة المرارة حيث أنني لا أطيق المناقشات والجدال مع الحرفيين ، ودائماً ما يغلبوني لدي أي تعامل معهم . بشرني بأنه سيحضر عماله ابتداء من الأسبوع القادم ، وأنه سيقوم بالإشراف عليهم بنفسه .

في اليوم التالي كان يجلس معي على الغذاء بييتي بعد أن عرفته على أسرتي وحكيت لأولادي عن صديقي الخجول الذي كان يجلس بجانبني في الفصل وكيف كان هدوءه وأدبه يجلبان على المتاعب حيث كان المدرسون يعدوني وقحاً بالنظر إلى دماثته ورقة حاشيته . وكان في وجوده معنا بالبيت فرصة لأن يقوم كل فرد من أفراد الأسرة بأخذ رأيه في الأشياء التي يمتناها في غرفته كنوع الديكور وشكل الشبايك ولون الدهان . والحق أن أفكاره واقتراحاته كانت تدهشنا ، ومن الواضح أن سنوات خبرته في المقاولات كانت مثمرة .

في المساء ذهبنا إلى السينما وخرجنا في طريق عودتنا على فيلته بمدينة نصر حيث كان يجري بها بعض التجديدات ، ولهذا فقد أرسل أفراد أسرته إلى الاسكندرية حين انتهاء العمل في البيت . وقد أحسست بعميق الإمتنان لهذا الصديق الوفي عندما أخبرني أنه سيقف العمل في فيلته حتي يتفرغ العمال تماماً لتشطيط شقتي ، وحاولت أن أثنيه ، غير أنه أصر على الرفض .

تلقيت مكالمه منه عصر اليوم التالي وطلب مني الذهاب إلى شقتي للإطمئنان على سير العمل بها . وقد أخذتني الدهشة حيث وجدت العمال يعملون بكل همة في السباكة والكهرباء والمحارة والنجارة ، وزادت دهشتي لأنني لم أدفع لصديقي أي مبالغ لبدأ بها العمل . . يا سبحان الله على هذه الدنيا العجيبة التي ساقط لي هذا الصديق في هذا الوقت بالذات ليعيد لي ثقتي بالحياة بعد أن اهتزت بشدة من كثرة صدمات التعامل مع الناس .

اتصلت به وقابلته في المساء وأبدت له سعادتي بكرمه الزائد وطلبت معرفة التكلفة حيث أننا لم نتحدث في هذا الأمر من قبل . قال لي بأن تشطيط الشقق لا يدخل ضمن عمله ، لكنه يقوم بهذا الأمر إكراماً لخطاري وطلب مني اعتبار الأمر برمته هدية منه إلى صديق عزيز . لم أقبل موضوع الهدية وشكرته ، فقال أنه سيأخذ فقط أجره العمال وثمان المواد وقدرها في حدود عشرين ألف جنيه . دفعت له المبلغ وأنا أعلم أن التكلفة لولاء كانت لتضاعف . بعد عدة أيام طلبته فكان تليفونه خارج الخدمة واستمر هكذا طوال اليوم ، قلقت عليه فذهبت للشقة لأسأل العمال عنه فلم أجد أحداً ووجدت الشقة خاوية على عروشها والعمل الذي كان قد بدأ . . توقف . ذهبت إلى

نبتة فاكشفت أنها لا تخصه وأن كل ما حكاها لي بشأنها كان غير حقيقي . عندما فشلت في العثور عليه أبلغت البوليس فعرفت أن صديقي القديم ليس مهندساً ولا يعمل بالمقاولات وأنه مسجل حسب وسجله متختم بالقضايا .

والآن هل يصدقني أحد لو قلت له أن فجيعتي فيه هي أشد من فجيعتي في الفلوس بكثير ؟
وقد كنت أتمنى أن تضيع الفلوس ويظل هو حليماً جميلاً أقبل على مبعوثاً من الزمن الجميل !

قصة بيع السيارة

في صيف عام ١٩٩٤ كنت قد عزمت على بيع سيارتي نتيجة مروري بضائقة مالية . ثم فُرجت بعد أن فكّها الله من وسع نتيجة الحصول على عمل خارج مصر براتب كبير ، وبالتالي فقد تراجعت عن فكرة البيع .

في ذلك الوقت كان هناك صديق يتلمظ لاقتناص السيارة «لُقطة» بسبب تصويره أن صاحب السيارة (صديقه) لا يزال في أزمة ، ومن الواجب الوقوف إلى جانبه ، والحصول على سيارته بثمن بخس !

فوجئت به يحضر لزيارتي ويقدم أخلاقه العالية سبباً لعرض شراء السيارة ، رغم عدم احتياجه إليها ، ولكن «الناس لبعضها» .

قلت له : إن السيارة لم تعد للبيع وإنني والحمد لله لم أعد في ضائقة تستدعي بيعها . تجاوز صدمته بسرعة ودخل إلى من مدخل آخر .

قال : الحمد لله أن فتحها عليك ، ولم تعد بحاجة لبيع السيارة ، ولكن بالرغم من هذا فإن بيعها لي أصبح أكثر وجوباً ! . سألته في دهشة : ليه إن شاء الله؟ قال : يا أخي كما أكرمك الله بسفيرة إلى الخارج ستعود منها ومعك سيارة جديدة على الزير ، يجب عليك أن تكرم أخاك وتبيعه سيارتك القديمة التي لم تعد تناسبك !

قلت له : بل إنها تناسبني تماماً ويكفي أن لي معها ذكريات جميلة ، فضلاً عن أنني سأكون في حاجة إليها عند نزولي في الإجازات . لم ييأس الرجل وقال : أمن أجل أسبوع إجازة في السنة تمنع الخير عن صاحبك؟ ثم إنني على استعداد أن أمنحك إياها عند زيارتك مصر . . ما رأيك؟ . . بدأت أشعر بالخرج من إلحاحه ، وهو لم يفوت الفرصة فعاد إلى أسطوانة أن الله قد أفاء عليك من رزقه وغداً تعود ومعك ثروة من المال ، وتشترى سيارتين بدلاً من سيارة .

أقول لكم الحق . . لقد تشاءمت من تكراره الحديث عن الثروة الموعودة وأسطول السيارات الذي سأقتنيه ، وفكرت أن أوافق على البيع فقط من أجل أن أكسر سمه . قلت له : يبدو أنك ستنجح بسيف الحياء في حملي على البيع . قال : كنت أعلم أنك لن تخذلني ، وسألني وعيناه نلمعان : كم تريد في السيارة يا صديقي؟

قلت: لا أريد سوي ما دفعته فيها . ١٨ ألفاً وأنت تعلم بالتأكيد أنها تساوي ٢٠ على الأقل . قال: أنا أعلم، ولكنني طامع في كرمك، خصوصاً أن الله قد بعث لك رزقاً وفيراً وأنت ستعود من الخارج ومعك . . خلاص خلاص . . قاطعته مفزوعاً من كلامه الذي صار يحيفني، وأحسست نحوه بضيق لا حدود له وقلت: ادفع يا سيدي ما شئت وخلصني من هذه السيرة المهيبة! . . ابتهجت أسارىره وهو يقول: سأدفع لك عشرة آلاف وأمانة يا شيخ لا تحب رجائي، قلت وأنا أكاد أنفجر من الحق: موافق موافق . . فقط اسكت!

في صباح اليوم التالي التقينا وذهبنا إلى الشهر العقاري، حيث قمت بنقل الملكية إليه، ثم عرجنا على البنك الخاص به، فعاد وقدم لي كيساً أسود قائلاً: عشرة آلاف جنيه بالتمام والكمال . تناولت منه الفلوس شاكراً وهممت بأن أنزل وأترك له السيارة، إلا أنه استوقفني قائلاً: أنا محرج منك ولا أدري كيف أقولها. رددت في استسلام: قل ما شئت، لم يعد هناك ما يدهشني . قال: لا أنا بجد محرج منك .

قلت في غضب: ماذا تريد؟ . قال: لعلك لا تعرف أن العشرة آلاف جنيه التي بين يديك هي كل ما أملك من حطام الدنيا، وأنت قد تركتني على الحديدة. قلت له غير مصدق: ماذا تقول؟ قال: لو منحتني ٢٠٠٠ جنيه سلف فلن أنسي لك هذا الجميل، ثم أردف: ثمن السيارة بالكامل في حوزتك وهذا الأمر لا علاقة له بعملية البيع والشراء، إنما أطلب منك هذا من باب العشم، ولا أظنك تترك صديقاً في محنة، وأنت القادر على إغاثته، ولا تنس أن رزقاً وفيراً ينتظرك إلخ .

الحق أنني لم أدر ماذا أفعل . . ألقيت كيس الفلوس في حجره وقلت: الفلوس معك . . خذ منها ما تشاء واطركني لحال سبيلي . تناول الكيس وأخرج منه ٢٠٠٠ جنيه دسها في جيبه وأعادته إلى وهو يؤكد على أنه سيرد المبلغ في أقرب فرصة .

قلت له: مبروك عليك السيارة وفتحت الباب وقفزت إلى الرصيف حتي أهرب بعيداً عنه، ففوجئت به ينزل ورائي في إصرار . قلت له وأنا أختنق: هل تريد بقية الفلوس؟ . . خذها .

قال في عتاب: هل أصبحت صورتني في نظرك سيئة إلى هذا الحد؟ أنا أدعوك على الغذاء عندي في البيت لأنني أريد أن أشبع منك قبل أن تسافر فبالله عليك لا تردني . قلت: شكراً على الدعوة الكريمة، لكنني مشغول وعندي أشياء على إنجازها قبل السفر، ففوجئت به يقسم بالطلاق على أن أذهب معه! . قلت له: طلقها كما تشاء يا حبيبي، أنا فليس عندي وقت لمزيد من مفاجآتك . قال: بالعربي يا صاحبي أنا لا أعرف قيادة السيارة وأريدك أن توصلني بها إلى البيت!

كان على أن أقود به إلى صحراء مدينة ٦ أكتوبر، حيث يسكن، وأن أعود وحدي دون سيارة،
ولم أستمع طوال الطريق إلى معزوفته عن السيارة الجديدة التي سأشترىها والشقة التملك التي
سأقنيها، غير الشاليه القريب من البحر والنعيم الذي سأغرق فيه . . إلخ إلخ ! .

حبك للإهانة.. لا ينسى

كنتُ بالإسكندرية الأسبوع الماضي عندما دعاني صديق قديم لزيارته بالساحل الشمالي وقضاء السهرة معه في الشاليه الذي استأجره لقضاء أجازته . قطعت الطريق إليه ووصلت عند منتصف الليل . تشعب بنا الحديث عن ذكرياتنا القديمة وأصدقاء الجامعة وأين إنتهي الحال بكل منهم . . . بعدها أخبرني أنه التقى اليوم بفلان . . سعي إليه وقصده في القرية المجاورة حيث قضى معه اليوم بأكمله . . شعرت بالإمتعاض لأن فلان هذا الذي صار ملء السمع والبصر وأصبح يلاً لصحف وقنوات التلفزيون رجل باع روحه للشيطان من زمان وقبض الثمن شهرة وفلوس ، أدرك صديقي شعوري فبادرني : إنه مرشح الآن لمنصب كبير يحلم به غيره من الذئاب الجائعة تنسلطه والمال وأتمني أن يفوز هو به فيأخذني بجانبه وأصير من رجاله ، وأردف : لا بد للمرء من كفيل يستند إليه في هذا الزمن الصعب .

أزعجني الحديث عن الكفيل وتذكرت أن صديقي يعمل في مجلة خليجية . . ملأني هذا الحديث بالضيق فسعيت لتغيير الموضوع .

سألني : هل نشرت مجموعتك القصصية ؟

قلت له : لا ليس بعد

قال : لا يكفي أن تكتب قصصاً قصيرة تنشرها في المجلات والصحف ثم تذهب هباءً منثوراً . . لابد أن تجمعها بين دفتي كتاب .

قلت له : صدقت ، هذا ما أنوي فعلاً أن أقوم به بعد أن أحظي ببعض الوقت .

قال : ولا تكتفي بمجموعة قصصية واحدة ، يجب عليك أن تتبعها بمجموعة أخرى حتي يذيع اسمك وتصبح مشهوراً .

قلت له : رويدك ، من أدراك أنني أريد أن أكون مشهوراً ، حسبي أن أكتب ما أحسه وما أحبه ويقرأه بعض الناس من الفصيحة المقرضة المسماة بالقراء .

فانفعل صديقي قائلاً : ليس مهماً أن يقرأه أحد ، المهم أن يكتب عنه الكتاب والنقاد ويصير

إسمك متداولاً بكثرة، فتم إستضافتك في البرامج التلفزيونية وفي الفضائيات . . ألا تدري كيف تنضي الدنيا هذه الأيام؟

قلت له : لا أدري ولا أريد أن أدري ، لا أطلب سوى الهدوء .

ففاجأني بقوله : أي هدوء يا أستاذ! دعني أعلمك درساً، إن مقالاتك التي تنشرها في الصحف لا قيمة لها ما لم تكن تستند إلى شرعية تسندها وتضفي عليها قيمة .

نظرت إليه في دهشة قائلاً: ماذا تقصد بالشرعية؟

فرد قائلاً: الشرعية التي أتحدث عنها هي أن يتناول القارئ الصحيفة ويقرأ مقالك وهو يعلم أنك إسم كبير . . إما تحوز منصباً تنفيذياً كبيراً أو أديب مشهور أو رئيس تحرير صحيفة أو وجه مألوف يظهر على الفضائيات كخبير استراتيجي أو مليونير يقيم الحفلات في فيلته بمارينا ويدعو إليها الإعلاميين مع عليّة القوم أو أن تكون عضواً قيادياً بالحزب الوطني . . شئ من هذا القبيل .

قلت له : هل هذه هي مصادر الشرعية التي يتم منحها لكاتب؟ قال : نعم، إن واحداً مثلي أنا لو فكر أن يكتب مقالات رأي فيسينزل الملعب مستنداً إلى خمسة وعشرين عام من العمل الصحفي، هذه هي شرعيتي .

سألته : بصرف النظر عن قيمة ما قدّم في هذه السنوات الطوال؟ أنا لا أشكك في موهبتك ، أنا فقط أتساءل . . هل العمل لدي الخليجيين الذي يتضمن ثلاثة أرباع الوقت في جهد غير صحفي! هو ما يمنح المرء مشروعية عندما يكتب . . إن هناك من يجلس الان على كرسي الأستاذ هيكل وكرسي الأستاذ مصطفى أمين وعندما يكتبون يصيبونك بالغم ، والدكتور أسامة الباز مستشار رئيس الجمهورية على سن ورمح قد فقد رصيده لدى الناس عندما استخف بعقولهم في مقالاته . لقد كنتُ أعتقد أن المرء يستمد قيمته من قيمة عمله وأن الكاتب الجيد هو الذي يقدم كتابة جيدة .

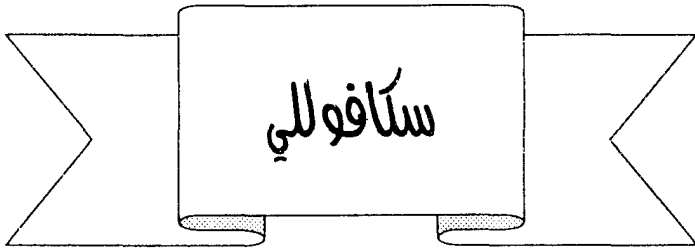
قال صديقي : كُف عن الفلسفة وافهم . . أنا عندما أطلع الصحف لا أقرأ لإسم غير مشهور ، أنا أقرأ لذوي الحيشة فقط . ضحكتُ رغم إحساسي بالأسى وتساءلت : هل لا بد أن يكون جدك قائد طبابة حتي يقرأ لك الناس؟ أنا لا أكاد أصدق ما أسمع ، أنت تتحدث عن عالم زائف لا أحب أن أكون جزء منه وشرعيتك التي تتحدث عنها تليق بالخصيان والغواني ، هل تعتقد أن حيازة منصب حكومي رفيع تجعل من صاحبه كاتباً ، أو وراثة دار صحفية كان يديرها لص أو

يستلأ على أموال البنوك ونثرها على الإعلاميين كما ينثر رواد الملاهي النقوط على الرافعات .
هل كل هذا يصنع كاتباً أو على الأقل يضيف لقيمة كاتب؟ إن السادة المليونيرات أو الأدبائية
ساجون في الفضائيات لا يفعلون سوى أن يزيدوا من مساحة الملل والضيق واليأس لدى الناس .

يا صديقي أنا لا أكتب أعمالاً عظيمة ولا دُرراً خالدة ، أنا أكتب فقط ما أصدقه وأحسه .
وشرعيتي- إذا جاز استخدام تعبيرك أستمدّها من المتألمين مثلي . . فأنا أكتب لأناس يشبهونني ، لا
عرفهم على وجه التحديد ، لكنني أثق بوجودهم وأعلم أنهم يحبون هذا الوطن بجنون ويتعذبون
عذابه ، فحب هذا الوطن يشبه اللعنة أو هو شيء أقرب إلى الإهانة لأنه لا يُنسى .

إنني أكاد لا أعرفك يا صديقي ، هل حدث لك كل هذا أثناء سنوات غربتي بالخارج؟ كنتُ
ضنك تعرفني ، أنا لا أكتب حتي أصير نجم تليفزيوني ولا أسعى لعضوية لجنة السياسات التي
ينصرون الساعون إليها أنها تتيح لهم دهن الوطن وامتطاء أهله . الكتابة تعيد إلى شيئاً مما فقدته في
حتى هذا الزمن الذي حذف القلب والعاطفة بقدر ما ضاعف من نفوذ المادة حيث يقاس ويوزن
كل شيء حتى الدموع ، في الكتابة أحتمي بالعالم الذي أصنعه من العالم الذي أعيشه حتي وأنا
كتب عن العالم الذي أعيشه . . لن تفهمني . . أنا أعلم ، ربما يتعين عليك أن تقرأ رسول
حزاتوف شاعر داغستان العظيم ، اقرأ له " الحب الحار والكراهية الحارقة " فربما يعود شيئاً من
صديقي الذي كان لأنني أكاد لا أعرفك .

ودعته عند الفجر وأخذت السيارة عائداً وبني رغبة شديدة في البكاء على الصديق الذي لن أراه
مرة أخرى .



إلى حية تصرف البضاعة!

بالرغم من أن نسبة ضحايا الحوادث على الطرق المصرية هي الأعلى بين كل بلاد العالم . وبالرغم من أن الخراب الذي يَحِقُّ بأهل القتلي والجرحي ليس له مثيل . . حيث لا يوجد تأمين يعرض أو حكومة تعري أو حتي نظام يسمح بكسب قضايا تعويض ثم ضمان تنفيذ الأحكام .

برغم كل هذا فقد حققت مصر مؤخرًا تقدماً تجدر الإشارة إليه بعد أن نجح المسؤولون عن مرور في منع الحوادث التي كانت تقع على التقاطعات نتيجة تصادم السيارات التي لا تحترم القانون ولا يقف سائقوها عند الإشارة الحمراء . .

لقد قام المسؤولون أخيراً في إجراء شجاع بسد التقاطعات وإلغاء الإشارات في العاصمة المصرية ، وبهذا انتفت المشكلة ولم يعد لدينا سائقون يكسرون الإشارات ، ولا أظن أن هناك عاصمة في العالم نجحت في جعل معدل كسر الإشارة بها يصل إلى الصفر سوي عاصمتنا الحبيبة ! ، وللمرة الأولى تنجح الحكومة في إيجاد حل جذري ناجح لمشكلة مزمنة . وأخيراً آن لرجال المرور أن يناموا مطمئنين . . بالضبط مثل الرجل الذي أقض مضجعه علمه بأن زوجته تحونه على الكنية ، بفاح الكنية ثم نام مطمئناً!

وأعتقد أن هذه الفكرة الجديدة في دنيا المرور لم تأت صدفة . فقد احتاجت إلى تفكير مبتكر وإلي همة عالية ، وكانت بالتأكيد وليدة خيال حر طليق ليس له سقف يرده أو جدران تردعه ! . وأعتقد أنه ليس من حق السائقين الأراذل أن يشكوا أو يتذمروا من بطء الحركة أو انعدامها لأنهم كانوا السبب برعونتهم واستهتارهم وعدم امتثالهم للإشارة في أن يستفزوا الحكومة التي عرفت بالحلم والتأني ، وجعلوها تعصر القريحة وتستقطر المخيخ وتستحضر الإفتكاسة المريعة وتقوم بإلغاء الإشارات التي هي بالمناسبة (الإشارات) المبرر الوحيد لوجود إدارة مرور!

لكن لا يهم . المهم هو تأديب الخارجين عن الإشارة وجعلهم عبرة للمشاة! وبمناسبة المشاة صحيح أن الفكرة الجديدة قد حرمتهم من حقهم الطبيعي في تعدية الشارع لأن مرور السيارات لا ينقطع (وقد كانت الإشارة تمنحهم حقاً ولونظرياً في العبور) لكن المهم هو النظام والأدب . وفي كل مرة أقود سيارتي وأصل عند تقاطع مسدود أتذكر نكتة الرجل الذي ذهب إلى الشركة المتحدة للدجاج وطلب شراء فرخة فسأله موظف الاستقبال : تريد فرخة صاحبة أم مذبوحة؟

فقال : مذبوحة فأرسله للطابق الأعلى وهناك سأله المختص : تريد الفرخة المذبوحة نيئة أم مستوية؟ فقال : أريدها مستوية . . فأرسله إلى الدور الأعلى حيث سأله الموظف : تريد الفرخة المذبوحة المستوية محمرة أم مشوية؟ فأجاب : مشوية ، فأشار بإصبعه إلى الطابق الأعلى ، فصعد الرجل فبادره المسؤول : تريد الفرخة المستوية المشوية مع السلطات أم بدون؟ فلما أجب : مع السلطات أرسله الموظف للدور الأخير وهناك التقى بالمدير وقال له : أريد فرخة مذبوحة مستوية مشوية مع السلطات فأجابه المدير وابتسامته تتسع : آسف يا فندم ما عندناش فراخ . . . إنما إيه رأيك في النظام!! وهذا هو عين ما حدث . . المرور تم إلغاؤه إنما إيه رأيكم في النظام! !

ولئن كان بعض المسجلين خطراً «فكرياً» يزعمون أن الحكومة عليها أن تفرض القانون واحترام الناس للإشارة ، ويذكرون بأن المصريين عندما يقودون سياراتهم في أي مكان بالعالم فإنهم يحترمون قانون المرور ، والعيب إذن ليس فيهم ، بل في الحكومة العاجزة . . . فإن هذا القول لا يجب أن يعتد به لأنه أولاً يأتي من غير ذوي صفة وهم " المصريين " وثانياً لأن رائحة الحقد تفوح منه! . والحمد لله لم يعد بإمكان حاقد أو مونور أوفاقد للوطنية أن يزعم بأن حوادثاً تقع عند التقاطعات ، إذ أنه ليس لدينا تقاطعات حتي تحدث عندها حوادث! . . صحيح أن حوادث دهس المشاة وهم يقذفون بأنفسهم لعرض الطريق في محاولة للعبور اليائس قد ازدادت بكثافة . . ولكن لا يجب أن نخلط الأمور وننظر لنصف الكوب الفارغ!

وبصفتي ممن يزعمون زيارتهم لمعظم عواصم العالم في كل القارات . . يمكنني أن أقدم شهادة لا يسهل تجريحها بأن هذه الفكرة هي مصرية مائة بالمائة ولا يحق لأحد أن ينازعنا في ملكيتها . ولكن بالنظر إلى أننا أصحاب الريادة في المنطقة ، والأم الرؤوم لكل الأولاد في الحقة ، فإنه يتعين علينا ألا نبخل على الأشقاء بإتاحة التجربة وسرها البائع ، خاصة وقد صارت ملكاً للإنسانية كلها ، ولا أريد من يرغبون في بيع التركيبة بالفلوس لأن في نشرها ولو بالمجان أكبر دعاية لمصر التي لا تزال ولادة وقادرة على الإتيان بالعجائب!

ولا يجب أن نلثف إلى أصحاب الأصوات المنكرة الذين يتسلحون بالصفاقة ويجدون في أنفسهم الجرأة لإتهام الحكومة بأنها عندما أرادت تطبيق القانون الخاص بحزام الأمان في السيارة ، فإنها نجحت في تطبيقه في خلال أسبوع واحد ، ولم تعد في مصر سيارة واحدة تخلو من وجود الحزام بعد أن نزل رجال المرور إلى الشوارع وقاموا بتطبيق القانون على الجميع في جدية وانضباط يثيران الإعجاب . . .

لا يجب أن نلتفت إلى اتهامهم المعيب للحكومة بأنها لم تفعل هذا الوجه الله والوطن ولكن لصالح أحد الضباع الكبار ذوي الأنياب والمخالب الذي قام باستيراد شحنة أحزمة واحتاج لسلطة الدولة لمساعدته في تصريف البضاعة . فهذا الاتهام متهافت للغاية ويدحضه أن أي حكومة رشيدة عادلة لا يعيبها أن تقف بجانب أبنائها وتساعدهم في تصريف بضاعتهم!

ولا يهم أبدا أن موضوع الحزام هذا كان موضة وراحت لحالها، إذ أن ذات الموضة يمكن أن تعود لو عاد نفس المستورد وأتي بشحنة أحزمة جديدة . وهذا يؤكد أهمية المستثمرين ورجال المال في خدمة الوطن وفرض الانضباط ولو إلى حين . . . أقصد إلى حين تصريف البضاعة!

سأله صديقي : هل كنت تفكر لتخترع لنا مخالفة من تأليفك ؟ لقد كنا نربط الأحزمة منذ تحررنا بالسيارة وما تفعله معنا اسمه تلفيق . . تفاجأ الضابط بالرد وبدا عليه الغضب فبادرته : يا أستاذ أي حزام هذا الذي تهتمون به والسيارات جميعها تسير بسرعة خمسة كيلو في الأسبوع ! أين التمييز ، أين المنطق ؟ فقال في عصبية : هل تظنونني سعيداً بما أفعل ، أنا أقوم بتنفيذ الأوامر فقط ، وهناك من يراقبون عملنا ، وإذا توانينا عن تنفيذ الأوامر تعرضنا للعقاب . . وأردف أتم لا تدركون حجم ما نقاسيه بالوقوف في مثل هذا المكان ، وأنا في النهاية عبد المأمور !

و هنا انفجر فيه صديقي : يعني تقومون بتعطيل المرور في منطقة خرابنة بطبعها وتؤدون عملاً تزعمون أنكم تكرهونه وتأكلون لقمة عيش مغموسة بدعوات الناس بالإنتقام من الظلمة وتحرون المخالفات للملاكي فقط وتتركون الميكروباصات تعيث إجراما على بعد مترين من مكان وقوفكم وتريد منا ان نتعاطف معك كأنك تقوم بدور وطني لصالح أناس لا يقدرّون جهودكم . . أنا ماشي وسابها لكم مخضرة إفعلوا بها ما شتّم رسيقوم أولادكم بجني المحصول الذي تزرعونه . و مع كل كلمة يتفوه بها صديقي كان جسمه يتصلب وأنفاسه تتهدج ثم فجأة سقط مغشياً عليه .

نقلته بمساعدة بعض السائقين إلى الرصيف وعملنا على إفاقته . كنت مأخوذاً بما حدث ورأيت سائق سيارة نقل يربت على صديقي ويقول له : هذا الضابط الذي كنت تتحدث اليه رجل طيب وليس له ذنب ، المشكلة في الآخر الكبير الذي يقف هناك . . ده راجل سكافوللي وكلنا عارفينه ، قلت له : ماذا ؟ قال : ساكافوللي واسأل أي حد ، قلت له : ساكافوللي دي حلوة ولا وحشة ؟ فقال لصديقي : صاحبك مش عارف يعني ايه ساكافوللي ثم أطلق ضحكة عريضة وتركنا مبتعداً .

كان صديقي بعد أن أفاق قد أخذ في البكاء ، احتضنته وقلت له : انت مسافر بعد يومين فلماذا كل هذا الغضب وكل هذا الإنفعال . . فازداد بكاءه وقال بصوت متهدج : هل تعرف أنني مهاجر وتارك البلد بسبب هؤلاء ، قلت له ماذا تعني ، قال : لقد أهانوا أبي رحمه الله في أحد الكمائن الليلية وقد مات كمدأ في نفس الأسبوع . . و من يومها لم يفارقني الكابوس الذي أري نفسي فيه في لجنة أو كمين وأحد رجال الشرطة يتحدث معي بوقاحة ، فأرد عليه بوقاحة ماثلة فيسب أبي وأمّي ، فأقوم بلعن سنسفيل أمه وأبوه فيصفعني على وجهي ، فأقوم بقتله فيطلق على رجاله النار ويردونني قتيلاً . هذا الكابوس أراه كل يوم وقد أفسد على حياتي ، لهذا قررت أن أهاجر عسي أن أحظي بأحلام لا أقتل فيها أحداً ولا يقتلني أحد . وهنا أدركت سر توتره عندما شاهد لجنة المرور . تضاحكت رغم إحساسي بالألم يعتصر كياني وقلت له سافر يا بني ربنا يهديك وياريت ما ترجعش ثاني بدلاً من أن أراك في يوم من الأيام قاتلاً ، أو مقتولاً على يد رجل . . ساكافوللي !

تمشدة زمير فخانه الذنب!

رائع كعادته . . هكذا كان محمد المخزنجي الأديب الطبيب عندما قدّم تشريحاً نفسياً شديداً الرقي
في مقاله بصحيفة الدستور تحت عنوان " أمة تمشي على أربع "

كتب الدكتور المخزنجي عن الوحوش الأدمية من رجال الأمن الذين يقومون بتعذيب البشر
كأن حدث على خلفية مظاهرات الأسابيع الأخيرة التي ساندت الوقفة الشاخصة للقضاة . . وتناول
في مقاله حالة التشوّه التي تلحق بنفوس هؤلاء الناس ، إذ أن أحداً منهم لا ينجو من فعلته أبداً .
حيث تلتقط نفوسهم ما يقترفونه وتسجله عليهم وستطالبهم بتسديد الحساب مهما طال الزمن .
والانتهيار الذي يصيب الضحية جسدياً ونفسياً " يمكن أن يوازيه انهيار في نفس الجلاد ، فالرجية
من مسخ البشر وجعلهم يمشون على أربع والتي لا تعبر عن نفسها على مستوى الوعي لا بد أن
تعربد على مستوى اللاوعي ، تظهر عاجلاً في كوابيس النوم أو أجلاً في أفعال قهرية بديلة وأنواء
متأخرة من أمراض النفس وأسقام الجسد التي تحير الطب والأطباء . "

ما كتبه المخزنجي عاد بذكريتي لمسرحية " دماء على ملابس السهرة " التي شاهدتها بالقاهرة في
سبعينات ، كما شاهدتها في مونتريال العام الماضي ، وتدور حول العذاب النفسي الذي يقاسيه
حد الجلادين المتقاعدين وكيف استحوّلت حياته جحيماً بفعل استيقاظ كل الصور البشعة داخل
نفسه واقتحامها صحوه ومناحه . . صور الدماء والعظام المهشمة والجلود المسلوخة وارتجاف
لضحايا وصرخاتهم ، صور رجال ينتهكون ونساء تستباح ، عادت اليه جميعها لتقض مضجعه
وتصنع أيامه بلون الويل . وعادت بي الذاكرة أيضاً لزيارات قمت بها لبلاد اسبوية والتقيت وجهاً
لوجه بثقافة تعتنق فكرة التناسخ **Reincarnation** وتؤمن بأن الانسان يحيا أكثر من حياة وعليه
أكثر من هيئة في الحيوانات المختلفة ، وتعتقد بأن من تقتله في حياة أو تعذبه . . لا بد عائد اليك في
حياة أخرى ليفعل بك ما فعلته به وأبشع .

و يواجه المخزنجي في نهاية مقالته نداء للجلادين بأن يترفقوا بأنفسهم وبعائلاتهم من الأبناء
والآباء والزوجات ويوقفوا التعذيب ولا يطيعوا الأوامر بارتكابه ، حيث أن المقابل في النهاية زهيد
جداً ولا يساوي ما يفقده الانسان عندما يعذب أخاه .

كان بودي أن أجاري صديقي محمد المخزنجي وأعزز نداءه لمرتكبي جريمة تعذيب البشر وأناشدهم بأن يرفقوا بالناس وبأنفسهم لولا أنني لا أرى الأمر عي النحو ذاته! يظن المخزنجي أن هؤلاء الناس هم بشر عاديون مثلنا لكن بفعل الممارسة وإطاعة الأوامر تم نزع الضمير منهم شيئاً فشيئاً حتي أصبحوا وحوشاً ضارية، وهو يحاول أن ينفخ في روح هذا الضمير عسي أن تكون به جذوة لما تحمد بعد وتنتظر هبة ريح لتصحو، وهو للأسف الأمر الذي تكذبه كل الشواهد وتنفيه طبيعة الحياة كما نراها. لا شك أنه من الجميل أن نعزي أنفسنا ونقتنعها بأن الظالم له يوم وأن الجلادين سوف تقتحم لياليهم الكوابيس المفزعة لتحطمهم وتثار للضحايا منهم، وجميل أن نقرأ لصلاح جاهين في رباعيته البديعة:

" كل يوم أسمع فلان عذبه . .

أسرح في لبنان والجزاير وأتوه . .

ماعجيش م اللي يطيق يجسمه العذاب . .

و أعجب من اللي يطيق يعذب أخوه . .

عجبي "

لكن لا يجب أن نخدع أنفسنا، فليس في الأمر أي عجب! إن فرز الوحوش واختيارهم يتم في مرحلة مبكرة بحيث أن الوحش حين يبدأ مشواره المهني ويأخذ في أداء واجبه المقدس في سحق البشر ودهس كراماتهم لا يكون صاحب ضمير من الأساس. فاختيار من يقومون بهذه المهام القذرة يتم من بين الحيوانات البشرية معدومة الضمير، وهم لا يجازفون بانتقاء رجل آمن يملك قدرا من الاحساس والضمير لهذه التجربة أبداً . .

و على ذلك لا يمكنك أن تسأل الذئب عن دماء ضحاياه، هو يفترس ببساطة لأنه ذئب، وأي محاولة لمناشدة ضميره هي ضرب من العبث. أما نداء الدكتور المخزنجي لمن يمارسون التعذيب بأن يرفقوا بلهفة قلوب أهليهم وذويهم حتي لا يلحق العار بذريعتهم من بعدهم فهو قول فيه نظر، ذلك لأن الضبع الضاري الذي يقتات على الرمم ويتنشي لرائحة الدماء المتخثرة لا يمكن أن تكون أنثاء يمامة وديعة! فالأنثى التي اختارت هذا الكائن الغليظ وقبلته زوجا لا بد وأنها أشد منه ضراوة وأعظم خطرا، ثم أي خير يرجي من أبناء ينظرون إلى أبيهم الجبان باعتباره بطلاً!

مناشدة الوحوش لن تجدي يا دكتور مخزنجي ، بل إن أكثر ما يسعدهم هو هذه المناشدات .
ويسعدهم أكثر اعتبارهم مرضي نفسيا وارتفاع الدعوات المطالبة بعلاجهم ، لكن ما يرعيتهم حقا
يرددهم فعلا هو توحيد الجهود من أجل ملاحقتهم جنائياً بسعي لا يعرف الملل وبدأب لا يعتريه
نعب ، وفضحهم والعمل على معاقبتهم بالقانون مهما طال الزمن وإدخالهم السجون وتنضيد
هم بعار الأبناء ، وأي رهان على شيء خلاف هذا . . . فأبشر بطول سلامة يا مربع !

يا باشا أو يا هاما.. لا فرق!

كنت أعبّر بسيارتي وسط الزحام عند بولاق أبو العلا عندما لمحت إمراة عجوز ضئيلة احجم تنزل من الرصيف تحاول العبور ، ثم ترتد إلى الخلف في فزع ثم تعاود المحاولة مرة أخرى .

تكرر هذا الأمر منها عدة مرات دون فائدة ، وأتأخبط ببطء حركة السيارات لي أن أراها تنادي رجل الشرطة القريب طالبة مساعدته : " و النبي يا ابني تعديني " كان يقف وظهره اليها ولا يبدو له سمعها . لا أدري ما الذي أصابني وأنا أراها تنادي الشرطي وتلحف في الرجاء أن يأخذ بيدها . . وجدت قلبي يدق بشدة ، لقد تصورت ولا أدري لماذا أنه سيلتفت اليها ضجراً بندائها خواصل ثم سيعبر الخطوتين اللتين تفصلانه عنها وسيل من الشتائم ينهمر من فمه ثم يركلها في ضنها بجذائه الميري ويتركها على الرصيف تصارع الموت . وشاهدت نفسي أتحرك بعصبية داخل سيارة أريد أن أتوقف وأخف لمساعدتها قبل وقوع الكارثة . لكن لدّهشتي وجدت الرجل يلتفت اليها ثم يمسك بها في رفق ويطويها تحت ذراعه ويعبر بها في أمان .

أكملت طريقي إلى البيت وأنا مستغرب من نفسي ، ما الذي جعلني أتخيل هذا السيناريو مساوي الذي لم تبد له أية شواهد؟ لماذا أسأت الظن بالفتي وتصورته وحشاً مع أنه كان كريماً للغاية مع السيدة العجوز وتعامل معها كما لو كانت أمه؟

عندما خلوت إلى نفسي وتأملت الأمر بهدوء أدركت أن توقعاتي المحدودة للغاية من رجال شرطة فيما يخص حُسن معاملة الناس مرجعها الأساسي أنني علمت أن رجال الشرطة يأخذون دورات تعليمية في حقوق الإنسان !! ولكن هل أخذ المرء كورسات في حقوق الانسان هو أمر يدعو إلى القلق أم يبعث الطمأنينة في النفوس؟ في اعتقادي أنه أمر مخيف للغاية ولا يدعو للراحة بأي حال ، لأن الانسان على فطرته الطبيعية لا يحتاج لمن يعلمه كيف يكون انساناً . . القسوة هي التي تحتاج إلى مُعلم والوحشية هي التي تحتاج إلى أستاذ ، أما الإنسانية والرحمة فهي السلوك الطبيعي لندي لا يحتاج سوي لأن يتركوا الفرد دون أن يعلموه شيئاً!

و حتي يكون كلامي مفهوماً أكثر سأضرب مثال بشخص يحمل معه شهادة من أطباء الأمراض معدنية والنفسية تفيد بأنه عاقل . . هل إشهار هذه الشهادة في وجهك يملك على الاطمئنان إلى تتعامل مع صاحبها والثوق به ، أم انها كفيلة بإثارة فزعك وانطلاق هواجسك نحوه؟ من المؤكد نك لن تكون مطمئناً أبداً إلى عاقل بشهادة ، لأن الأصل في الانسان أنه عاقل دون شهادات ومن غير كورسات حكمة ودروس اتزان وضبط زوايا مخ!

لهذا كله فقد أدهشني الشرطي الطيب الذي سلك سلوكاً غير بوليسي بالمرة، مع أن مصطلح "سلوك بوليسي" في بلاد ربنا المحترمة لا يعني سوى الغوث والنجدة ومساعدة الملهوف مع الابتسامة الطيبة. لكن بالمعايير المصرية فإن هذا الرجل تخلي عن شرطيته وأقدم على تصرف بسيط للغاية وطبيعي للغاية وبشري جداً. فأثار دهشتي وارتباكِي حتي حسبته قد خرج الينا مبعوثاً من مسلسلات رمضان التي شاهدناها هذا العام تقدم رجل الشرطة الافتراضي الذي لا يكتفي فقط باحترام القانون والوقوف إلى جانب الحق، لكن وجدناه هدفاً للأشرا الذين كلما أحسن اليهم أساءوا اليه ولفقوا له الاتهامات بالتعذيب والحصول على الاعترافات بالإكراه، هذه الصورة الرسولية لرجل الشرطة الرقيق العطوف الحنون كأنه أحد تلامذة الأم تيريزا وقد خرج من الدبر مباشرة إلى "النباطحية".

هذه الصورة جعلت بعض الناس يرغبون في الخروج على القانون حتي ينعموا ببعض الحب الذي ربما لا يلقاه الواحد منهم في بيته أو لدى أمه أو زوجته التي قد تكون مشغولة بإرضاع صغير أو عمل صينية مكرونة في الفرن، على العكس من قسم البوليس الذي لا ينشغل أفرادُه عن المواطن في أي وقت وتحت أي ظرف، ومخبروه جاهزون لأداء رسالتهم في إيصال الحنان لكل محتاج، حتي أنهم عند استدعاء متهم في الفجر يقفون على رأس سريره قائلين: اصحي يا حلوة، اصحي يا جميلة. . . وهو نفس نداء ماما نونا لابنها حمادة!

غير أن مشكلة هذه المسلسلات الرمضانية أنها جعلت الناس تكره واقعها وترغب في الهجرة إلى أحد هذه المسلسلات والعيش هناك إلى الأبد. ومن واقع خبرتي العملية أستطيع أن أؤكد أن الهجرة إلى مسلسل من هذا النوع أفضل من الهجرة إلى كندا، فعلي الأقل ليس في المسلسلات جليد ولا صقيع طول السنة ولا طيران ١٥ ساعة ولا احساس بالغربة، لكن هل يمكن انتاج عدد كاف من المسلسلات تستوعب ٧٠ مليون مهاجر مصري على الأقل؟

حتي إذا استحال هذا فيكفي أننا عشنا بها زمناً رغداً، فقد أسعدتنا هذه المسلسلات وقدمت لنا مصريين مثلنا يعيشون في مصر بالمعايير الأوروبية وما فوق الأوروبية حتي أن المواطن العادي منهم يستطيع أن يتحدي وزيراً نافذاً في السلطة والحزب ويضع ابنه في السجن، ثم يحصل على حكم قضائي بإعدام نجل جناب الوزير دون أن يستطيع والده أن يفعل شيئاً في دولة القانون التي يظللها الحنان والحب ويحرسها رجال يتعاملون مع المواطن بأمومة حتي ليظن المرء أن المواطن قد يكف عن استعمال كلمة: يا باشا ويقول بدلاً منها: يا ماما!

لما شال بهلول يعرف أكثر!

قرأت بالصحف هذا الأسبوع على لسان أحد المسؤولين عن المرور تصريحات أشار فيها إلى تجاه النية نحو زيادة غرامات المرور على قاندي السيارات والمركبات، وذلك من أجل الحد من حوادث اليومية على الطرق السريعة والمحاور الرئيسية، وأشار السيد المسؤول إلى اعتبارهم تحميل سائقي السرفيس الغرامات على رخصة القيادة، وأضاف سيادته أن الغرامات الجديدة ستبدأ من ٢٠٠ إلى ١٠٠٠ جنية موضحاً أن تجاوز السرعة والسير عكس الاتجاه واستخدام التليفون المحمول كلها أمور سيتم مواجهتها بعقوبات شديدة.

عند قراءتي هذه التصريحات أحسست أن لا فائدة من أي شيء في هذا البلد، وتعبق لدي شعور بأن التعاسة قد أصبحت قدراً لا فكاك منه لهذا الشعب البائس طالما أن القائمين على أمره يمارسون الاستعباط الكثيف بجرأة بالغة! كيف يمكن أن تكون المشكلة المرورية في فكر المسؤولين عن المرور تتلخص في أن الغرامات غير كافية والعقوبات غير رادعة، وأن الحل يكمن في زيادة لغرامات وتغليظ العقوبات إلى حد جعل السجن عقوبة بعض المخالفات المرورية كما قرأنا مسؤول آخر منذ فترة وجيزة!

وفي الحقيقة فإن تصورات السيد مسؤول المرور خاطئة كل الخطأ سواء من حيث التشخيص أو من حيث العلاج، الأمر الذي يجعلني أود أن أصرخ بهللو الصوت وأقول: يا ناس يا هووه إننا لا نحتاج إلى أي تشريعات جديدة لا في المرور ولا في غيره. كل ما نحتاجه هو تطبيق القوانين الحالية كما هي وبصورتها الراهنة. فلم تكن مشكلتنا أبداً أن القانون قاصر. المشكلة أن القانون في غفوة ولا يتم إيقاظه إلا بشكل انتقائي وعلي حسب المزاج. ولو سألنا أي مواطن. لو سألنا حتي المارشال بهلول الذي يرتدي شوالاً ملئاً بغطيان الكازوز ويقوم بتنظيم المرور في وسط البلد سيخبرنا أن الكثير من رجال المرور يعملون بكل همة على نشر الفوضى في الشارع ولا يرغبون أبداً في أشاعة الانضباط أو تحقيق السيوالة المرورية لأن هذا يجرهم من الدخول التي اعتادوا عليها والتي يعود الفضل فيها لحالة الخراب القائمة. هل يتصور عاقل أن محلات العصير المنتشرة كالوباء والتي يقف أمامها الناضورية يشيرون للسيارات ويساعدونها على الوقوف ثلاثة وأربعة صفوف بعرض الطريق في أكبر وأهم شوارع العاصمة. هل يتصور أحد أنها تفعل هذا دون حماية

من أحد؟. وسيارات السرفيس التي تهدف العقوبات الجديدة إلى تحجيم فوضاها وعشوائيتها. . هل لا يعرف المسؤولون عن المرور أسباب تخديها للقانون واعتيادها الوقوف في منتصف الشارع لأي راغب في الركوب أو النزول؟ إن النظر إلى سائقي السرفيس يكشف بسهولة أنهم من المواطنين الغلبة الذين يرتعد الواحد منهم إذا لمح ظل مخبر أو شرطي أيا كانت رتبته، فهلا أخبرنا أحد من أين تواتيهم كل هذه الجرأة وكل هذا الجبروت في فرض قوانينهم في الشارع إلا إذا كانوا مطمئنين أن جرائمهم ليس عليها معقب، وأن أصحاب السيارات التي يعملون عليها من السادة الباشوات كفيلين بحمايتهم.

و هل لا يعلم السيد مسؤول المرور أن زملاء الضباط قد وضعوا أول لبنة في صرح الفوضى والعشوائية وحوادث الطرق عندما دأبوا منذ سنين طويلة على منح رخص المرور لأناس مجهلون قواعد القيادة، وأن امتحان القيادة نفسه هو في حد ذاته نكتة، وأن الرخص يتم توصيلها للمحظوظين في المنازل، وأن هؤلاء هم أكثر من يرتكب حوادث ومخالفات. وفي تقديري أن هذا التساهل في منح الرخص للمعارف هو نفسه الذي يدفع الضباط للتساهل في امتحان القيادة حتي مع من لا يملكون واسطة كنوع من التكفير عن التهاون مع المحظوظين، فتكون النتيجة هي هذا الخراب الشامل في الشارع المصري.

و هل يا تري لا يعلم السادة المسؤولين عن المرور أن سيارات الشرطة هي أول من ابتدع السير عكس الاتجاه، ومن ثم تبعها الجميع. وهل لا يعلمون أن سياسة إلغاء التقاطعات التي قاموا بها في معظم أنحاء القاهرة هي بمثابة إعلان إفلاس وعجز عن فرض احترام الإشارة. وهل لا يعلمون أيضا أن إلغاء التقاطعات قد دفع الناس دفعا إلى السير عكس الاتجاه تفاديا لقطع مسافات كبيرة بلا داع سوي كسل القائمين على المرور ورغبتهم في إراحة دماغهم من المرور ومشاكله!.

إن المارشال بهلول المجذوب يستطيع أن يشرح لرجال المرور أن تعويد الناس على احترام الإشارة هو أمر في غاية البساطة. . كل ما يحتاجه هو أن يشعر المواطن أن الأمر جد لا هزل فيه، وقد يستغرق مدة أسبوع واحد فقط من تطبيق القانون مجدية على الجميع مثلما فعلوا في موضوع الحزام منذ سنوات قليلة، وبعد مرور هذا الأسوع سيكون الناس قد اعتادوا على النظام، ويمكن وقتها أن نصرف رجال المرور-حيث لن نكون في حاجة اليهم- ونلحقهم بأعمال أخرى تخدم الوطن كاستصلاح الصحراء مثلا، أو نشركهم في مشروع الأسر المنتجة ونشتري لهم ماكينات تريكو أو أي عمل شريف آخر يحتاج طاقتهم وجهدهم.

إذا كان السادة المسؤولون لا يعلمون كل هذا فهذا أنا أخبرهم أن تغليظ العقوبات وزيادة نغرامات في ظل حالة الترهل والفساد والعجز عن تطبيق القانون التي نعيشها لن يترتب عليها أي تحسن في المرور . كل ما سيطرأ عليه التحسن هو دخل السادة المستفيدين من المخالفات سواء عن طريق تحصيلها وتوريدها للحكومة بعد حجز نصيبهم منها ، أو عن طريق التفاوض عن تحصيلها مقابل "تفتيح المخ" مع العلم أنه كلما زادت الغرامة كلما إرتفعت قيمة تفتيح المخ ، لهذا فمن خير لنا أن نظل التسعيرة عند حدها الحالي رفقا بالمواطنين . . و خصوصا لو تم تطبيق عقوبة حبس على بعض المخالفات المرورية ، وقتها لن يتردد المواطن في دفع أي فدية لمن بيده إدخاله لسجن أو إعفاء من السجن . . مش كدة ولا ايه؟

سفر الوحسة

١٠٠٠ سنة من كسفة الأهم!

عندما قامت اسرائيل في عام ١٩٨٨ بإطلاق أول قمر صناعي لها في خطوة وصفت بأنها نقلة عسبة عملاقة، لم تقف مصر مكتوفة الأيدي . في الأسبوع ذاته تم إطلاق الرغيف الطباقي في الأسواق . وأذكر أن وزير التموين في ذلك الوقت أطل علي الناس من تليفزيون الريادة في مؤثر صحفي حاشد، وتحدث مليا عن الحدث الذي طال انتظاره، وبشر الجماهير بأن الرغيف الطباقي ربة ٩٠ جرام ليس آخر إبداعات وزاته، وإنما الخبراء في المخبز الآلي الجديد عاكفون علي تطوير حبال جديدة من الرغيف بعضها حمص وبعضها بدون ردة، وقد أجاب سيادته علي أسئلة صحفيين وأعلن أن زمن التصاق وش الرغيف بقفاه قد ولى بغير رجعة، وأن الأجيال الجديدة من الطباقي ستميز بالدقة في المعايير والمكونات والمدي الذي تغطيه المخابز وإصابة الهدف الذي هو في النهاية ملء بطون أبناء مصر .

و مع هذا فقد أحس المصريون وقتها بأن الرغيف الطباقي ربما يكون معجوناً بالماء الثقيل " قبل نفيته من المجاري " وتناولوا سيرته بسوء، كذلك حاول بعض الرعام المشككين (الذين يأكلون نكك) أن يثيروا اللغظ حول البرنامج الطباقي، وحاولوا أن يعقدوا مقارنة سخيفة بين القمر الصناعي الذي أطلقته اسرائيل بغرض التجسس علي البلاد العربية وبين برنامج مصر الطموح لعيش السخن، ولكن كتيبة الصحفيين الذواقة الذين حصل بعضهم في تمييز واضح علي ألف عيش (ألف عيش بلغة الأفران تعني ٢٠ رغيفا) أقول انهم وقد أسكرتهم طعامة الرغيف مع الجبنة خنوخة " كان هذا قبل عصر البعور والأوزي " انطلقوا يدافعون عن فكر الحزب الوطني في صيانة لأمن القومي المصري وركيزته الأساسية " الرغيف " وقاموا بإفهام الجمهو الجاهل بأن مصر منذ أن عتمدت السلام خيارا استراتيجيا لها ومنذ آمنت بأن حرب اكتوبر هي آخر الحروب أصبحت تري أن رفاهية شعب مصر أهم من أقمار التجسس أو السلاح المتطور الذي يغري بالحروب، ولما نسأل البعض عن كيفية حماية الرغيف الطباقي من الوحش الذري الرابض علي الحدود، كان الرد المفحم : بالسلام وبمزيد من السلام!

و هكذا مضت المسيرة سنة ورا سنة حتي دخلت الدنيا في عصر القنوات التي تبثها أقمار صناعية مزروعة في الفضاء . . ومرة أخرى تعلر أصوات المشاغبين وأهل " اللماضة " يطالبون بأن

نشارك في تصنيع القمر الذي ننوي شرائه وأن نشترط علي الدولة الموردة أن يقوم المهندسون والفنيون المصريون بإصلاح والمشاركة في كل مراحل تصنيع القمر حتي يكتسبوا الخبرة والمعرفة التقنية كما فعلت الهند . . لا أن نشترى قمرا جاهزا تسليم مفتاح دون أن نتعلم شيئا . لكن الحكماء كعادة يتدخلون في الوقت المناسب لينزعوا فتيل الفتنة ويفسروا للبسطاء ما استعصي عليهم . ويتم استدعاء شيوخ الحزب الوطني الذين يقدمون تفسيرا للوذعيا للأمر ويشرحون للناس أننا خير أمة أخرجت للناس ، وأن الله كما سخر لنا الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لنا الأنعام ، كذلك سخر لنا الخواجة الأجنبي الذي يسهر في معمله يفكر ويبتكر ويخترع ويصنع أدوات الحضارة من تليفزيون وتليفون وطائرة وسيارة وبلاي ستيشن ، ثم نحصل عليها ونحن علي الشلث قعود دون بذل أي مجهود . فهل نكفر بالنعمة ونقوم نحن بالتفكير والاختراع ونمنح الكفرة خلاصة عقولنا علي الجاهز ؟!

و تمر الأيام ويندثر المشروع القومي للرغيف الطباقى الذي أطلقه علماء الحزب الوطني كبديل آمن عن الأقمار والصواريخ ، ويبقى الرغيف الخنفساري قاسي الوجه والسمات ، ويقال أن ضغوطا أمريكية كانت وراء إيقاف البرنامج !

في الوقت نفسه أسفرت فضائيات الريادة المنطلقة من أقمار الخواجة " المغفل " عن مواد وبرامج في أكثر من ثلاثين قناة من فرط حلاوتها جعلت النفس " تجزع " فلم يعد يراها أحد .

وهكذا في كل مرة واجهنا تحديا يقتضي استنفارا علميا واحتشادا ذهنيا ونفسيا كان الحزب الوطني يؤثر البعد عن وجع الراس ويعتصم بالحكمة ويلوذ بالكسل اللذيذ لحمايتنا من التيارات الوافدة ، ولم يجد الحزب الوطني أبدا في صفه الكبير ما يدعو للخجل لأنه علي الأقل يدرا عنا حسد الحاسدين .

فما الذي حدث يا تري وجعل حزينا الطباقى يغير اتجاهاته العلمية وتقاليد الراسخة التي عودنا عليها وينحو فجأة جهة المفاعلات النووية التي طالما خوفنا منها لأنها قد تفعل بنا ما أحدثه مفاعل تشيرنوبيل الشرير بأهل اوكرانيا؟

لن أدع الحيرة تستبد بي ، فأيا كانت الإجابة فالحزب الوطني دائما يعرف أكثر ، ومن الحماقة عدم تصديق قياداته ، ومن الحماقة أيضا تصديق أصحاب الغرض الأنهم من القلة الحاكمة والشرذمة المندسة وسط الجماهير الشريفة تروج لمقولات فارغة ما أنزل الله بها من سلطان من عينة أن الحزب الوطني إذا قال قولة حق . . فابحث عن السبوبة ! .

٧ حرمتنا الله من الفكاكة

لم أعد أتعامل بجدية مع صحف الحكومة ولا مع راديو وتلفزيون الريادة . أصبحت كوميديا ولا شئ سواها هي ضالتي التي ألتمسها لديهم ، وهي الخيط الواهي الأخير الذي ما زال يربطني بهم . ورغم توقفي عن قراءة الأخبار والأهرام والجمهورية وأخواتهم ، وقيامي بحذف نترات ماسبيرو من قائمة تلفزيوني ، فإنني أستعين بالانترنت في قراءة مقالات فهمي هويدي وسلامة أحمد سلامة ونص كلمة أحمد رجب في المواقع التي تجمع ما يستحق القراءة في الصحف المصرية .

لكن أحيانا أقرأ في بعض المطبوعات والمواقع عن أخبار مستفزة أو مضحكة منسوبة إلى صحف الحكومية ، الأمر الذي يدفعني للعودة إليها في مصادرها وفتح صفحاتها علي النت حتي بعد مرور أيام علي صدورها . هكذا قرأت مقال طشة الملوخية الشهير وألهمني كتابة مقال عنوانه مدرسة أبله نظيرة الصحفية " بالمصري اليوم في ١ سبتمبر ٢٠٠٥ ، كذلك مقال الأوزي والبعور سحني فرصة كتابة مقال عنوانه " ما الدنيا إلا مسقط كبير " في ٣١ أغسطس ٢٠٠٦ . وهكذا ولكتابة الهزلية لا تقوم عندي بدور التسلية فقط وإنما أدين لها بمنحي أفكاراً للكتابة . و مرحبا - نهزل الجميل !

و مؤخرا قرأنا عن موضوع الفيلم الاسرائيلي الذي يصور قتل الأسري المصريين علي يد إرابة الاسرائيليين ، وعلي الرغم من الفظاعة والوحشية الاسرائيلية فإن تعليقات بعض مسؤولين وأعضاء البرلمان والكتاب والصحفيين كانت في غاية الظرف والطرفة ، ومنحت الأمر- علي مأساويتهم بعداً كوميديا ، فكانت أشبه بمن يلقي في أذنك بنكتة وأنت في قاعة عزاء فتلوم نفسك إذا ضحكت أو تبخسه حقه ككوميديان إذا تجهمت !

و من هذا ما أكده السيد أحمد أبو الغيط في تصريحه بالأهرام من أنه لا يمكن الإستناد في إدانة إسرائيل إلى معلومات صادرة عن وسائل الإعلام الاسرائيلية لكونها غير موثقة وغير رسمية !! ويشير الوزير إلى أن اتفاقية جنيف الثالثة لعام ١٩٤٩ تعطي الحق لمصر في مطالبة إسرائيل بإجراء تعقيقات في الادعاءات بقتل الأسري المصريين وتلزم إسرائيل بإجراء التحقيق وملاحقة المتهمين وتقديمهم للمحاكمة !!

هل هناك دفاع عن اسرائيل أفضل من هذا؟ وهل يريد وزير الخارجية المصري ختم النسر علي الفيلم الذي أذاعه التلفزيون الاسرائيلي حتي يعترف سيادته به كوثيقة إدانة! وهل لا يكفيه أن التلفزيون الرسمي الاسرائيلي (المكافئ لتلفزيون الريادة عندنا) هو الذي أذاع الشريط . . لقد احتار الاسرائيليون والله في أمرنا . . يقولون: قتلنا أسراكم فنقول لهم: نحن لا نصدقكم، فهل تجدد السيدة تسيبي ليفني وزيرة الخارجية الاسرائيلية نفسها مضطرة لأن تحلف علي رغيف كايزر حتي نصدقها، أم تضطر لمصافحة وزير خارجيتنا وتقول ويدها في يده: والعشرة دول يا أحمد إحنا اللي قتلناهم!

كذلك ما كتبه رئيس تحرير الجمهورية من أنه شاهد الفيلم ومنه تأكد أن الجنود المصريين قد استشهدوا وهم يحاربون ولم تقتلهم اسرائيل غيلة وغدراً! ويخبرنا الأستاذ محمد علي ابراهيم بين أن نعتبرهم شهداء أو نعتبرهم ماتوا كالنجاج، وهو يراهن بالطبع علي أننا لن نقبل الاحتمال الثاني وبالتالي سنقبل أنهم ماتوا شهداء وهم يقاتلون . . وبهذا ينفي عن اسرائيل أنها ارتكبت جريمة وحشية ضد أسري عزل من السلاح . ولا أدري لماذا كل هذه الجهود والتنظيرات من أجل تبرئة اسرائيل . . هل الغرض هو أن ندفع باسرائيل إلى الجنون بإنكارنا أن هناك أسري تم قتلهم بعد أن اعترفت بالجريمة؟ هل المطلوب هو الكيد لإسرائيل وتفويت الفرصة عليها لإدلائنا وإهانتنا وهو الغرض الحقيقي من إذاعتها للشريط؟

وماذا يقصد الأستاذ ممتاز القط عندما يلصق الجريمة بقادتنا في ٦٧ غير أن يبرئ اسرائيل ويعفيها من المسؤولية، خاصة وأن سجل اسرائيل في قتل الأسري لا يقتصر علي حرب الخامس من يونيو فقط وإنما هذا دأبها في كل جولاتها العدوانية معنا.

يا خسارة يا جدعان . . هل أصبح أعلي ما في خيلنا هو أن نطلب من اسرائيل (التي ارتكبت الجريمة) أن تجري تحقيقاً وتلاحق المتهمين (الذين هم أبناءها) وتقدمهم للمحاكمة وتصدر بحقهم أحكام الإدانة ثم تقوم بتنفيذ هذه الأحكام! . والله إن خيالي ليشطح في أن اسرائيل قد تفعل هذا كله علي سبيل السخرية والهزؤ بنا فتقدم قادتها للمحاكمة ثم تستند إلى دفاع مسؤولينا وصحافتنا في تبرئتهم!!

أما أطرف ردود الفعل علي الاطلاق فقد صدر من أحد النواب الأشاوس الذي طالب بذبح السفير الاسرائيلي رداً علي جريمة قتل الأسري . . عندما قرأت هذا التصريح لم أتمالك نفسي من

خبيثة لأنه ذكرني بمشهد شهير في مسرحية ربا وسكينة . . كانت الفنانة سهير البابلي تمشي تبخر
في رنقة الستات " متبوعة بنظرات الرجال ومداعباتهم عندما اقترب منها رجل لا تكاد قدماء
خبره من الضعف والتهافت وقال بلهجة سكندرية : مساء الخير يا جميل . . ما تبجي نستولك
عاب . . فترد سهير البابلي في استهانة واضحة : يا شيخ اتيل . . انت تعرف تسقي مية ؟ !
وحتي يظهر لدينا أحد يعرف يسقي مية ستظل اسرائيل تعربد وستظل عظام جنودنا تدعن
أحدت وخيبتنا وهواننا علي الناس .

علي خطي الحبيب.. بورقية!

نشرت صحيفة يديعوت احرونوت الاسرائيلية يوم الجمعة الماضي نبأ إلتصالات سرية تمت بين إسرائيل والسعودية، كما نشرت نص مقابلة صحفية مع ايهود أولمرت أعرب فيها عن إعجابه الشديد بالعاهل السعودي وبآرائه وحنكته السياسية، وقال انه متأثر جدا من التصريحات السعودية الأخيرة العلنية منها والسرية! " خاصة المتعلق منها بإدانة حزب الله وتبرير العدوان علي لبنان وشدد علي انبهاره بالمسؤولية التي يتحلي بها حكام المملكة. وفي نفس السياق نشرت الصحيفة صهيونية عن ولي عهد البحرين أنه قال خلال اجتماعه في نيويورك مع نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز قاتل الأطفال في مجزة قانا ٩٦: إن تسخين العلاقات بين الدولتين سيكون أسرع مما كان متوقعا، ودعا الاسرائيليين إلى صنع شرق أوسط متطور ومتعش في كافة المجالات، وأضاف أن البحرين بصدد اتخاذ قرار يسمح للإسرائيليين بالقيام بزيارات علنية إلى المملكة، كما وجه دعوة لبيريز لزيارة البحرين. . وقد أثني بيريز علي ملك البحرين وأشاد بحكمته وحنكته السياسية!

لم تعد هذه اللقاءات بين حكام عرب تبعد بلادهم عن اسرائيل مئات الأميال تثير دهشة أحد، ولم يعد الغزل العلني المتبادل بين مجرمي الحرب الاسرائيليين وبين حبايبنا الحلوين الزعماء العرب نبثل خبرا يستحق الاهتمام. غاية الأمر أننا كنا حتي وقت قريب نظن أن القاهرة وحدها تحتكر تركيز الحكمة في الشرق الأوسط وأنها المورد الرئيسي للحكمة بكل صورها (كبسولات وحبوب وأيضاً لبوس) فإذا بملوك الخليج طبقاً لتصريحات زعماء اسرائيل يسحبون التوكيل أو يشاركوننا فيه، الأمر الذي يشكل خطراً ماحقاً علي الشعوب الخليجية التي ألقت رغد العيش والحياة السهلة خشية أن تصل بهم الحكمة المفرطة إلى حدود المجاعة كما وصلت بنا! . عادت بي الذاكرة اللعينة إلى أيام كان مجرد التفكير في الاتصال بالاسرائيليين يعتبر جريمة، وتذكرت كيف كان الموقف حاداً لدرجة التطرف إزاء حكام مثل الحبيب بورقية الرئيس التونسي السابق الذي قاد تحولات في بلاده كان فيها سابقاً بأكثر من ثلاثين سنة لما يحدث الآن بالمنطقة العربية، ولا شك أن أنصاره يحق لهم أن يفاخروا بما يعتبروه رؤيته العميقة وبصيرته النافذة عندما قرر عن طيب خاطر وبدون أي ضغوط أن يخلق لنفسه ويخلق لشعبه (علي رأي الأخ علي عبد الله صالح فيما بعد) رغم أن مقصات الغرب

وأمواسه لم تكن مشرعة في ذلك الوقت ، الأمر الذي يؤكد أن الحنكة والحكمة قد طالت الشمر الافريقي مبكرا وأنها لو دامت لغيرنا ما وصلت إلينا . وهكذا الدنيا !

كان الحبيب بورقيبة مفتونا بالغرب إلى حد كبير ، وكان أول حاكم عربي يدعو للإعتراف بإسرائيل ، ومن تصرفاته المتطرفة في التغريب أنه أصدر قانونا عام ١٩٥٦ يمنع تعدد الزوجات ، وفي مرحلة لاحقة دعا إلى تحريم الصوم علي الشعب التونسي بدعوي انه يقلل الانتاج ويعوق التقدم وظهر علي التلفزيون يتناول الطعام في نهار رمضان حتي يحذو التونسيين حذوه ! كما لم يتردد في منع ارتداء الحجاب ، وقيل أنه أجبر طالبات كلية الشريعة بجامعة الزيتونة الاسلامية علي المشاركة في مسابقة للسباحة بالمايوه البكيني ، أما مناهج التعليم فقد فعل بها ما يقومون بإملائه علينا في مصر وفي كل البلاد العربية من تخفيف الدين بالتدريج حتي يتلاشي . . كل هذا فعله الرجل طوعية وعن اقتناع . ولقد كانت الجماهير العربية في ذلك الوقت تستنكر هذا النهج البورقبي الصادم ، وكان التعبير عن الرفض يأخذ أحيانا أشكالا غير لائقة أذكر منها الحفل الذي قدمه التلفزيون عام ٦٦ وقامت فيه الفنانة لبلة بالسخرية من الزعماء العرب وغنت قائلة : قل لي ولا تخبش يا زين إيش مصير فيصل وحسين ! ، كما خصّت الرئيس بورقيبة بفقرة كاملة استهلتها بالقول : بورقيبة الخيبة الخيبة . . وطبعاً ليس مقبولا تحول الخلاف السياسي إلى شتيمة وبذاءات ، ولكن هذا شأن العرب جميعا في خلافاتهم عندما يحشدون كتابهم وصحفيهم وفنانهم للنيل من الآخر وتجريحه .

لكن نستنتج من هذا أن ما كان يمثل الحبيب بورقيبة في ذلك الوقت من مملأة الغرب ومعاداة الدين وسعي لمصادقة اسرائيل كان محل استنكار واستهجان بقية العرب أو أغلبهم .

لكن ثمر الأيام ونجد ما كنا نعتبره من الكباثر الوطنية وقد صار سلوكا عاديا ونجد الزعماء العرب يغازلون اسرائيل ويطلبون رضاها وينفذون في داخل بلادهم كل ما يسألخهم عن هويتهم العربية الاسلامية ويصطفون في طابور يسير بانتظام علي خطي الحبيب . . بورقيبة !

كنشتره القطر والذئاب!

معزوفة الخميس ١١ مايو ٢٠٠٦ :

الحركة الأولى : مظاهرة حاشدة . صبيان وبنات بالمئات أقبلوا يوم الخميس الماضي لحضور محاكمة تامر حسني بتهمة تزوير شهادتي قيد بجامعة المنصورة وجامعة حلوان . . الشباب يرتدون نى شيرتات موحدة مكتوب عليها (تامر كلنا بنحباك) . وقد تم إحضار تامر من السجن الحربي نذي شرّفه نتيجة لارتكابه جريمة تزوير شهادة الخدمة العسكرية . . نهر الدموع أغرق الرصيف وبلبل جنبات المحكمة . . الآهات الحارة من الفتيات الدامعات والفتيان المكلمين كانت تذيب لبومبوني واللبنان الذي يطرقع في الأفواه ، وعيون الغيد الحسان التي تشبه عيون المها قد كحلها لسهاد والبكاء وقلة النوم فرقا وفرعاً علي الحبيب الغالي .

الجمهور لا يعرف علي وجه التحديد عدد جرائم التزوير التي ارتكبتها مطربهم المحبوب ، كل ما يعرفونه أن تامر لا يجب أن يبيت بالسجن ليلة واحدة . . لا شك أن من يحاكمونه لا يعرفون كم هو رقيق وكم هو مرهف ، وأن السجن ليس المكان الطبيعي لمن كان مثله حتي لو ارتكب جرائم مخلة بالشرف . . . وكانت منتديات النت قد شهدت خلال الفترة الماضية الكثير من الاسهامات الفكرية لعشاق تامر الذين اتفقوا علي ان مطربا رقيقا مثل تامر وزميله الاخر هيثم انما هما نعمة يجب أن نحافظ عليها ونعوض عليها بالنواجذ و " الضراصير " لذلك فقد تنادي كل الشباب والفتيات من الذين يحترمون الموهبة ويقدرّون نعمة ربنا لموازرة تامر في محتته وتوافدوا من كل فج عميق ليشهدوا محاكمة تامر . .

و ملأت رائحة العطور الباريسية قاعة المحكمة وظهرت بجانب حالة الكاجوال الشبابية سيدات يرتدين تايرات كلاسيكية أنيقة قيل أنهم سيدات أعمال وزوجات الأكابر ، وسيطرت حالة من الحنان والرفقة علي " الامبيانس " العام للمشهد ، وكان المتظاهرون الذين بذلوا جهودا مضنية خلال الاسابيع الماضية لنصرة حبسهم في حالة إعياء بسبب الجهد الكبير الذي بذلوه في الحملة المنظمة التي أطلقوها لنصرة تامر وكان أكثرها وضوحا اللافتات الضخمة التي علقوها علي الكباري وكتبوا عليها : تامر . . وحشتنا .

الحركة الثانية : عمرو عبد الله مصور المصري اليوم يتعثر مذهولا في الشارع ، جريحا وممزق الثياب . . يبكي وبقايا كاميرته في يده شاهدة علي رجولة الفرسان الأشاوس الذين أوسعوه لكما وركلا وسبا واهانة وحطموا الكاميرا التي يعمل بها دون أن يعرف السبب ، وفعلوا المثل مع القنوات الاخبارية التي أرادت تغطية محاكمة القاضيين مكى والبسطويسي في تجريدة بوليسية تكفي لتحرير القدس ، وقد ضربوا حصارا حول دار القضاء العالي ومنعوا القضاة من المرور للحضور مع زميلهم كما منعوا باقي الدوائر القضائية من العمل في هذا اليوم وأعطوا القضاة والمتقاضين أجازة اجبارية ! وضربوا بالعصي وبالأيدي والأقدام كل من اقترب وجاهر بتأييد القضاة ، واعتقلوا قرابة ٣٠٠ متظاهر بعد معركة خاسوا غمارها ضد أعداء الوطن .

الحركة الثالثة : سيارة شرطة تنهب الأرض بسرعة وبداخل صندوقها المغلق عشرات الجنود في طريقهم لقلب المعركة بوسط البلد . . السيارة تستقلب من فوق كوبري اكتوبر جهة العباسية . . البؤس يطحن البؤس . . الفقر يُهشم الفقر ونهاية منجعة لأبرياء كانوا في طريقهم لسحق أبرياء !

الحركة الرابعة : المحكمة تدين تامر حسني والقاضي يصفه بأنه مثل سئ للشباب ويحكم عليه بالسجن لمدة سنة ويرأف به فيوقف تنفيذ الحكم . تتعالي الهتافات وتدوي الزغاريد من المريدين والمحبين الذين انخلعت قلوبهم خوفا علي أمير القلوب وأحاطوا به من باب القفص حتي ركب سيارة السجن التي انطلقت عائدة به إلى محبسه ومئات القبلات تنطلق في الهواء من شفاه أحرقتها التهنيدات ، ومنظر التي شيرتات الجميلة ترتديها كتيبة الوداد والحنية . . تامر كلنا بنحبك . . تامر وحنفضل جنبك . . تامر ونعيش ونقول لك . . تامر يا حبيب الكل يا تامر .

فانوق حسني مديراً لليونسكو.. افرح يا قلمي!

نشرت الصحف في الأيام الماضية عن لجنة تم تشكيلها من أجل الإعداد للحملة الانتخابية خاصة بترشيح فاروق حسني وزير الثقافة لتولي منصب مدير عام منظمة اليونسكو الدولية اعتباراً من يناير ٢٠٠٩.

ومن المعروف أن اليونسكو يرأسها الياباني "كوشيرو ماتسورا" منذ أول عام ٢٠٠٣ وقد عتلي قمة المنظمة الدولية بعد أن فاز علي ١١ مرشحاً أشهرهم غازي القصيبي الشاعر والديبلوماسي السعودي المعروف، فضلاً عن اسماعيل سراج الدين رئيس مكتبة الاسكندرية. وقد سمرت الانتخابات كما نعرف عن فوز ماتسورا في الجولة النهائية ب ٣٤ صوت وحصول المرشح سعودي علي ١٣ صوت والمصري اسماعيل سراج الدين علي ٣ أصوات من ٥٨ هم عدد أعضاء مجلس التنفيذي للمنظمة الذي ينقسم كالتالي:

المجموعة الآسيوية ولها ١٢ صوتاً، والمجموعة الأفريقية ولها ١٤ صوتاً، والمجموعة الأوروبية ولها ١٦ صوتاً، ومجموعة أمريكا اللاتينية ولها ١٠ أصوات، والمجموعة العربية ولها ٦ أصوات. وهذا يوضح بجلاء أن المرشح المصري لم تساند له الأصوات العربية أو الأفريقية أو الآسيوية فضلاً عن أصوات أوروبا وأمريكا اللاتينية. ويصعب طبعاً أن نتحمس للحجة القائلة بأن الدكتور اسماعيل سراج الدين لم يوفق بسبب أنه لم يكن المرشح الرسمي لمصر، وإنما تم تزكيته بواسطة يوركيينا فاسو! ولا نظن أبداً أن ترشيح مصر الرسمي له كان يمكن أن يفيد. ما يحملنا علي هذا الاعتقاد هو أنه بعد عدة شهور من هذه الانتخابات كنا علي موعد مع القدر وترشيح آخر تبنته مصر رسمياً هذه المرة من أجل الفوز بتنظيم مونديال كرة القدم عام ٢٠١٠، وجاءت النتيجة مزلزلة: ١٤ صوتاً لجنوب أفريقيا التي فازت بشرف تنظيم البطولة وعشرة أصوات للمغرب المنافس المحترم... أما مصر أم الدنيا فلم ينتخبها أحد من ٢٤ دولة بينهم أشقاء عرب وأبناء عمومة أفارقة ورفاق كفاح أسيويون.

كل هذا قصدت أن أسرده ليس من أجل تثبيط الهمم والنيل من العزائم، ولكن حتي لا نغرق في بحار الأوهام التي أدمنا السباحة فيها. مصر يا سادة ليس لها أي وزن دولي يحمل أحداً علي احترامها أو تأييد مرشحها، وهذه الانتخابات للأسف لن تديرها وزارة الداخلية وليس بين

المرشحين فيها من يرتدي الطربوش ويدعو لانتخاب فاروق حسني المرشح المنافس .. ومع هذا فأنا أتمنى للجنة التي تضم أسماء محترمة أن يكمل جهدها بالنجاح ، وللوزير الطموح أن يتحقق حلمه بالفوز بالمنصب الدولي الكبير .

غير أنني أحمل رجاء حاراً بحصر الأمر في إطاره الطبيعي ، أي باعتباره خطوة وظيفية في مسيرة فاروق حسني لا تخص شعب مصر ولا تهمه في شيء ، فلا تصدعوا رؤوسنا بالحديث عن الشرف العظيم الذي ينتظر مصر والمجد الذي سنحققه والأيام الوردية التي سنعيشها بعد أن يصعد إبن لنا إلى قمة المنظمة الدولية ، فلقد جربنا هذا من قبل ولم يتحقق لنا أي شيء إيجابي .. جربناه عندما صعد بطرس غالي بضغط فرنسي وموافقة أمريكية إلى منصب الأمين العام للأمم المتحدة من ٩٢ إلى ٩٦ فلا أعاد لنا حقاً ضائعاً ولا حرر لنا متراً واحداً من الأرض العربية المحتلة ولا نجح في حل اسرائيل علي تنفيذ قرار واحد من قرارات الأمم المتحدة ، كل ما نذكره له أنه فرض علي ليبيا حصاراً ظالماً امتد سبع سنوات وشاركت فيه مصر استجابة للشرعية الدولية !

إذن هذه المناصب لا تعني شيئاً بالنسبة لنا ، إنما تعني الكثير بالنسبة لصاحبها ومعه أسرته وأصدقائه ، وهذا حقه .. لكن هذا كل ما في الأمر . وإذا أردتم المزيد من الأمثلة فلا بد أنكم تعلمون أن ابراهيم نافع هو رئيس اتحاد الصحفيين العرب ، فهل هذا يعني أي شيء بالنسبة للصحفيين المصريين؟ هل يعني أي شيء للمواطن المصري الذي يحمل جركه منذ الصباح بحثاً عن الماء؟

و الدكتور فتحي سرور أيضاً هو رئيس برلمانات العالم ، فهل يساعد هذا علي تقديم استجواب يسقط الحكومة أو علي أداء أفضل لبرلماننا ، أو حتي علي ملء صحنون المصريين بالفلول؟ إن الأمر في حقيقته أن بعض المناصب لا قيمة لها وتشبه إلى حد بعيد بطولة كأس العالم العسكرية لكرة القدم التي لا تفوز بها أبداً القوي الحقيقية للعبة في العالم وبتكونها دائماً للغلابي ! ، والبعض الآخر من المناصب له أهمية كبرى ، لكن الغرب يسيطر عليها ويوظفها لصالح أهدافه سواء كان شاغلها أوروبا أو من مصر أو بورما أو غانا ، وهذا ينطبق علي منصب الأمين العام للأمم المتحدة الذي تختاره أمريكا كما ينطبق علي منصب مدير اليونسكو الذي تختاره أوروبا .

لهذا يحق لنا أن نزعج عندما نقرأ أن السيد فاروق حسني قد صرح للصحف بأن " حملة الترشيح تحتاج ثقلاً وقاعدة قوية وهذا يمكن توفيره من خلال بقائي في الوزارة لأن ترشيح وزير

بختلف عن ترشيح وزير سابق " تصريح الوزير يعني أنه ينوي حشد مقدرات الوزارة وامكانياتها لصالح ترشيحه وهو الأمر الذي لا يحق له لأنها وزارة ثقافة مصر وليست وزارة فاروق حسني ، ولا نعتقد أن أي مرشح منافس يشترط أن يكون وزيراً حتي تتعاضد فرص فوزه ، فهذا ينفع في انتخابات مجلس الشعب المصرية فقط . أما المجلس التنفيذي لليونسكو وأعضاءه الذين يقومون بتصويت فلا أظن أن هذا الأمر يعنيهم . . كما لا أظن أن بالإمكان ضمهم إلى الحظيرة !

٣٥: أليس منكم رجل متعلم؟

هناك أشياء تضايقتني وتزعجتني وتثير حفيظتي، بل قل تنكد عليّ حياتي. ومع هذا أحد صعوبة في الكتابة عنها لأنني أخشى أن أكون وحدي المهموم بها، وأخجل أن أحكي للقراء عن عصيات قد لا يكون لها أولوية في أجندة حياتهم المتخمة بالمهموم من كل صنف ولون. لكنني أشعر بأن قينارتي قد ملئت بأنات الجوي، وأصبحت كالمكبوت يخشى من الفيضان قررت - صارحكم.

منذ وفاة الكاتب لطيف رحمه الله ومشاهدة مباريات الكرة علي شاشات التلفزيون مصحوبة تعليق قد صارت شيئاً مزعجاً للغاية. ليس فقط بسبب أن أحداً لم يستطع أن يداني الكاتب خفيف في ظرفة ورشاقة تعبيره وحب الناس له، ولكن بسبب أن السادة المعلقين جميعهم تقريباً قد نسيوا طوال السبعة عشر سنة الماضية (منذ وفاة لطيف عام ٩٠) في أن ينطقوا بطريقة صحيحة لتستين لطالما سمعناهما من الكاتب لطيف عندما يخسر أحد الفريقين أو يصادفه سوء حظ في سارة. . الكلمتان هما:

مارد لك **Hard luck** هل هناك صعوبة في نطق هاتين الكلمتين؟ . ستقولون طبعاً لا توجد صعوبة، ومع هذا جربوا أن تسمعوها محمود بكر أو حمادة إمام أو أحمد شويبر أو مدحت شلبي أو بي معلق آخر، ستجدون الكلمة تنطق كما لو أننا نقول: الملك لك والحمد لك. . و هارد لك!

الأمر الذي يزيد دهشتي أن أحداً لا يصحح لهم، مع أنه بالتأكيد يوجد ضمن معارفهم من يعرف النطق الصحيح لهذا المصطلح الكروي الشائع.

وبما أننا نتحدث في كرة القدم فلا يفوتني أن أنعي لكم أيضاً النطق الخاطئ لشئ لا يتصور أن يحضى فيه أحد، وهو اسم انسان. . ذلك هو مدرب النادي الأهلي الذي ينطق الجميع اسمه بصورة خاطئة سواء المعلقون في الملعب أو المذيعون في الاستوديو مع ضيوفهم الصحفيين والرياضيين الذين تتم استضافتهم باعتبارهم خبراء في اللعبة، فإذا هم جميعاً مساكين يحتاجون إلى من عساهم طريقة نطق اسم شائع جداً في اسبانيا والبرتغال. الطريف أنهم ينقسمون في النطق الخاطئ باسم الرجل إلى فريقين: فريق ينطقها جوزيه "بالجيم المصرية" . . وكلما سمعتها تنطق هكذا

تخيلتهم يتحدثون عن (جوزين) حمام بالفريك ، وأما الفريق الآخر وهو الأكثر حصافة فينطقها بالجيـم المعطشة لأنها تُكتب بحرف الـ جـ الأفرنجي ، والواقع أنهم لا يعرفون أنه لا وجود للجيـم المعطشة في اللغتين الإسبانية والبرتغالية وأن هذا الحرف في هاتين اللغتين ينطق خاء ، وإسم الرجل كما أرادته له أمه وأرادته له أبوه هو "خوسيه" .

ننتقل من الكرة إلى الفن ونلاحظ أيضا غياب الاهتمام والاعتناء بأشياء بسيطة لكنها تشكل الفارق بين المعلمين وبين غيرهم . صنع بصري أفيش مسرحية معروضة اسمها : "برهومة وكلاء البرومة" . . ليست هناك مشكلة في اختيار أي اسم للمسرحية فصيحاً كان أم عامياً . المشكلة أنه في الحالتين يجب كتابته بشكل صحيح . وكلمة " وكلاء " هذه كلما صادفتها تسبب لي غصة وتجعلني أشعر بالأسى ، لأن كلمة " واكل " مؤنثها " واكله " واسم المسرحية يجب أن يكتب : (برهومة واكله . .) بإضافة حرف الألف . . . رأيتم كيف أن الموضوع سهل وبسيط ، ومع هذا لم يدركه السيد المؤلف ولا أبطال العرض . وإذا كنا يمكن أن نغفر للفنان أحمد آدم بسبب ظروفه ، فما عذر المخرج العتيد جلال الشرفاوي ؟

بعيداً عن الكرة والمعلقين الغلبة ، وبعيداً عن المسرح الهابط سأروي لكم حواراً دار في أحد مطاعم الوجبات السريعة . دخلت المطعم أستطلع ماذا يقدم ، فخفت إلى أحد العاملين وأخذ يشير إلى المعروض من السندوتشات والأطباق وراح يعدد العروض المقدمة بمناسبة الافتتاح وانطلق يشرح لي الفرق بين " الطلب " الكومبو والآخر غير الكومبو ، ولم ينس أن يشير إلي أن السندوتشات لديهم تقدم في حجمين **Medium, large** أي متوسط وكبير .

و هنا استوقفته سائلاً بمنتهي الجدية وحسن النية : تقصد أن لديك حجمين للسندوتش صغير وكبير ، فرد علي الفور : لا يا أفندم لدينا متوسط وكبير . قلت وأنا مندهش : إذا كان كل ما لديك نوعان فقط فكيف يكون من ضمنهما واحد متوسط . . إن من شروط وجود المتوسط أن يكون هناك أكبر منه وأصغر منه ، وهنا نادي علي المدير ملتصقاً مساعدته ، فقامت بإعادة الشرح للسيد المدير ، فنظر إلى بحسباني غبي وقال : لا أظنك تعتقد أن الشركة الأم في أمريكا تخطئ في أمر كهذا . نحن نتلقي منهم كل شيء ونعمل تحت اشرافهم ، وهم الذين قالوا أن هذا الحجم متوسط والآخر كبير . قلت له : يا أستاذ إن الأمر ليس له أهمية قصوي ، لكن معلميك الأمريكان إما أنهم جهلاء ، وإما أنهم يفعلون ذلك عمداً وهم يعرفون الحقيقة قاصدين حذف كلمة " صغير " من قائمتهم للإيحاء للزبون بضخامة السندوتش ، أما أنت فتصدق فعلاً أن الوسط يمكن أن يأتي دون

وجود اثنين يقع بينهما . هل يمكن أن تكون أنت الإبن الأوسط لأمك وأبيك دون أن يكون لك أخ
صغير وآخر أكبر؟

هذه الأشياء والتفصيلات قد تكون بسيطة وسط كم المآسي اليومية التي يصادفها الإنسان
مصري ، لكنني أعتقد أن عشرات التفاصيل الصغيرة التي أصادفها كل يوم هي التي تشكل حبة
بالنسبة لي . وإذا كانت كلها علي هذه الشاكلة فما أبأسها من حياة !

لدفاع عنه صاحب الحق.. الخسيس!

هل حدث يوماً أنك أدخلت نفسك طرفاً في نزاع لا شأن لك به سواء بين اثنين من أصدقائك ومعارفك، أو حتي بين اثنين لا تعرفهما وسأقتك الصدفة لحضور نزاعهما؟ . وهل حدث أن نسيت بالانحياز - بداعي الرجولة - إلى الطرف صاحب الحق عندما رأيته يتعرض للظلم، ومن ثم وجدت نفسك في مواجهة مع الطرف القوي المفتري . . هذا دون أن يكون لك في الأمر ناقة ولا حتي معزة؟ . . أغلب الظن أنك فعلت هذا مرة أو أكثر علي حسب مقدار جدعتك و استجابتك لدواعي النجدة والمروءة داخل نفسك .

هل تذكر ماذا كانت النتيجة؟ . . دون أن تجهد نفسك في محاولة التذكر سأقول لك النتيجة : سراء نجحت في إعادة الحق إلى صاحبه أو فشلت فالنتيجة في الحالتين واحدة . . الطرفان بعد مدة يتزمان باستعادة الصفاء بينهما وينسي كل منهما للآخر اساءته مع بروز عدو مشترك لهما هو . . سيادتك !

من الممكن في هذه الحالة فهم الموقف العدائي للطرف المفتري الذي قمت سيادتك بالتصدي له ومواجهته وكشفه وفضحه في محاولة لإعادة الحق إلى صاحبه . . لكن كيف يمكن فهم موقف الضرف الضعيف الذي ساندته ، وكيف سمحت له أخلاقه أن يبيعك ويتنكر لك بدلاً من أن يسعى - رد الجميل ، بل والأدهي أنه تقرباً وزلفي إلى الظالم المفتري قد يتأمر ضدك ويشهر بك ويطعنك في ظهره !

أظن أننا يمكن أن نعزو هذا إلى الضعف والإنكشاف النفسي الذي يدفع صاحبه إلى تحويل قسمة في الاتجاه المأمون نحو الطرف الذي يطمئن اليه ويثق أنه مهما أساء اليه فلن يؤذيه ولن يرد اليه حصة بمثلها .

و مثلما يحدث هذا بين الأفراد يحدث أيضاً بين الدول ، والسياسة الدولية تحفل بالمواقف خسيسة التي اتخذتها دولاً ضد الأطراف التي ساندتها ووقفت معها في أزماتها فلم تلق منها سوي جزاء سنمار .

حدث هذا بعد حرب أكتوبر حينما تحولت السياسة المصرية كلية بالعداء إلى الاتحاد السوفييتي

الذي مهما اختلفنا معه ايدولوجياً فلا نستطيع أن ننكر أنه وقف معنا في كل معاركنا ضد أعدائنا وبني لنا السد العالي الذي رفض الأمريكان مساعدتنا في بنائه ، كما زدونا بالسلاح الذي مكنتنا من الحرب واستطعنا به عبور قناة السويس في اكتوبر ٧٣ . صواريخ الدفاع الجوي الروسية هي التي مكنتنا من التصدي لسلاح الجو الاسرائيلي الرهيب ، والقطع البحرية الروسية هي التي أغلقنا بها مضيق باب المندب ، والدبابات الروسية هي التي خضنا بها أقوى المعارك البرية في يومي ١٤ ، ١٣ أكتوبر ، وصواريخ سكود الروسية القادرة علي إصابة العمق في اسرائيل هي التي حمت القاهرة من الدمار ، ومنعت العدو من ضرب المدن المصرية وهو الذي لم يتورع في السابق عن قصف المدارس والمصانع والمستشفيات ، كما أن جميع الطيارين المصريين الذين حاربوا في ٧٣ بما فيهم الرئيس مبارك قد تلقوا تدريباتهم في روسيا .

فكيف استطعنا بدم بارد بعد كل هذا أن نأخذ موقف العداء من الاتحاد السوفييتي ، وكيف استطعنا أن نقود أكبر حملة تشهير اعلامية ضد الحليف الذي لم يكن لنا سواء عندما كانت مصر كلها تنزف دماً؟ وكيف بلغت بنا السوقية أن نندفع في العداء الفاجر ونعرض في السبعينيات مسرحية وضیعة اسمها : " يحيا الوفد " تم تأليفها واخراجها خصيصاً من أجل السخرية من الدولة التي ساندتنا وقت أن كانت امريكا وفرنسا وانجلترا وألمانيا تمد اسرائيل بالسلاح وتبني لها المفاعلات النووية وتقدم لها الدعم السياسي .

لا يفهم مما سبق أنني أميل إلى الماركسية أو أتصور الدول الكبرى مؤسسات خيرية أو أبكي علي الشيوعية التي أسقطها الروس أنفسهم . العكس هو الصحيح . لكنني أبكي علي حال مصر التي تعادي من يصادقها وتصادق من يعاديها في أسلوب أبعد ما يكون عن الحصافة السياسية ، ولن أتحدث عن الأخلاق . . حتي الميكافيلية السياسية كانت تقتضي أننا إذا أردنا أن نتوجه إلى العدو بالسلام أن نعمل هذا دون أن نقدم أصدقاء الأُمس قرباناً .

نفس الأمر تقريباً تستطيع أن تجده في العلاقات المصرية الايرانية . في وقت شاء ايران كانت العلاقات الايرانية الاسرائيلية تعيش شهر عسل دائم ، وكان الشاه حليفاً لاسرائيل ، ومع هذا كانت علاقة مصر معه علي أحسن ما يكون . وبعد قيام الثورة الايرانية وخلع الشاه أدار له أصدقاؤه الاسرائيليين والامريكان ظهورهم ، وقام السادات في خطوة بالغة الغرابة باستقباله وابوابه وخرجت الصحف المصرية تتحدث عن الوفاء ورد الجميل تجاه الشاه الصديق !

بعد ذلك قام نظام الحكم الجديد بقطع علاقاته بإسرائيل ومد يده للعرب ووقف للمرة الأولى مسانداً للقضية الفلسطينية، وهو بكل المقاييس تحول جذري في الموقف الإيراني لصالح العرب.. فماذا كان ردنا عليه؟.. قمنا بقطع علاقتنا مع إيران وما زالت مقطوعة حتي اليوم عتباً لإيرانيين علي تأييدهم للحق العربي وعلي غلظتهم في حق الغنم!

ولا نستطيع أن نفسر النجاح الاسرائيلي في التمدد إلى افريقيا وآسيا والوصول إلى جنوب السودان واللعب عند منابع النيل، ولا العلاقات الاسرائيلية الصينية ولا التصنيع المشترك بين إسرائيل والهند إلا علي ضوء نفس الحقيقة.

لقد تنكرنا لكل من وقف إلى جانبنا حتي دفعنا الكثير من القوي المؤيدة لنا في النهاية إلى لتحالف مع إسرائيل.

فهل يا تري يخطئ المرء إذا فكر في الدفاع عن صاحب الحق الضعيف الذي سيكون في الغالب.. خسيساً!

غواء، شهبندر بحيرة فيكتوريا!

أعتقد أنه سيأتي حين من الدهر يقرأ الناس فيه في كتب التاريخ عن حياة المصريين قبل الشيخ صالح كامل صاحب راديو وتليفزيون العرب ، وحياتهم بعد ظهوره . ذلك أن ملامح الحياة قبل بطل علينا تختلف عنها بعد أن صار جزءاً من حياتنا اليومية . والشيخ صالح ليس بالتأكيد صاحب المرحلة ولا هو واضع سياساتها ، لكنه الواجهة التي نراها بصرف النظر عن الجهات التي بنينا .

زمان أيام الطفولة في فترة الستينيات كنا نلعب الكرة الشراب في " الدوران " المجاور لمنزلنا بحي ظاهر ، وكان عسكري الدورية يكمن لنا خلف شجرة ، ثم ينقض علي الكرة ويقتنصها ثم يعود ويجلس علي الرصيف وخرزانه في يده . في هذا الوقت نكون قد عقدنا اجتماعاً سريعاً وقبضنا خضع مبلغ خمسة تعريفة ثمن سيجارتين كليوباترة ، ثم نوكل إلى أضخمنا جسماً مهمة الذهاب إلى شاوليش ومنحه قيمة الفدية حتي يطلق سراح الكرة ويختفي عن أعيننا لفترة تكون كافية لتكملة مش .

ثم يأتي العام ٧٢ ويلتحق بخدمة الشرطة نوعية جديدة من الشباب اسموهم أمناء الشرطة جلوس محل العسكري التقليدي . . ومع أول صدام لنا مع رجل البوليس الجديد نشعر أننا بإزاء مرحلة مختلفة تماماً عما سبقها . . فبعد أن يخطف الأمين الكرة من بين أرجلنا ، يمضي في هدوء ويسحب كرسيه من عند الحلاق ويجلس واضعاً ساقياً فوق ساق في انتظار التفاوض ، ونكون في هذه الأثناء قد أكملنا جمع التعريفات الخمس ، وعند مرحلة التسليم والتسلم نفاجأ بأن السيد الأمين لا يقبل بأقل من ربع جنيه بالتمام والكمال مقابل الإفراج عن الكرة والسماح لنا باللعب في الشارع !

لهذا فقد وقر في نفوسنا أن الفارق الملموس بين عسكري الدرك القديم وبين أمين الشرطة أن لنظام الحديث مكلف جداً ، وأن أعباء تفوق قدرة تلاميذ يلعبون الكرة بالبيجامات ونصفهم حفاة! الأمر الذي أرغمنا جميعاً علي الاعتزال المبكر ولم يبلغ أكبرنا سناً ١٣ عاماً .

أعتقد أن ما فعله بنا أمين الشرطة الجشع هو نفس ما نقاسيه من قناة إيه آر تي التي حرمت أبناء مصر من مشاهدة المونديال ، مع أن هذه المباريات ليست ملكاً لأحد حتي يبيعها لأحد . . إن

جوزيف بلاتر لا يملك الحق في بيع نقل المباريات ، فهو رئيس الاتحاد الدولي لكرة القدم وهي منظمة لا تهدف للربح **Non profit organization** فكيف تم إغواؤه وجعله يبيع ما لا يملك لمن لا يستحق ؟

لقد كانت حياة المصريين أقل قسوة قبل عصر صالح كامل ، وكان بإمكانهم رغم الفقر أن يحظوا بقليل من المتعة المجانية في مشاهدة المباريات ، وأنا لا أعتقد أبدا أن الرغبة في الربح هي الدافع إلى اختطاف مباريات كرة القدم واحتكارها ، إذ أن بيع حقوق إذاعة المباريات للمحطات الأرضية كان كفيلا بتحقيق ربحا كبيرا ، وهو الأمر الذي رفضه الملياردير السعودي . . الهدف الحقيقي هو الهيمنة والسيطرة وإذلال الناس وزيادة المرارة في حلوقهم . وأستطيع أن أقول ان الفقراء ليسوا وحدهم الذين تأذوا من احتكار المباريات بواسطة الايه ار تي . ان المصريين علي اختلاف طبقاتهم غير سعداء لأن أحدا مهما كانت قدرته المالية لا يسعد عندما تباع له الهواء !

ولقد تعجبت حين شاهدت الشيخ كامل في برنامج "في الممنوع" والأستاذ مجدي مهنا يسأله عن أخبار سمعها تتعلق برغبته في شراء الدوري المصري واحتكار إذاعته ، فإذا بعم الشيخ صالح يؤكد هذه الأخبار ويقول لمجدي : ألا تحب ناديك ؟ إذن عليك أن تساعد وتساهم في دعم نشاطه من خلال اشتراكك في القناة المشفرة التي تبث المباريات بما يعود بالنفع علي ناديك !! . . وبرغم الحرفية العالية والتمكن والشجاعة المعروف بها مجدي مهنا فلا أعرف لماذا صمت علي الشيخ السعودي ولم يفحمه ويقول له : وما شأنك أنت بدعم الأندية المصرية وتوفير موارد لها ، وإذا كنت أنا أستطيع الاشتراك في قنواتك المشفرة فماذا عن ملايين المصريين الذين بالكاد يدفعون فاتورة الكهرباء ، وما ذنبهم لتحريمهم من الدوري الخاص ببلدهم مصر ، ولماذا لا تمد بركاتك صوب بلدك السعودية وتحتكر الدوري بها ، ولماذا لا تذهب بنشاطك الكوني إلى خارج المنطقة العربية وتحاول احتكار الدوري الأرجنتيني أو البرازيلي مثلا ، ولتر ان كنت تجد مسؤولا هناك يرضي أن يبيع بلده مثلما تجد علي أرضنا العربية ! أم أنك تقصر نفحاتك علي أبناء أمتنا وحدهم ؟

لقد أصابني هذه الحلقة بصدمة عندما اتهم صالح كامل عشرة ملايين مصري بأنهم حرامية مستندا إلى فتاوي رجال الدين الأرزقية الذين يعملون عنده والذين يشبهون حسن البارودي في فيلم الزوجة الثانية ، وقد أوحوا اليه بأن يرد علي الاتهام بالاحتكار بأنه عملية جلب للخدمة وليست عملية احتكار ! لأن رسولنا الكريم يقول " الجالب مرزوق والمحتكر ملعون " .

لقد كنا منذ وعينا على الدنيا نشاهد المباريات بالمجان ولكن منذ عرفنا صالح كامل تغير الامر و أصبح " يجلب " لنا المباريات بفلوس ، وكنا نشاهد الأفلام المصرية بالمجان وبعد أن عرفناه صرنا ندفع لمشاهدة أفلامنا التي " جلبها " لنا ! فهل الخطوة القادمة هي احتكار ماء النيل والتعاقد مع نهبندر بحيرة فيكتوريا حيث ينبع النهر ، ثم تشفيره وبيعه للمصريين بفلوس في عملية " جلب حديدة مملووة بالخير والبركة ؟ !



في الكور

التقيت منذ سنوات أثناء إقامتي بكندا في إحدى الحفلات برجل أعمال مصري كان في زيارة عمل إلى مونتريال . حدثني عن حبه الشديد لمصر وهيامه بها وعدم قدرته علي الابتعاد عنها فترات طويلة، وقال انه يمتلك بيتاً كبيراً علي بحيرة ليمان بسويسرا ويستطيع بعد كل ما حقق في -بها المال والتجارة أن يتقاعد ويستريح خارج مصر، لكن المشكلة أن الحياة في الخارج علي روعتها خنقر إلى أشياء يراها أساسية بالنسبة له ولا تحلو الحياة إلا بها . سألته مثل ماذا؟ قال مثل مشهد عربة البطاطا والاطفال يتحلقون حولها في سعادة، أو منظر عربة الكشري وصاحبها يغسل لأضباق في الجردل والزبائن يلتهمون في شهية لا يمتلكها هو شخصياً، كذلك المشهد الجميل مسيدات والفتيات يغسلن الأواني علي شاطئ النهر أو صبي الفرز يقود الدراجة حاملاً عشرة صوابق من أقفاص العيش فوق رأسه دون أن يختل توازنه . أين يجد المرء خارج مصر أشياء كهذه؟ هكذا تسأل، قلت له: أراك لا تحن سوي لمشاهد بائسة تمتلئ فقرراً وقذارة وأحس كأنك تحشي علي هذا الوطن أن يتقدم وينهض فتضع عليك متعة الاستمتاع بالمشهد الفولكلوري لمصر في نفس أحوالها .

تذكرت هذا الرجل الاسبوع الماضي وأنا أجلس في فرح شعبي بحارة صغيرة في قلعة الكباش ندية لدعوة صديق قديم يزوج ابنته، وسرحت في مقدار المتعة التي فانت هذا الرجل وصورة معازيم يجلسون في مجموعات صغيرة . مجموعة تتداول الجوزة المغمسة بالحشيش ومجموعة مع صاروخ بانجو ما إن يحبو حتي يشتعل غيره والجميع يحتسون البيرة وما تيسر من الخمور الرديئة ماركة بولاناكي ٨٤ وزجاجات رأس العبد وسط الرقص والزغاريد . والعريس يتناول صواريخ لبانجو تحية من أصدقائه فيما تنظر اليه عروسه نظرات عاتبة لا تلبث أن تغيب مع نكتة فاحشة يتلقاها العروسان من أحد الأصدقاء بينما هذا الصديق يهز ردفه في رقصة مهووسة وسط تشجيع الجمهور، وبجواره أكثر من فتاة من فتيات الحارة تستعرضن مهارتهن في الرقص البلدي، ثم يطوف أحد الشباب_وكان فمه خالياً من أي أسنان_علي الجالسين ومعه زجاجة منادياً: حد عاوز يشرب كولونيل؟ معايا مشروب الكولونيل .

ملت علي مضيقي أسأله عن كنه مشروب الكولونيل هذا فأخبرني في خجل بأنه عبارة عن

سبرتو صريح ! . ثم اعتلت المسرح راقصة عجوز من الواضح أنها عادت من الاعتزال لأسباب قاهرة ، وسمعت من يقول بأن والد العريس أحضرها تخليص حق لأنها ساحبة من بقائه بضاعة شُكِّك ، وبدأت تمايل علي أنغام الاكوردوينيست المجهد وهو يعزف ويغني في أن أغنية شادية " إن راح منك يا عين " وبين شفثيه سيجارة مخدرات أصبحت رمادا ويأبى أن يبصقها وعيناه نصف مغلقة ، ويجواره الطبال منتعشاً وفي حالة نشاط لأنه - كما علمت - واخذ برشام مطحون لزوم الصهيلة . . وافتتح أحد الرجال باب النقوط وبدأ الصعود للمنصة ونثر السلامة والتحيات للجدعان والمنطقة والجزنجية ملوك الفوندي والنعل والسمكية عفاريت الصاج شياطين اللحم والتقاشين أساندة الفن التشكيلي . . واللي يحبنا ما يضربش نار ، وأبليت الراقصة بلاء حسناً بالقياس لظروفها الصحية وحصدت كمية لا بأس بها من الجنيئات .

ثم بدأت تسأل عن العشاء بصوت عال في الميكروفون فتعالت أصوات النسوة أصحاب الفرع : أنزلوها لتأكل . . تعالي يا ولية بلاش فضايح . نزلت الراقصة وصعد شاب حليق الرأس يرتدي ستر جلدية لا تسعفه قدماه ويكاد يهوي من شدة السكر وأمسك بالميكروفون ولا حظت تشجيعاً فوق المعتاد : قشظة عليك يا دكتور . . سألت من يكون ؟ أجابوني انه أحمد قوطة زينة المنطقة وفخر شبابها خريج قسم فلسفة منذ ١٠ سنين ، الأول علي دفعته ، يكتب الشعر وكان يحلم بالتعيين معيدا بالجامعة لكنهم تجاوزوه ، الأهالي يحبونه ويلقبونه بالدكتور ، لم يجد عملا حتي الان . . يلعب شطرنج بالقهوة معظم الوقت . . أمسك بالميكروفون وأخذ يغني خليط من كل شيء والفرقة تتبعه من لحن للحن وزجاجة البيرة في يده يعب منها ويواصل الغناء ، ثم توقف فجأة وقال للفرقة : سمعني سلام الدكتور أحمد نظيف . . وسلام لأخونا محمود محيي الدين وسلام لعمر أفندي وحسن بشندي وانت ودماعك في اليوستنندي ، سلام للريادة وسلام للبيادة وسلام لأزهي عصور السعادة ، سلام للطهارة وسلام للمطاهر ، سلام لأم مدحت وبرده أم طاهر . . ورقصني يا اسمك ايه ، وانطلق في وصلة رقص ثم توقف وقال : عارفين ماذا قال سقراط لأصحابه لما حاولوا يهربوه وينقذوه من حكم الموت اللي صدر ضده . . قال ايه يا دكتور ؟

وضع زجاجة البيرة جانبا واكتست ملامح وجهه جدية مفاجئة وبدا أنه يجاهد السكر البين كما يجاهد دموغاً ملأت عينيه وقال كأنه يقرأ من كتاب : رفض ان يهرب . . لأنه لم يقبل أن يخرج علي قوانين المدينة . . تلك التي عاش يعلم تلامذته أهسية احترامها ، ورأي أن موته يعتبر ثمنا رخيصا في سبيل صيانة القانون وتطبيقه علي الجميع حتي لو ظلمه . . فاهمين ؟ ثم تقلصت ملامح وجهه

وأخذ بيكي بصوت مسموع ، وامسك بزحاجة البيرة وكسرها ثم فاجأنا جميعا وأخذ يشرط رأسه
خوفا الزحاجة الجارحة فتفجر الدم وسال من رأسه فأغرق وجهه بين دهشنا وصرخات النساء
حيثما أخذ يقول : دأمش دم ما تخافوش . . انا كويس . . المهم قوانين المدينة . . فاهمين . . قوانين
مدينة . .

بعد أن غادرت المكان وركبت سيارتي كانت الرؤية غائمة أمامي لأنني كنت أنظر للطريق من
خلال دموعي . . لبت رجل الأعمال الذي يحب الصور الشعبية كان معنا الليلة ، إذا لأمع نفسه
سهرة أوريجينال مليئة بالفقرات والنمر الفولكلورية التي تجعله يحب الوطن ويستبعد الهجرة
دائمة مهما قسا عليه هذا الوطن ومهما عكر مزاجه بالإلحاح في طلب تسديد الديون التي اقترضت
من بلده الحبيب مصر .

عباء.. وقتلة!

شكت زوجتي من ألم يديها، فذهبت بها إلى طبيب عظام أعطاها مسكناً. فلما استمر الألم برزت حدته صحبتها إلى أستاذ كبير طلب إجراء تحاليل لكونه يشك في أن الحالة هي روماتويد. جاءت نتيجة المعمل نافية لهذا الاحتمال فطلب مني الطبيب لكي تقطع الشك باليقين أن أجري لها تحليل نفسه في معمل آخر. وكانت المفاجأة أن النتيجة إيجابية بما يعني وجود المرض. احتار غضب وطلب مني حسم الأمر من خلال معمل ثالث شهير تسد إعلاناته الأفق. كل هذا والألام تتوقف. جاءت النتيجة سلبية، ومع هذا لم أستطع أن أشعر بالفرحة، فأخذتها من تلقاء نفسي إلى معمل رابع يشار إليه بالبنان، ودفعني النتيجة لمزيد من الحيرة حيث أكدت الإصابة بالروماتويد!

أصبحت مرتبكاً وعاجزاً عن الفهم وأدركت أن نصف المعامل في مصر ستؤكد ما ينفيه النصف الآخر وكأن الأمر يتعلق بالرأي في رواية أو قصيدة شعر! نصحني العارفون أن أذهب لأستاذ كبير في الأمراض الروماتيزمية اسمه سمارة أو خيارة علي ما أتذكر، عبادته في وسط البلد. من علي الباب أخذنا رجاله مباشرة إلى المعمل الملحق بالعيادة وأجروا لها تحاليل عديدة دفعت فيها نف وخسمائة جنيه قبل لقاء الطبيب.

طاف بخيالي أن بعض الأطباء يرسلونك إلى معمل التحليل ثم يأخذون عمولتهم آخر الليل، ولكن هذا الرجل لا يريد من أحد أن يشاركه نهشي! عندما أتى دورنا ودخلنا للأستاذ وجدت صورته تطابق الصورة التي أحملها في مخيلتي للديب السحلاوي!

تكرم الرجل فمنحننا من وقته الثمين زهاء ساعة. أه والله، قام خلالها بسرده سيرته الذاتية وقص علينا أجزاء من حياته المليئة بالنجاح وكيف أن عدد مرضاه لو وقفوا طابوراً لوصل إلى أسوان. سألته: وهل لو رصصتهم فوق بعض ووقفت بجذائك فوقهم.. هل تستطيع أن تري زيمبابوي كما حكمت فيني عبده في وصف مقدار ثروتها؟ تفاجأ الرجل بسؤالي وأنهى اللقاء بعد أن وصف أدوية تفيده هو شخصياً وتفيد الصيدلاني وشركة الأدوية ولا تفيد زوجتي.

ولأن المريض وأهله يكونون في أضعف أحوالهم، وجدتني علي استعداد لسماع أي نصيحة.

أوصاني العارفون أيضاً بأن أذهب للدكتور بسيوني صاحب الإسم الفخم والعيادة الأكثر فخامة أخذتها وهي في حالة يرثي لها وهناك استقبلني رجل له وجه قط وقال: الدكتور سيراها بعد . . نجري لها مجموعة من التحاليل الأولية. قلت له لقد قمنا بكل التحاليل اللازمة وغير اللازمة ومعمر كل النتائج.

قال: نحن لا نثق بالمعامل الأخرى . . سنجري لها التحاليل هنا في معملنا. لا بأس . . هم أيضاً سيقضمون جزءاً من لحمي، لقد أصبحت مستباحاً ولو طلبوا مني عجين الفلاحة لعجنت صاغراً. دفعت ألفين من الجنيهات إتاوة لصاحب العيادة حتي يتفضل برؤيتنا. عندما دخل استعدت بالله من سحته الكئيبة وتكثيره وطريقته المتعجرفة في إنهاء الحديث، حتي انني قلت له: يا دكتور أنا أكثر تعجلاً في الخروج من هنا لكن رغبتني في علاج هذه المسكينة تغلب رغبتني في الفرار من أمامك!

نظر لي بقرق وقال إن الحالة واضحة حتي من غير تحاليل، هو روماتويد مؤكد وسألني: هل تستطيع تحمل علاج مكلف؟ قلت له: وماذا لو لم أستطع؟ قال: مطلوب حقن في اليوم من نوع معروف باسم حقن السذهب وذلك لسعره الغالي ومفعوله الأكيد وهي غير موجودة بمصر، قد تجدها في الأجزخانة الشهيرة بمصر الجديدة أو فليات بها أحد من السعودية، واستطرد: أما في حالة عدم استطاعتك فلا أظنك راغب في معرفة ما سيحدث!

في ذلك الوقت كان مرتبي يكفي لشراء حقنة ونصف فقط، ومن هنا فقد أنفقت كل مدخراتي القليلة ثمناً لبضعة حقن، ثم استدرت إلى أبي رحمه الله ثم اخوتي فأصدقائي علي التابع حيث قمت بتجريفهم وأخذت كل ما يملكون وأنا أعرف أن اليوم الذي أعجز فيه عن تدبير الحقن قد اقترب بشدة. ومع كل هذه الديون والخراب النفسي والعصبي الذي حاق بي . . لم تكن الحالة تتقدم ولم تكن الآلام تتوقف. حتي كان يوم التقيت فيه بأحد الأصدقاء الذي حكى لي تجربة مشابهة لمرض زوجته وطلب مني أن أسأل الطبيب سؤالاً محدداً وهو: ألا تظن يا دكتور أن الذي تعاني منه زوجتي هو مرض الذئبة الحمراء واسمه بالانجليزية **Systemic lopus** وليس روماتويد الذي تأخذ علاجاً له منذ شهور دون فائدة؟

وقد فعلت فقال لي الطبيب: لا أعتقد ولكن دعنا نجري هذا التحليل حتي يطمئن قلبك. عملت التحليل خارج عيادته، فماذا كانت النتيجة؟ النتيجة هي إصابتها بمرض الذئبة الحمراء

والحالة متفاقمة ، والنتيجة أنها تأخذ علاجاً خاطئاً وتتعذب علي يد أطباء جهلة منذ عدة شهور ، والنتيجة أنني تسولت من طوب الأرض حتي أعالجها . عدت إلى الطبيب الجهول بنتيجة التحليل فنظر بلا مبالاة وقال : كنت أعرف هذه النتيجة ، وهذه الأمراض علي أي حال متشابهة وعلاجها واحد تقريباً ، والآن سأكتب لك دواءً جديد . ما زلت أسترجع بكل الأسى ذكرى هذا اليوم الذي نجرت فيه في الطبيب المجرم وكدت أفتك به لولا أن أدركه الرجل القط وبقية صبيانه وشركانه في جرائمه .

بعد يومين كانت عجرفته وإهماله وجهله قد عملوا مفعولهم في جسد زوجتي فاستسلم للشلل نسام في الذراعين والقدمين والفم بعد أن أصيب النخاع الشوكي كجزء من تداعيات المرض الذي تأخر علاجه طويلاً فعجزت تماماً عن الحركة والكلام .

وبدأنا رحلة جديدة مليئة بالتوحش والحسرة والإنحطاط المهني والنفسي من جانب من كنا نرتجي عونهم علي البلاء . . والحدوتة لم تنته !

بيع بأسلوب الصدمة والترويع

مارست الحكومة بهمة ملحوظة في الآونة الأخيرة سياسة الصدمة والترويع مع الشعب مصري، وهي نفس سياسة قوات الاحتلال الأمريكي في العراق. أعلنت بغتة عن قرارها النهائي بيع بنك القاهرة فأحدثت صدمة كبيرة في الشارع المصري، وفي نفس التوقيت قامت قوات شرطة حكومة بإلقاء مواطن في العمرانية من شرفة شقته، وأغرقت مواطناً آخر بالسبرتو وأضرمت فيه نيران فشوته حياً في سيوة، وقتلت بعنف بالغ نجاراً في قرية قرب المنصورة، فاكتملت منظومة صدمة والترويع، وانكمش المواطن المصري علي ذاته يلحق جراحه التي لا تلتئم أبداً.

إن سياسة بيع ممتلكات الشعب المصري مع إلقاء المواطنين أصحاب هذه الممتلكات من البلكونة هي أحدث تجليات الفكر الجديد. ومن الواضح أن هذه السياسة تمضي بنجاح وبدون مقاومة نذكر. لا يفوتنا بالطبع أن نشكر السادة الذين أعلنوا حركة " لالبيع مصر " ونحيي وطنيتهم وجهدهم المخلص، وأن نشكر نقابة المحامين التي قامت بفتح حساب من أجل الإكتتاب لشراء بنك القاهرة عند فتح باب الشراء، ولكن هل هذا مجدي؟ هل هناك مواطن مصري سيمضي بأمواله التي يعيش منها ويضعها في حساب نقابة المحامين حتي يكتمل المبلغ ١٥ مليار جنيه فيمكن عندئذ التقدم لشراء البنك؟ هذا إجراء تملأه النيات الطيبة لكن يعيبه أن أعضاء مجلس النقابة ذاتهم لن يضعوا أموالهم في هذا الحساب!

وإذا لم نحسن في شراء بنك القاهرة من برائن الحكومة فماذا سنفعل غدا عندما يعتزمون بيع البنك الأهلي وبنك مصر وقناة السويس؟ الحكومة ماضية في البيع مهما حدث ويساعدها في تنفيذ المخطط أن المواطن لم يشعر أبداً أن بنك القاهرة أو أي مؤسسة يراد بيعها أنها كانت له أو كانت تعمل في خدمته ولم يشعر أبداً أنه استفاد منها. كل ما يعرفه المصري عن بنك القاهرة هو خدماته المصرفية الرديئة وكسل وتنبلة موظفيه، فضلاً عما يسمعون عن نهب الكبار لفلوس البنك وتواطؤ إداراته المتعاقبة مع اللصوص، لم يعرف المصريون عن بنوكهم في ربع القرن الماضي أنها قامت بتمويل مشاريع صناعية تقوم بتشغيل عمالة كثيفة وتفتح أبواب الخير للناس، كما لم يعرف عنها تبنيها لمشروعات زراعية تضيف للناتج القومي، كل ما يعرفه أن هذه البنوك في أيد غير أمينة، وهو الوضع الذي لا يمكن أن يجد من يدافع عنه، هذا هو السبب الحقيقي الذي يجعل محاولات الساعين لوقف البيع بمثابة حرث في الماء..

المصريون لا يعتقدون أن هذه المؤسسات تخصهم ولهذا لا يفرق معهم أن يشتريها الأجانب . هم يعلمون أن الأجنبي إذا ما اشترى البنوك سيقوم بتمويل شراء السيارات وتدوير الفلوس في مشاريع سريعة العائد ولا تفيد الوطن ، ولكن أليس هذا هو عين ما تفعله الإدارات الحالية التي تمول مصانع البسكويت واللبن وشركات المحمول التي تقوم بتطوير الرنات وتمنح فلوس المودعين قروضاً لمن تعلم أنه لن يقوم بالسداد . . هل سمعتم عن لص واحد استطاع الضحك علي بنك ادارته أجنبية؟ المصريون من يأسهم قد باتوا يعتقدون أن الإحتلال الأجنبي قد يكون أحر عليهم من احتلال الممالك بجهلهم وشراستهم وطبعهم المجهول علي الفساد .

هذه هي المعضلة التي تواجه الساعين إلى وقف عجلة الإنحدار . المؤسسات العامة أصبحت خرائب بفعل التخطيط الشيطاني ، لهذا لن تجد من يدافع عنها . بنك القاهرة سيتم بيعه وبعد: البنك الأهلي وبنك مصر وقناة السويس والمسألة أصبحت مسألة وقت ، وطبعاً عمليات البيع لن تتمتع بأي شفافية ، وفلوس البيع لن نعلم أين ذهبت . وطالما أن هناك ما يمكن بيعه فإن الحكومة التي تستشعر حجم الجرم الذي تقوم به وحجم الجناية التي تجنيها علي الأجيال القادمة وخوفها من الناس الذين تسرقهم سيجعلها تسرف في إرعابهم وترويعهم وتستمر في إقائهم من البلكونات وجلدهم بالسياط وحرقتهم بالسبرتو .

لقد أصيب الناس بالملل والزهو والإعياء وأصبحوا يتعجلون الوصول لنهاية الفيلم . إنني شخصياً أنتظر اليوم التالي بعد أن تباع الحكومة كل المصانع وكل الشركات والمؤسسات والبنوك وأبار البترول القائمة والمحتملة والأراضي الزراعية والصحراوية والساحلية . . . فعسى أن تستريح الحكومة وأجهزتها الأمنية عندما لا تجد شيئاً يصلح للبيع وتترك الناس في حالهم وترحل . . وصدقوني لقد أصبحت لا أري طريقاً للتغيير غير هذا ، ألا يعود بمصر ما يغريهم بالبقاء . . وعندها يمكننا أن نبدأ من الصفر مع حكومة وطنية منتخبة ويمكن ساعتها أن تمول المشاريع الجادة من خلال تحصيل الضرائب ومن خلال الاقتراض من البنوك أيا كانت ملتها ، ويمكن كذلك إنشاء بنوك وطنية من جديد واجتذاب ودائع المصريين إليها ، فما دمنا قد وصلنا إلى هذه الدرجة من الضعف والتهافت واليأس من التغيير ، وأصبح أعلي ما في خيلنا أن نفتتح حساب في البنك للإكتتاب من أجل شراء بنك القاهرة ونحن نعلم أن أحداً لن يضع فيه مليم . . فدعوهم يبيعون بسرعة عسى أن يتوقف التعذيب وتنتهي سياسة الصدمة والترويع .

نورة الأندال والخونة!

في روايته البديعة القاهرة الجديدة صاغ الأديب نجيب محفوظ شخصية محبوب عبد الدايم استاذية واقتدار . ثم صارت الرواية فيلماً سينمائياً باسم القاهرة ٣٠ علي يد المخرج صلاح أبو سيف ، وقد جسّد الفنان حمدي أحمد شخصية بطل الرواية الذي دفعه الفقر إلى أن يبيع شرفه لمن يدفع الثمن .

بعد ذلك صار اسم محبوب عبد الدايم مضرراً للأمثال ، وأخذ الناس يطلقونه علي من يصادفونهم في الحياة ممن يتسمون بانعدام النخوة والاستعداد للتضحية بالاخلاق والمبادئ في سبيل لعيش وارتقاء سلم المجتمع الفاسد .

غير أنني عندما أفكر في نهاية الرواية حين انهيار البطل وتهدمت دنياه بعد افتضاح أمره ومعرفة باه أن الإبن المحترم ليس سوي قواد رخيص يبيع لحم امرأته للباشا الكبير . . أفكر في أن هذه النهاية المنطقية ربما ترجع إلى أن فترة الثلاثينيات من القرن الماضي علي كل ما بها من فقر كانت لا تزال تتسم بقدر من الاحساس بالعار عند حضور أسبابه ، وهو الأمر الذي أتصور أنه قد انتفي من حياتنا اليوم أو كاد ، وهذا الفارق قد يفيد هواة عقد المقارنات بين مصر الملكية ومصر اليوم .

فارق آخر أساسي يمكن أن نلمحه هو أن محبوب عبد الدايم وسالم " ابن العجّانة " وكل أشباههم من الراغبين في بيع أنفسهم كان بإمكانهم أن يجدوا أثرياء فاسدين مستعدين للشراء ، وكان ضيق العيش في ذلك الزمان يطحن فقط أولئك الذين يصرون علي أن تكون لقمتهم شريفة ، لكن المستعدين للبيع كانوا مع بعض الصبر دائماً ما يجدون المشتري . أما اليوم فإن هناك معاناة من نوع عجيب قد يكون مضحكاً وداعياً في الوقت نفسه للبكاء . . تلك هي معاناة أولئك الذين حسموأ أمرهم وقرروا أن يتخلوا عن الأخلاق والشرف والكرامة وأن يبيع المرء منهم أمه وأباه وزوجته ، غير أن ضيق المجال ووفرة المعروض من الأندال يجعلهم يتطاحنون علي اللقمة الحبيثة وقد يقتل بعضهم بعضاً في خناقة علي توريد امرأة لرجل أقام مناقصة للحصول علي الأقل سعراً والأعلى جودة!

و يكفي للإستدلال علي مأساوية الحالة أن يقوم أي أحد ولو علي سبيل الاختبار بطلب شهود

زور قد تلقى شهادتهم ببريء في السجن مقابل مائة جنيه للفرد ، وأنا متأكد أن النتيجة ستكون مروعة من حيث عدد المتقدمين ونوعياتهم ومؤهلاتهم !

هذه هي المشكلة الآن . عدد المستعدين للتفريط أصبح ضخماً للغاية ، لكن أفق الخيانة مسدود أو يكاد في وجه المستجدين ، والمجال الحيوي للنذالة صار ضيقاً للغاية ، حيث أن عدد الكفلاء الطالبون للخدمات البشعة وغير المعقولة ، المستعدون لإيواء واستخدام هؤلاء لا يفي باستيعاب الأعداد الوافدة يومياً تطلب العضوية العاملة في نادي الأندال !

أنا لا أنكر أن الحكومة تقوم بمحاولات علي قدر عزم رجالها لضمان لقمة العيش الشريفة للمواطنين ، لكنني لا أستطيع أن أتجاهل أن جهود الحكومة في هذا الشأن تقصر عن بلوغ المراد ، وأن جل ما أمكنها تقديمه في الفترة الأخيرة هو صفقة المائة وعشرون ألف خادمة اللاتي سيشتدن الرحال إلى دولة شقيقة عرفت بحب مصر وتكريم العمالة المصرية . لكن حتي إذا قامت الحكومة بعمل معجزة واستطاعت من خلال وزن مصر ودورها الاقليمي ورصيدها الحضاري في المنطقة أن تصل إلى اتفاق لتشغيل مليون أو ٢ مليون خادمة ، علاوة علي مليون أو ٢ مليون كناس ، ي بحيث لا يخلو بيت أو شارع خليجي من نفحات مصر واشراقها علي محيطها العربي ، فإن هذا في النهاية لن يكون كافياً لأن هناك الملايين غيرهم سيقفون بلا عمل ، كما أن حاجز اللغة سيظل عائقاً عن الوصول لاتفاقات مائة مع دول الاتحاد الاوربي ودول الكونكاكاف .

ولأني أري أن حكومتنا مثل كل حكومات الدنيا هي حكومة كل المواطنين ، الشرفاء منهم والأندال (خصوصاً أن الأندال يملكون بطاقات انتخابية) ، فإنني لا أخرج من الدعوة إلى أن تنهض الحكومة بدورها كاملاً في خدمة مواطنيها ، وكما تفكر في توفير لقمة عيش شريفة للشرفاء عن طريق توظيفهم في مشروعاتها ومناشدة أصدقائها المستثمرين القيام بدور في تشغيل العاطلين ، و إبرام اتفاقات تشغيل مع الدول المحبة للمصريين . عليها أيضاً أن تجد حلاً لفئة كبيرة من المواطنين ممن صاروا يقبلون الفساد ولا يمانعون في أكل العيش من أي طريق . . وأنا لا أعرف علي وجه الدقة كيف يمكن أن يتم هذا ، لكنني أتصور أن ضخم مزيد من الفساد في السوق قد يعمل علي توسيع قاعدة الفاسدين الذين بدورهم سيحتاجون لخدمات الفقراء المستعدين للبيع ، فيعم الخير علي الجميع وننقذ السلام الاجتماعي المعرض للإنهيار !

هذا أو علينا أن نتوقع انفجاراً قريباً لن يبقى ولن يذر بعد أن يتجمع الأندال الجدد الذين

سنتهم الحكومة بقسوتها وإهمالها ثم تخلت عنهم دون الاستفادة من نذاتهم، ويقومون بتنظيم صفوفهم مطالبين بحقوقهم في القيام بالأعمال القذرة، وقد يأخذ ثمردهم أشكالاً جديدة تختلف عن احتجاجات الطلبة والعمال الشرفاء وتتسم بالغدر والضرب تحت الحزام وابتداع فنون من الأذى سيوطن تليق بالأنذال والخونة الذين سُدَّت في وجوههم حتي سبل الخيانة!

عصر في الهولو كوست

ليست هناك كلمات تكفي لثناء شهداءنا الذين احترقوا حتي الموت في قصر ثقافة بني سويف .
كان من الممكن أن يكونوا وسط عائلاتهم اليوم لو لم يكونوا مصريين . . ذنبهم الأكبر الذي بسببه
حترقوا أنهم عاشوا بيننا في هذه الخرابة المسماة وطن ، يدعون وينشرون الفن والنبل والأصالة .

لقد أصبحت مصر مكانا مخوفاً بالمخاطر للعيش فيه ، يمكن للمرء هنا أن يموت لأسباب لا
تحدث في أي مكان في العالم ، أسلاك الكهرباء العارية في الشوارع والأماكن العامة تصعق من يمر
بها كل يوم ، حوادث الطرق تريق دماء المصريين علي الأسفلت ، القطارات تتصادم أو تحترق ،
كأننا لا تكفينا سرطانات يوسف والي . هل هناك غير مصر بلد يموت الناس فيه بالسقوط في
البالوعات ؟ وهل هناك غير مصر بلد تسقط فيه العمارات الحديثة علي رؤس السكان بدون إنذار ؟

لا أحد بمأمن في مصر ، لا أحد آمن سوي الذين نشروا الخراب ، فئة قليلة جداً من الناس هم
الذين لا يمكن أن يحترقوا ، الحكام فقط هم الذين لم نسمع أبداً أن أحداً منهم لقي مصرعه حرقاً أو
سقط في البووعة مفتوحة ومات بأسفكسيا الخنق أو أصيب بالتسمم أو لقي مصرعه دهساً تحت
عجلات سيارة بلا فرامل . أنابيب البوتاجاز لا تنفجر بمنزلهم علي الإطلاق ، جمال حمدان . . هل
تعرفونه ؟

مات محترقاً داخل شقته . الذين يمنحون مصر قيمة يحترقون ، أما الذين ينتقصون من قيمة مصر
لا تسمهم النار . . الماس الكهربائي لا يعرف طريقه إلى منتجعاتهم أبداً ، إنهم يفتدون أنفسهم بمصر
كلها ، يؤمنون أنفسهم ويتركون الناس تنضور من الإحتياج إلى الأمان واقتتاد الحماية ، ميزانية
البلد وناجها القومي مخصص لرفاهية وحماية بضعة الاف قليلة من البشر في هذا البلد ، وعشرات
الملايين من المصريين لا يتمتعون بالأمن في بيوتهم لأن العسكر كلهم في التشريفة ، وكم تستغرق
هذه التشريفة ؟ ٢٤ ساعة في اليوم . . طوال السنة ، أي تستغرق العمر كله . أمس ساعدني رجل
المرور علي الركن في المنوع ، كنت متردداً . هو الذي طمأنني وقال لي : " ما تخافش أنا واقف "
ففنحته جنيهاً . لا أدري ماذا يفعل المسكين إذا انضبط الناس وكتفوا عن المخالفات . . إنه في
الحرقة أيضاً ولقمة عيشه مرتبطة باستمرار الخراب ، مثله مثل المدرس الذي يُعد أسوأ كوابيسه أن
يجد تلاميذه شُطّار لا يحتاجون لدروسه الخصوصية ، فيبذل أقصى ما في وسعه للإبقاء عليهم . .
بهائم !

تساءل السيدة المكلومة المتشحة بالسواد أثناء جنازة شهداء المسرح : هؤلاء المسؤولون عن الجريمة الذين تركوا أجمل الناس يحترقون ويتفحمون . . ألا يخشون الله؟ . . آسف يا سيدتي لأنني ضحكت رغماً عني من سؤالك . . إنهم يا سيدتي لا يعرفون عن الله سوي انه مادة طيبة يمكن استخدامها في الانتخابات لتخويف الناس من عدم التصويت لمرشح الحزب الوطني ، كما يمكن استخدامها لحث الناس علي طاعتهم باعتبار هذه الطاعة أمراً إلهياً! هل نسيتم موقف شيخ الأزهر والبابا شنودة بعد أن أصبحا يهتديان بتعاليم كمال الشاذلي والسيد راشد .

في العزاء تكرر السؤال بصورة أخرى . . وقف أحد الطلبة رافعاً لافتة موجهة للمسؤولين عن الكارثة مكتوب عليها : هل أنتم مصريون مثلنا؟ يا أخي . . إن المتحكمين في مصر حالياً ليسوا مصريين . . بجد ليسوا مصريين ، ليس فقط لأنهم يحملون جنسيات أخرى ولكن لأنهم بطبيعتهم ومصالحهم عولميون ينتمون إلى الكوكب كله ، رغم أنهم لا يجلبون سوي جزءاً بسيطاً وعيباً من الكوكب اسمه مصر .

و الذين يلومون مصطفى علوي باعتباره صاحب المحرقة لا يراعون ظروف الرجل . . يا ناس إنه مشغول بمستقبله السياسي في لجنة السياسات ولا يشغله قصر ثقافة بني سويف أو غيره ، لا أبالغ إذا تصورت أنه يحتقر كل قصور الثقافة وينظر بتقزز إلى الفنانين وعروضهم المزعجة ولا يري في الموضوع كله أي فائدة سوي أنه خطوة علي الطريق ليصبح وزيراً مثل سلفه أنس الفتحي ولو كره الوزير الفنان .

و بمناسبة الوزير الفنان الذي أدخل المثقفين الي " الزريبة " أو الحظيرة بنص تعبيره ، فقد قام مثقفو الحظيرة بإرسال بيان ناشدوا فيه فاروق حسني البقاء وناشدوا الرئيس مبارك عدم قبول الإستقالة . . أضحكني البيان جداً لأنه ذكرني بلافتة شديدة العبقرية في سفالتها علقها أحد المشتاقين الظرفاء في بورسعيد أثناء انتخابات الرئاسة . . كتبها باللغة الإنجليزية كالتالي :

Some more hosny please

بيان المثقفين يشبهها تماماً من حيث هو موجه إلى حسني الرئيس من أجل حسني الوزير والترجمة : " شوية كمان يا حسني عشان خاطري " .

إن مصر قد قطعت شوطاً كبيراً علي طريق الجنون ، فالمحرقة اليومية غيرت التركيبة الكيميائية للعقل المصري ، وأخشي أنه في وقت ليس ببعيد ستتحول كيمياء الدماغ لدي ملايين المصريين في

نجاه التوحش المنفلت فيضرمون النار في كل شئ حتي أنفسهم .

كلمة أخيرة :

قال أمل دنقل في " أغنية الكعكة الحجرية " :

في الدرجات الأخيرة من سلم المقصلة

أتحسس وجهك

هل أنت طففتي المستحيلة أم أمي الأرملة؟

زمن الموت لا ينتهي يا ابنتي الثاكلة

قبليني . . ولا تدمعي !

سحب الدمع تحجبني عن عيونك . .

في هذه اللحظة المثقلة

كثرت بيننا السُّرَّ الفاصلة

لا تضيفي إليها ستاراً جديداً !

عسرية يصدر عنها فحيد!

البند الأول:

القبض علي أحمد عبد الفتاح مستشار السيد يوسف والي وزير الزراعة متهماً بتقاضى رشوة قدرها مليونين من الجنيهات من صاحب مزارع الريف الأوربي .

كان أحمد عبد الفتاح يعرقل مصالح الرجل ويعوق تسليمه الأرض المتفق عليها بينه وبين لوزارة والتي يقوم بتأهيلها وجعلها صالحة للزراعة ، ثم يطرحها للبيع للجمهور . وقد لاحظ جميع الفارق الشاسع بين سعر بيع وزارة الزراعة للفدان لصاحب مزارع الريف الأوربي (مائتا جنيه للفدان) وبين بيع الرجل لنفس الفدان بعد استصلاحه (ستون ألف جنيه) . . هذا الفارق نوحشي ربما هو الذي دفع أحمد عبد الفتاح لمحاولة الدخول علي الخط والحصول علي نصيبه من نهبرة التي تثير غدد الإجرام في الإنسان وتدفعها للإفراز بقوة!

و علي الرغم من أن صاحب المزارع قد حاول تبرير السعر الغالي الذي يبيع به للجمهور بأن استصلاح الفدان يتكلف الكثير ، فإن الناس لم تصدق هذا الكلام ، وأحمد عبد الفتاح لم يصدق هذا الكلام واعتقد أن الرجل يريد أن يلهط وحده ، فأراد أن يأخذ " كادر في الأولو " إلى جواره ، فطلب الرشوة وتم القبض عليه وحوكم وصدر ضده حكم بالسجن عشر سنوات .

البند الثاني:

أحمد عبد الفتاح في السجن يجتر أحزانه ومراراته ، تنهشه الوحدة يوماً بعد يوم ويأكله الغيظ والإحساس بالظلم ، ليس لأنه بريئاً لا سمح الله ، بل لأن أساتذته ومعلميه أصحاب براءات الاختراع لكل ما عرفه من فنون وما مارسه من إبداعات يرفلون في النعيم خارج السجن وقد ارتكبوا من الجرائم ما يفوق ما ارتكبه مئات المرات ، هو وحده الذي دخل السجن ، هو وحده الذي تم التشهير به وبأسرته ، وصودرت أمواله ولاكت الألسن سمعته . . تتداعي إلى ذهنه صور العمليات التي قام بها طواعية وتلك التي كُلف بها ، ويشعر بأنه لا يستحق هذا المصير وحده ، وبأن العدل كان يقتضي أن يحاوره علي البرش آخرون ممن أكلوا لحم مصر ومصمصوا عظامها ونكلوا بأهلها وعاثوا في الأرض إجراماً وإفساداً وإثراءً من الحرام ، وقد كان أقلهم نوحشاً وأهونهم شأنًا .

المشهد الثالث:

أحمد عبد الفتاح يكتب بخط يده اعترافاً بمزيد من الجرائم التي ارتكبها، والتي لم يعاقبه عليها القانون لأنها لم تُكتشف، ويدفع به إلى محاميه الأستاذ أمير سالم الذي يتقدم للنائب العام طالباً فتح التحقيق فيما ورد في اعتراف موكله. الاعتراف الذي كتبه عبد الفتاح خطير للغاية يتهم فيه أسماء كبيرة بأمور لا يتصورها عقل . . وكيف يتصورها العقل وهو يتهم اثنين يصعب في الظروف الطبيعية أن تعلق بمن كان في منصبيهما شائبة أياً تكون، الأول هو هتلر طنطاوي رئيس الرقابة الإدارية السابق، والثاني هو عادل عبد السلام جمعة . . القاضي الشهير أحمد عبد الفتاح يتهم نفسه بتقديم رشوة للقاضي الذي تم اختياره لمحاكمة صحفيي جريدة الشعب مجدي حسين وصلاح بديوي وعصام حنفي علاوة علي عادل حسين، ويكتب عبد الفتاح في اعترافه أن الرشوة كنت مقابل أن يصدر القاضي حكماً في القضية ينتقم به للسيد يوسف والي من خصومه الذين فضحوه. لا يكفي أحمد عبد الفتاح باتهام القاضي الذي حكم بالسجن علي كل خصوم الحكومة الذين وقفوا أمامه مثل صحفيي الشعب السالف ذكرهم، إضافة إلى سعد الدين إبراهيم وأمين نور والصحفي أحمد عز الدين وغيرهم، وإنما يضيف إلى لائحة اتهامه رئيس الرقابة الإدارية السابق هتلر طنطاوي، فيقول بأن الأخير هدده بفضح العلاقة بينه وبين القاضي جمعة وأن شرائط تسجيل في حوزته تسجل جريمتيهما بالصوت والصورة، ويضيف عبد الفتاح بأن طنطاوي طلب مبلغ ٩٠ ألف جنيه مقابل سكوته، مما اضطره للذهاب إلى منزل القاضي واستلام مبلغ الرشوة وتسليمه لطنطاوي.

المشهد الرابع:

اللواء هتلر طنطاوي يتوجه إلى النائب العام طالباً بنفسه التحقيق في الإتهامات التي ساقها السجين أحمد عبد الفتاح إبراء لذمته وصوناً لسمعته التي لا يقبل أن تعلق بها شائبة وهو الرجل الشريف الذي اشتغل بمحاربة الفساد. كذلك المستشار عادل عبد السلام جمعة لا يحتمل أن يتم اتهامه بالرشوة بعد هذا العمر في خدمة العدالة، فيذهب للنائب العام طالباً إجلاء الحقيقة من أجل سمعته وهو القاضي النزيه.

ملحوظة: المشهد الرابع لست متأكداً تماماً من أن أحداثه جرت بالفعل، لكنني غامرت بكتابته لإدراكي أنها سوف تحدث لا محالة، وقد راهنت أحد أصدقائي علي ذلك بمبلغ كبير، وأريد أن أحصل علي المبلغ، ولكن بدون وساطة أحمد عبد الفتاح.

التجربة التي تذيب الجلاهد

لقد ألمني أشد الألم ما حدث مع التلميذة آلاء مما تناولته الصحف طوال الأسبوع الماضي .
وسبب الألم أن الأمر مثل عندي ارتفاعا كبيرا في منحنى كنت أظنه يرتفع بسرعة أقل ، ذلك هو
منحنى الإحساس بالجوع أو الرعب منه .

هل يظن أحد أن المدرس الذي كانت ورقة آلاء من نصيبه هو رجل يشعر بالأمان ويطمئن إلى
أن ثلاجته بالمنزل ستظل ملأى بالأطعمة التي تكفيه وتكفي أسرته ما دام يؤدي عمله باحترام في
وطن طبيعي يحفظ للبشر إنسانيتهم؟ هذا الرجل بالتأكيد تسكنه المخاوف و ينهشه الشك في أن هذا
لوطن يحفظ للناس حقوقا أو لقمة عيش كريمة ، ولا أعتقد بحق أن ما كتبه التلميذة آلاء في
موضوع التعبير قد أزعجه أو ساء فعلا . فهو لا شك في داخله يتفق مع البنت في سفالة سلوك
لرئيس الامريكى الذي قتل مئات آلاف الأطفال العراقيين ، وبالتأكيد يتفق معها في أن التعبير لا
يمكن أن يتحقق علي يد حكومة تمضي بهمة نحو تخريب ما هو قائم ولا يخطر ببالها أي تعمیر !

فما الذي دفعه إذا بدلا من أن يمنحها الدرجة التي تستحقها طبقا لسؤ تعبيرها عن أفكارها
أوجودته (وليس فحوي هذه الأفكار) فيقوم سيادته بالجري نحو رئيس الكنترول يزف اليه خبر
العثور علي جريمة في ورقة الأسئلة؟

السبب في تقديري أن الجوع يضغط علي أحشائه بشدة فيفقده صوابه في وقت يعلم فيه أن
التجويد في المهنة وتحصيل مزيد من العلم والقيام بالتدريس بضمير يقط لن تحمل إلى صحونه أي
طعام إضافي ، بالعكس . . قد تقلص ما يحصل عليه بالفعل وهو قليل بطبعه ، لأن زملاءه ورؤساءه
لن يسمحوا له بأن يجرهم بأي أداء متميز أو حتي عادي !

و لا شك أن الرجل يلاحظ كما نلاحظ جميعا أن تناسبا طرديا يحدث في المجتمع بين " السفالة "
التي تحدثت عنها آلاء وبين ارتقاء المناصب واعتلاء الكراسي الجالبة للطعام الفاخر ، ويرى كما
نرى أن الوشاة قد أصبحت لهم اليد الطولي في هذا الوطن فأصبحوا رؤساء جامعات ومحافظون
ورؤساء تحرير ووزراء أيضا ، وأن الوشاية صارت هي الباب الملكي لعبور خط الفقر وولوج دنيا
الأطياب . وربما لهذا فقد تصور المسكين أنه بوشايته قد يشق طريقه لفوق ويرضي الأسياد الذين لا

يرضيهم الطيب من الأعمال ، فقرر أن يدمر مستقبل الطفلة العنيدة التي لم تتأثر بتدريسه هو وزملاءه ولم تتعلم منهم الخور والوهن وحب قاتلينا .

إن قصة ألاء مع مدرسيها هي قصة الموظف العمومي في بر مصر مع الجوع والحرمان ، وهي نتيجة طبيعية لسياسة تجويع الموظفين من أجل اغتيال ضمائرهم . لقد حذر أساتذة فضلاء كثيرون من خطورة تجويع الموظف العمومي وسحب ثوب الستر من فوق جسمه ، وبينوا أن المسألة هي مسألة حياة أو موت وقضية أمن قومي ، وما نحن نري ما حل بالوطن الذي أصبح خرابة نتيجة أن الموظف العمومي يتقاضى راتبا رمزيا لا يكفيه . ان أي بلد يحكمه أناس راشدون يدرك بالتأكيد كارثة أن يجوع المهندس أو رجل الشرطة أو المدرس أو القاضي ، ويدرك أن الموظف الذي يمتلك ختم النسر لا يصح أن نتركه في مسغبة وجوع لأنه ببساطة سيبيع الختم لمن يدفع وعندئذ تنهدم العمارات فوق ساكنيها ويتم الاعتداء علي الحقوق ونهب أموال الناس وموت المرضى المستحقون للعلاج وتلوث الغذاء واحترق القطارات وغرق العبّارات . . ولو كان الموظفون الذين قاموا بالكشف علي مراكب ممدوح اسماعيل " الخردة " لا يشعرون بالجوع لما وقعوا له الأوراق التي سمحت بإغراق المصريين في البحر في أكثر من كارثة بحرية ، ثم الإفلات من العقوبة لأن الأوراق سليمة !

إن مستقبل هذا البلد وخططه التنموية وامكانية نهضته كلها مرهونة بحماية الموظف العمومي من الجوع والإهانة حتي لا يسرح علي الخريطة بنشر الخراب والدمار والعفن كما يحدث الآن بحيث تحولت مصر علي أيدي موظفيها الجوعى إلى خرابة تحيا فينا وليست فقط خرابة نحيا فيها !

كلمة أخيرة :

" بين أن تختبر الجوع بأمعائك وخمسين كتابا عن القمح . . مسافة من التجربة التي تذيب الجلاميد " الشاعر قاسم حداد .

مصر علي شفا الحرب الأهلية

بصرف النظر عن الكذب الحكومي المزمن الذي جعل الناس تأخذ بسخرية أي كلام حكومي .
وبصرف النظر عن " المختل عقلياً " المسكين الذي حملته الحكومة كل الجرائم التي تعرف مرتكبها
خقيقيين وتعجز عن مواجهتهم . . بصرف النظر عن هذا فإن الحكومة هذه المرة وهي تستخدم
كذبة المختل عقلياً التي أدمنتها طويلاً في التعامل مع الجرائم المحرجة لها- لم تكن تدري ان المجرم
الذي أشعل الفتنة في الاسكندرية هو مجنون فعلاً ، وانه أعفاهم هذه المرة من القبض علي أسرته
وتعليقهم في السقف حتي يكتبوا إقرارات بأن ابنهم متربي في السرايا الصفراء من يوم مولده ! .
ولكن هل جنون الفاعل يعني الحكومة وأطراف أخرى من المسؤولية؟ ألا يصح أن نحاسب من
دفعوه للهوس والجنون ودفعوا الوطن كله إلى شفير الهلاك؟

أكاد أجزم أن الملايين من أبناء مصر المسلمين والاقباط يقفون الان علي الخط الفاصل بين آخر
درجات الإتران وأولي خطوات الجنون ويتظنون فقط دفعة صغيرة لبدأوا الحريق الكبير وسيكون
للحزب الوطني شرف اندلاع أول حرب أهلية في تاريخ مصر علي أياديه المباركة ، فالنظام الحاكم
هو الذي يدفع الناس دفعا إلى التصرفات المجنونة وذلك في رعونة لا مثيل لها ، فالظلم الذي
يتعرض له المواطن في هذا البلد أخذ في العصف بما تبقي في العقول من حكمة وفي النفوس من محبة
وتسامح ، وإلا فليفسر لنا أحد مشاعر الرضا التي يستقبل بها المسيحيون في مصر إلقاء القبض علي
مسلمين أبرياء لا يقدمون إلى المحاكمة أبدا ويظلون في السجون بلا نهاية ، ولماذا لا نجد أي تعاطف
من الأقباط مع هؤلاء المعتقلين؟

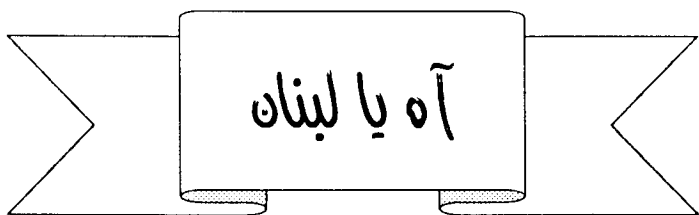
الاجابة الحزينة هي أن السلطة قد ألقت في روعهم أن هؤلاء الناس ينبغي سحقهم والقضاء
عليهم دون شفقة ، وزرعت لديهم الرعب وجعلتهم يميلون للدفاع عن الطوائى ويؤمنون بأن
القانون الطبيعي فيه هلاكهم ! ، كذلك فاقمت السلطة من احساسهم بالاضطهاد وضيق مدي
الرؤية لديهم فلم يعودوا يعرفوا عن حقوق الانسان في مصر سوي انها حقوق الانسان القبطي ! .
في نفس الوقت الذي سمحت للدعاة التليفزيونيين وخطباء المساجد الذين تملي عليهم خطب
الجمعة بأن يشبعوا المسيحيين نقدا وتجرىحا وتشكيكا في عقائدهم واتهاما صريحا لهم بالكفر ،
وغذت الاتهامات لهم بعدم الوطنية والاستعانة بالاجنبي ولي ذراع الدولة .

و لكي تبرهن السلطة للمسلمين علي ذلك فقد قامت عن عمد بتقديم تنازلات غير قانونية للأقباط في قضايا مثل حكاية وفاء قسطنطين ، كما أنها احتملت ضرب المتظاهرين الأقباط لرجال الأمن ، وهذا ما رأي المسلمون فيه تمييزا وتديلا للأقباط لا يحظون هم بمثلثال منه . والنتيجة أن الأقباط باتوا يعتقدون أن الدولة تظلمهم وتحجب عنهم حقهم في الوظائف العليا وتمارس ضدهم التمييز وتشهر بمعتقداتهم لدرجة احساسهم بالغربة في وطنهم . وكل هذا صحيح . والمسلمون باتوا يعتقدون أن الدولة تحاربهم وتناصر الاقباط الذين لهم ظهير دولي ممثلا في القوي الكبرى وجماعات أقباط المهجر وان الكنيسة صارت هي دولة الاقباط التي تعلقو فوق الدولة المصرية لدرجة احساسهم بالغربة في وطنهم . وكل هذا صحيح أيضا !

فالسلطة في مصر تعادي المسلم والمسيحي من حيث كونها ضد الانسان المصري في العموم ، وما تقدمه للطرفين لا يخرج في حقيقته عن الخرز الملون الذي كان المستعمرون البيض يقدمونه للأفارقة مقابل الاستيلاء علي أراضيهم وحقوقهم . أما الحقوق الحقيقية للمواطن المصري مثل الحق في الحرية والمساواة والاعتقاد والحق في العمل والسكن وتكوين الاحزاب فدونها خطر القتاد . ويصل الأمر لدرجة تحريف الوعي الذي يجعل الأقباط يتصورون الحصول علي حصة طائفية من المناصب ومن مقاعد مجلس الشعب هو منتهي المنى ، فتركهم السلطة يمنحونها تأييدهم وبركات سلطتهم الدينية ثم لا تعطيههم شيئا . فيتصور الأقباط أن المقاعد التي شغل معظمها المزورون وتجار الصنف والأميون والهاربون من التجنيد وأصدقاء سميحة . يتصورونها تعبيرا عن انتصار المسلمين ، غير مدركين أن المسلمين لم يحققوا أي شئ سوى انهم اشتروا السلطانية التي بأبي الأقباط إلا أن يأخذوا نصيبهم منها ! ، مع ان نضال المسلم والمسيحي يجب ان يصب في خانة وصول المناصب العليا لشرفاء الوطن دون النظر إلى دينهم ، ووصول مقاعد المجالس إلى الوطنيين الذين يحبون هذا البلد ويرغبون في خدمته من خلال انتخابات خالية من التزوير دون النظر ايضا إلى دينهم .

فوق الدولة ففؤوب واليوم أسوأ صورة يمكن أن نراها هي صورة قسيس يعانق شيخا وهما يرسمان ابتسامة بلاستيكية متساحة أمام الكاميرا ، في حين أن القاضي والداني يعرف أن هذا الشيخ وذيالك القسيس غير صادقين في ابتسامتهما وان كلا منهما يحرص اتباعه ويملاهم بالحق والتعصب لأن دروس الشيخ والقسيس نري أثرها في الشارع الخائض . فالشيخ أي شيخ هو موظف حكومي يدافع عن كل خطايا الحزب الوطني ، والقسيس أي قسيس هو تابع للبابا ومؤتمر بأوامره التي تدعو لتأييد الحزب الوطني ومرشحيه ورجاله . .

أما الحزب الوطني وقادته-الذين آمنوا لأنفسهم أوطانا بديلة سيهرعون إليها عند الحريق الكبير-
فإنهم يضحكون الآن ملء أشداقهم علي الشيخ والقسيس وأتباعهما من البؤساء الذين يشنون
تهجمات علي بعضهم البعض ثم يلوذون بالحزب الوطني ليحميهم من الآخر . . الشرير !



أنت السيد وسواك... المسوخ

أشعر بالخجل وأنا أنظر إلى مواقف الحكام العرب مما يجري في لبنان . لقد قاموا طوال الشهر ناضحي ببذل كل ما يستطيعون من أجل إرجاع الأسير الاسرائيلي الذي وقع في أيدي الفلسطينيين . ومارسوا كل الضغوط علي حماس وعلي سوريا حتي يعود الولد إلى حضن أمه الست أم جلعاد . فإذا بحزب الله يعمق جراحهم ، ويصعب الحياة عليهم بأسره جنديين آخرين . ويترك لسادة يتخطبهم المس لا يدرون ما يفعلون .

و إذا كان اجتماع وزراء الخارجية العرب لم يفعل شيئاً لإعادة الأسيرين لأمهاتهم الدامعات . فإن الأمل معقود علي قمة عربية تضع الأمور في نصابها وتعلن للعالم الموقف العربي المتحضر في دانة الاعتداء اللبناني علي جيش الدفاع الاسرائيلي في مغامرة غير محسوبة بقيادة المغامر السيد حسن نصر الله .

بعيدا عن الهزل أقول انني لم أتمالك نفسي وأنا أستمع إلى بيان السيد حسن نصر الله وشعرت بشحنة كبرياء تملأ كياني ، ذلك لأنني لا أنتمي إلى فصيلة العقلاء ولا الحكماء الذين ذبحوا الأمة بحكمتهم وعقلانيتهم . إننا لا نملك أي شيء نخاف عليه ، وظهورنا إلى الحائط ، وبعد مرور ٣٣ سنة علي آخر الحروب أصبحنا نأكل طعاما ملوثا ونشرب مياهها قذرة . . وليس لدينا من حطام الدنيا لثاني سوي يوسف والي وكمال الشاذلي ومصطفى الفقي وأحمد عز والسيد راشد ، ومجموعات أخري لا تقل روعة عنهم . . فهل نخشي إذا قمنا باستفزاز اسرائيل أن بضيعوا منا في غمار عدوانها علينا؟! !

إن الاستاذ شارل أيوب رئيس تحرير جريدة الديار اللبنانية يبدي الذهول من فكرة الوساطة التي يقوم بها الحكام العرب بين المقاومة العربية وبين إسرائيل ، ويراهم مسألة مهينة للغاية . فماذا لو عرف الرجل أنه لا وساطة ولا يحزنون ، وأن الحكاية لا تخرج عن لعبة توزيع الأدوار التي يقوم بها الاسرائيليون بأجنحتهم المختلفة!! !

و إذا كان العقلاء من بني جلدتنا ينعون علي حزب الله انه استفز الوحش وتسبب في دمار لبنان ، أو كما قال أحد المستظرفين العقلاء أنه يشفق علي العرب من ضربات اسرائيل المجنونة لأنها علي حد قوله : " خلقتها ضيق وروحها في مناخيرها ونظرها علي قدها وايديها طرشة " . . اه والله تحدث هكذا في قناة العربية . . فإنني أقول لهم أن الحياة تحت أنياب الوحش وفي أحضانه لا

تعد سلاماً نخشي من فقدته، وإن إسرائيل لم تتوقف يوماً عن ممارسة الاعتداءات علينا بسبب وبدون سبب، وللشيخ أحمد ياسين رحمه الله قول شهير هو أن "الاسرائيليين سيقتلوننا إن قاومنا وسيقتلوننا إن ألقينا السلاح . . فماذا تختارون؟"

لهذا فبدلاً من أن نلوم حزب الله الذي حاول أن يسترد أسري العرب، يجب أن نحاسب الحكاء الأشاوس الذين لم يمدوا للمقاومين يداً وتركوهم يتعون في الأسر ولم يبذلوا أي جهد لتحرير أسير عربي واحد كما فعلوا من أجل الجندي الصهيوني، وإذا كان رد الفعل الاسرائيلي عنيفاً جداً فلا يجب أن نلوم من يتصدي للوحش، بل يجب أن نحكم الحكام الذين أوصلونا إلى منتهى الضعف وأخرجوا مقاومة العدوان من المعادلة، وجعلوا الخيارات المتاحة أمامنا هي الاستسلام أو الموت. لهذا فمن الطبيعي أن كراهية كثير من الحكام العرب للسيد حسن نصر الله تفوق كراهية الاسرائيليين له، وحنقهم عليه يفوق الحنق الاسرائيلي، لأن إسرائيل علي الأقل تستطيع أن تنعته بما شاءت من أوصاف، أما أشاوسنا الحكماء فيجذون علي أسنانهم وهم يتحدثون عن المقاومة المشروعة والأخري غير المشروعة، أو عن المغامرات غير المحسوبة وكأنهم يتحدثون عن أرسين لوبين أو سبايدرمان، وليس عن القائد العربي الوحيد الذي أخرج الاسرائيليين قسراً من أرض محتلة بدون اتفاقيات أو تنازلات أو جلوس علي طاولات.

أما الذين يتحدثون عن أجندة إيرانية أو أجندة سورية فأتوسل اليهم ألا يرددوا كلام العدو . . مالها الأجندة الإيرانية إذا كانت مؤيدة للحق العربي ومعادية للوحش الذي يحتل أراضيها؟ وما المشكلة إذا كانت أسلحة حزب الله إيرانية أو سورية؟ وهل أمده العقلاء الذين ينفقون المليارات سنوياً علي التسليح بأي شئ فرفض وقال أريد أسلحة إيرانية يا بلاش!

إن إسرائيل لا تخشي أسلحة حزب الله، فلديها ما يفوقها آلاف المرات، إنما تخشي أخطر سلاح يملكه العرب والمسلمون اليوم: السيد حسن نصر الله . . هذا الرجل الذي إذا وعد أوفى، هم يعلمون أنه لا يكذب، فإذا قال لهم: علي سكان بئر سبع أن يلزموا الملاجئ هذه الليلة، فمن المؤكد أنهم سيمثلون، لأنهم جربوه وخبروا أنه يعني ما يقول. هذا الرجل قدم للأمة العربية ما كانت في حاجة إليه . . الأمل، وبإذن الله لن ينحني ولو وقفت ضد سيفه كل الشيوخ، والرجال التي ملأتها الشروخ، أولئك الذين يحبون طعم الثريد، وامتطاء العبيد، وسيوفهم العربية قد نسيت سنوات الشموخ . . لا تصالح يا نصر الله، فليس سوي أن تريد، أنت فارس هذا الزمان الوحيد وسواك . . المسوخ.

مع الرصيص... ذاك أفضل!

ما زال العدوان الإسرائيلي يتواصل علي الشعب اللبناني ، وما زال الزعماء العرب يبذلون كل ما في طاقتهم لضمان القضاء علي المقاومة وقتل آخر نفس فيها .

لم يعد المرء يأمل في أن يقف الحكماء العرب إلى جوار شعب عربي يتعرض للإبادة ، أصبحنا نضرع إلى الله أن يقلل من منسوب حكمتهم وأن يهدئ قليلا من تعقلهم ، حيث أن أعداد الضحايا وحجم الدمار الناشئ عن هكذا حكمة لم يعد في الامكان احتماله . وأملنا أن يتوقفوا عن ضخ مزيد من الحكمة التي أصبح الشارع العربي يراها مرادفة للذخيرة في مدافع العدو ، ومرادفة للوهن في شرايين الأمة .

نطلب من الله أن يلهم السادة الزعماء العرب أن يقنوا علي الحياد ، وأن ينظروا إلى لبنان خضرتهم إلى جوانبهم لا أو نيكاراجوا ، ولا يعقدوا بشأنها أي جلسات أو اجتماعات ولا يدعون جامعة العربية للإنعقاد وإصدار البيانات . لأن بياناتهم الكاريكاتورية لم تعد تسلينا . أصبحت تولنا وتدمينا . ولقد كان السيد حسن نصر الله مصيبا عندما قال انه لولا الدعم العربي والغطاء لعربي للعدوان الاسرائيلي لما جروا علي الاستمرار ! .

لقد كنا نتصور في السابق أن العلاقات المتميزة بين معظم الدول العربية وبين اسرائيل - رغم رفضنا لها - هي شيء يمكن الإستفادة منه للجم الوحش العقور عبر ممارسة الضغط عليه عند حاجة . بمعنى أن العلاقات الدبلوماسية والتجارة المتبادلة واتفاقيات البترول والغاز والتعاون الزراعي الذي لوث غذاءنا ، والكويز والبكلويز . كل هذه الأشياء كنا نتصورها أوراق ضغط تستطيع أن نقايض بها علي وقف الاعتداءات علي لبنان أو فلسطين أو سوريا أو أي بقعة عربية تتعرض للعدوان . الآن أدركت حجم حماقتي إذ عرفت أن هذا التعاون هو سيف علي رقبتنا نحن ، وأن اسرائيل هي التي يمكنها التهديد بسحب السفير ويمكنها التلويح بإغلاق المراكز الثقافية ومراكز تجسس في طول البلاد وعرضها ، وهو الأمر الذي لا يحتمله الحكماء منا ، لأن الحكماء فضلا عن حبهم العارم لإسرائيل يعتمدون ثمنا عليها ويرون أن اسرائيل القوية هي الضمانة الأكيدة لاستمرارهم علي المقاعد وخلودهم السرمد في الحكم .

و لا يستغرب أحد من الإستخذاء الذي يبدو عليه القادة العرب إزاء إيهود اولمرت رئيس الوزراء الاسرائيلي، فالحقيقة التي لم تعد تدهش أحدا أن أي حاكم في أي دولة في أي بقعة علي الكرة الأرضية . . إذا لم يكن متخبنا من شعبه ووصل إلى السلطة بالإغتصاب فإنه مدين لأمریک واسرائيل بكرسي الحكم . . هذا هو الأمر ببساطة، والمسألة تشبه تماما الطريقة التي يتم بها اختيار المسؤولين وكبار الموظفين في بلادنا المنكوبة حيث كثيرا ما يتم استبعاد أي ذو مروءة، والقيام بالاختيار من بين المجروحين و " المتعاصين " المتخمة ملفاتهم بكل ما يشين، ثم تركهم بعد ذلك يؤدون أعمالهم حتي بدون توجيه . . فهم يعلمون جيدا لماذا تم اختيارهم وأي نوع من الأداء مطلوب منهم!

ولهذا لا نستغرب عندما نري مواقف ايران وتركيا من الإعتداءات علينا في العراق وفلسطين ولبنان هي أشرف من مواقف العرب الذين منحوا المعتدين القواعد والمعلومات والدعم اللوجستي، لأن الحكام في تركيا وايران قد أتوا عبر انتخابات حقيقية، ولهذا فهم يعبرون عن شعوبهم . . وهذه هي أزمنا وهذا هو مقتلنا . . حكامنا لا يدينون لنا بأي شيء، فلماذا يحترموننا! . انظروا إلى الخاخام الأكبر وهو يطلق تصريحاً جديداً من تصريحاته الشقية يصف فيه السيدحسن نصر الله بأنه مصاب بجنون العظمة . . هذا التصريح لا نستغربه من هذا الرجل العاقل الرصين الذي سبق له أن أدان المقاومة في العراق ووصفها بالإرهاب، وأدان العمليات الاستشهادية ووصفها بأنها انتحار مؤثم، وسبق له أن لعن كل من يطلق رصاصة علي اسرائيل، كما قام بمناشدة من يسبون الرسول بأن يترفعوا بالموت!

لقد هزني سيد المقاومة حسن نصر الله عندما سأله مذيع الجزيرة: مم تحشون في حزب الله، فأجاب: (تحشي ألا نموت شهداء). . فهل هذه الروح الجهادية لرجل قدم ولده شهيدا هي جنون العظمة يا عم الحاج؟!

كذلك تأثرت جدا للفتاة اللبنانية التي ظهرت علي قناة المنار بملابس مودرن وهي تقول: " شو بدي بجسر أعبر عليه وأنا بلا كرامة، قضينا السنين بنقول بالله السترة، وحتى السترة ما طلناها، أنا بدي من السيد بعدها الحرب عبايته باللي عرق فيها وهو عم بيدافع عني وعن إختوتي لأتفرغ فيها، وبلكي يوزعها شُف لتعطي للناس البلا كرامة " . . هذا كلام عاطفي . . نعم . وهل نسبت نفسي من قبل إلى الحكماء والعقلاء وذوي الرصانة، الذين يراكمون الثروات في البنوك والشحوم في الأرداف، ويغارون علي اسرائيل من نسمة الجنوب في مارون الراس وبنت جبيل وعيترون!

أبو لغب الدبلوماسي وكوندوليزا حمالة الخطب!

لم أكن أحب أبدا أن يستقبل لبنان وزراء الخارجية العرب ، لأن زيارتهم بعد أربعة أسابيع من حرب ليس مقصودا منها أي مصلحة لشعب لبنان . ودليلي علي هذا أن ثمانية علي الأقل من هؤلاء الوزراء هم من غلاة الصهاينة الذين يؤيدون العدوان الاسرائيلي بحماس بالغ وسعادة لا يقدرون علي إخفائها . وقد كان في مقدور بيروت لو كان لا بد من التعامل معهم أن يتم الأمر عبر وساطة فنزويلية أو اندونيسية وليس بشكل مباشر أبدا!

هذا القول لا يتضمن هزل أو مبالغة ، فأنا حقيقة ارتعد خوفا من أن يكون أحد هؤلاء قد سمع أو التقط أي شيء أثناء وجوده في بيروت مما يمكن نقله للعدو الاسرائيلي عن تحركات حزب الله أو تسليحه أو أماكن قاداته ، أو أي معلومات يمكن لهؤلاء الاستفادة منها لصالح مخدوميهم في فلسطين المحتلة . وللأسف فوزراء الخارجية الذين أعينهم يعملون في بلاط حكام هم أنفسهم بنجسسون لصالح اسرائيل . . و غير بعيد ما ذكره الاستاذ هيكمل عن اثنين من الحكام العرب كانوا يعملون جواسيس بمرتب سنوي في خدمة الصهاينة ، وكانوا ينقلون بالصوت والصورة اجتماعات لقمة العربية والاسلامية إلى حيث يجلس رؤسائهم ضباط الموساد في تل أبيب . ولو كان هؤلاء لوزراء يمكن أن يفيدوا لبنان مثقال ذرة . فهل كانت اسرائيل تسمح لهم بالهبوط في بيروت وتيسر لهم الجلوس والاجتماع من أجل نصره المقاومة ودعم استقلال لبنان؟ لقد ذهبوا استجابة لحمالة لخطب كونداليزا رايس ووفقا لأجندتها السامة .

إن ذاكرتنا الملتهبة محملة بكل ألوان الخيانة التي دفع المقاومون ثمنها ولا يجب أن ننح اسرائيل بالسياسة ما فشلت في اقتضائه بالحرب ، والمؤامرة التي تنسج فصولها في مجلس الأمن الآن بمباركة عربية ليس منها غرض سوي سلب المقاومة اللبنانية انتصارها بعد أن دفع حزب الله فاتورة الدم كاملة ، فهم يريدون أن يفعلوا بلبنان ما فعلوه بمصر بعد انتصار أكتوبر . لقد أخذوا منا النصر ومنحونا كامب دافيد ، مع أننا كنا نستطيع الحصول علي كامب دافيد بعد هزيمة ٦٧ وبدون نصر أكتوبر . نفس الشيء يراد للبنانيين الآن ، والأمر يشبه أن يندرك بلطجي أن تنفذ طلباته وإلا قضي عليك . فتقبل التحدي وترفض الانصياع لمشيئته ، فعمل كل ما في طاقته لتنفيذ وعيده والقضاء عليك فيفشل ولا يقدر . . فهل يصح وقتها أن تسلّم له بطلباته؟!

إن لبنان يجب أن يحذر الفتنة كما يجب أن يحذر القنوات الفضائية المعادية . . . فمشاهدة القنوات المختلفة في الأيام الماضية قد كشفت لي بمتي السهولة الهوية الواضحة للكثير منها ، ف قنوات النيل للأخبار والعربية وإل بي سي وتلفزيون المستقبل والحررة لا يخطئ المرء في معرفة في خدمة من تعمل ، ولأي مشروع مسخرة ، فعلي سبيل المثال قامت قناة العربية وبدون أي مناسبة بإعلان مقتل أربعمئة مقاتل من حزب الله ، وأخذ شريط الأخبار أسفل الشاشة يلف ويدور يحمل هذه الكذبة . في نفس الوقت الذي كان وزير العدل الاسرائيلي يعلن أن عدد قتلي حزب الله هم ثلاثمئة !

ثم يتبته الاسرائيليون للخبر الذي حملته القناة السعودية فيتلففه وزير الصحة الاسرائيلي ويعلن أن اسرائيل قتلت اربعمئة مقاتل من حزب الله ، فما يكون من القناة إلا أن تذيب الخبر الذي اخترعته منسوباً للوزير الصحة الاسرائيلي !!

أما قناة المنار فقد نقلت صورة مبني مهدم يخرج من بين أنقاضه أحد الناجين والمراسل يسأله عن المساعدات التي أرسلها العرب ومدي تأثيرها في صمود الشعب اللبناني ، فيجيب الرجل بغفوية شديدة : " عم بيعطونا علب البلوييف بيد وباليد الأخرى عم بيعطوا اسرائيل السلاح ! . . فيكن تصدقوا ان المواطن الامريكى سيدفع دولار واحد من جيبته كرماء لعيون اسرائيل . . كل السلاح الاسرائيلي بتمويل عربي وكل البلدان ياللي أعطت القواعد لأمر كا بتدفع لتحرق أطفال لبنان " . . كان الرجل قاسياً في صراحته خاصة عندما استرسل وتحدث عن صفقة الطائرات الاسرائيلية التي دمرت المطارات المصرية في ٦٧ وكان الذي دفع ثمنها حاكماً عربياً . . وبالمناسبة تسمي مصر باسمه واحداً من أكبر شوارع القاهرة !

و مع هذا لم يحفظ الأمريكيون له الجميل فقتلوه عندما بدأ يتململ ! وهذا ما تحدث عنه حسن نصر الله عندما قال للحكام العرب ان مريكا بعد كل ما قدموه لن تبقي عليهم في الشرق الأوسط الجديد ولن تحفظ لهم كراسيهم رغم فقدانهم لشرفهم علي مذبحها ، وقال لهم ان الدولة الكبيرة لن تظل كبيرة أي ستعرض للتقسيم ، والدولة الغنية لن تظل غنية ، وأن العرش لن يظل عرشاً ، وقد فهم الناس أنه يتحدث عن مصر والسعودية والأردن . . لقد كان سيد المقاومة في غاية القسوة عندما طالب الحكام العرب بأصعب طلب يمكن أن يوجه اليهم فعصف بعقولهم وجعل رغبتهم في تدميره وشعبه تزداد وتتفاقم . . لقد طلب منهم نصر الله أن يكونوا رجالاً ولو لمرة واحدة . . بالطلب المر ! ما هكذا تورد الإبل يا أبا هادي ، رفقا بالقوارير . . خاصة إذا كانت القوارير مشروخة !

النوم مع العدو!

طالعنا صحف الأسبوع الماضي نجبر إجتماع نفر من الساسة اللبنانيين ممن يسمون مجموعة ١٤ آذار في فندق بريستول في بيروت ، وكيف أنهم خرجوا من الإجتماع بتوصية وحيدة هي ضرورة نزع سلاح حزب الله لأن هذا السلاح لم يستطع أن يمنع اسرائيل من تدمير المباني والجسور في جنان . . فما فائدته إذن؟ . عندما قرأت هذا الخبر شعرت بالحزن علي لبنان ، وتذكرت مسار نظائفة البغيضة والتعصب الأعمى والطبقية الشديدة في هذا البلد الصغير ، وكيف أدت بشعبه محب للحياة إلى الهجر قحتي من قبل الحرب الأهلية والانتشار بالملايين في كل بلاد الدنيا هربا من واقع شديد القسوة والظلم ، وشعرت أن المشكلة ليست فقط في أن هناك من يتبنى خيار المقاومة دفاعا عن النفس والعرض و من يتبنى الخنوع ويؤثر السلامة . . لا المشكلة في لبنان أعمق من ذلك كثير . . إنها تقبع في القشرة الخلفية للجمجمة عند من يريدون أن يكون أهل الجنوب وإلي الأبد مساوون لطبقة المنبوذين في الهند ، أي محرومون من كل حقوق البشر . هذا هو المسكوت عنه في موضوع اللبناني .

عرفنا معارضين كثيرين للحرب الأمريكية في العراق من قطاعات واسعة في المجتمع الأمريكي ورأينا تظاهرات ضد صقور الحرب الذين تسببوا في قتل الجنود الأمريكيين ، كذلك شاهدنا انتقادات قاسية من الاسرائيليين لقادتهم الذين تسببوا بعدوانهم علي لبنان في وصول صواريخ حزب الله إلى غرف نومهم مما أقعدهم في الملاجئ لمدة ٣٣ يوم . لكننا لم نعرف من الأمريكيين من نسني هزيمة الجيش الأمريكي أو قتل قاده وتدمير بنيته ، ولم نر من الاسرائيليين من أبدي الشماتة لتدمير كريات شمونة وتحويل المستعمرات 'شمالية إلى خرائب ، ولم نعرف أحدا من الاسرائيليين طالب بنزع السلاح الاسرائيلي بحجة أن هذا السلاح لم يستطع أن يضمن سلامة المدن الاسرائيلية من القصف ولم يستطع أن يحمي الاسرائيليين عسكريين ومدنيين من ضربات حزب الله .

و لكن علي الجهة الأخرى نري بكل أسف قطاعات من العرب واللبنانيين ممن يخالفون حزب الله في الرأي والرؤية والموقف السياسي لكنهم لا يحتملون انتصاره ، وقد كانوا يتمنون قتل رجال المقاومة وتدمير تحصيناتهم ونزع سلاحهم ، فلما خيب الله رجاءهم ولم تستطع اسرائيل أن تقوم بالمهمة إذا بنفر منهم يجتمعون للتفكير في وسائل جديدة لتنفيذ المهمة بحجة أن سلاح المقاومة لم يحم

لبنان من العدوان الاسرائيلي ! وكأن تجريد المقاومة من السلاح هو الذي سيضمن الأمن للبنان . .
ولا أدري كيف يتعاملون عن حقيقة أن ضحايا هذه الجولة من الحرب كانوا حوالي ثمانمائة شهيد من
المدنيين اللبنانيين ، في حين كان الشهداء في عدوان ٨٢ عندما لم يكن حزب الله موجوداً أكثر من
عشرين ألف شهيد دون أن تقع أي خسائر في صفوف الاسرائيليين ! . ومبعث الدهشة أيضاً في هذا
الطرح أن من يلحون في طلب نزع سلاح حزب الله كان يمكن لإيهود أولمرت أن يصل إلى بيروت
بقواته وأن يأخذهم " سبائاً " ويعرضهم في أقفاص في تل أبيب لولا وجود حزب الله الذي يطالبون
بتدميره !!

وإذا كانوا يرون أن اسرائيل لم تكن لتفعل هذا بهم وليس لديها المبرر لأن تفعله لأن لديهم
استراتيجية مختلفة في الدفاع عن لبنان وصيانة أمنه وهي أن يمدوا أيديهم إلى اسرائيل بالسلام وبهذا
ينزعون شوكتها ويعيشون في تبات ونبات ويخلفوا صبيان وبنات . . فإننا نقول لهم " كان غيركم
أشطر " لأننا من واقع تجربتنا في مصر نعرف أن السلام القائم علي الدل لا يصل بالشعوب إلا إلى
القاع ، وهنا نكون قد وصلنا إلى بيت القصيد ، وهو أن اسرائيل لا تري في رجال ١٤ آذار أعداء
ولا ترغب في إيذائهم . . والمعروف أن اسرائيل لا تسالم سوي من يعملون في خدمتها ويعينوها
علي تنفيذ أهدافها ، ورغم هذا لا تسمح لهم سوي بالحياة الذليلة ، ونحب أن نذكر من نسي أن
ضباط جيش لبنان الجنوبي الذين رحلوا إلى اسرائيل بعد الهزيمة والانسحاب سنة ٢٠٠٠ يعمل
أغلبهم خدام في المراحض العمومية في تل أبيب !

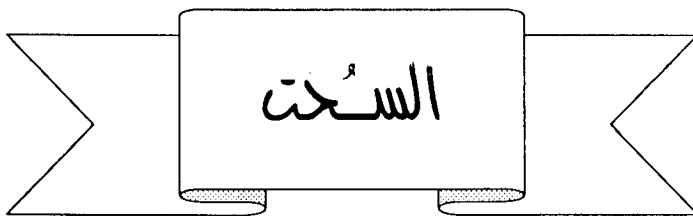
للأسف يبدو أنه مكتوب علي حزب الله ورجاله وعلي كل من يرفضون الذلة أن يخوضوا
صراعهم ضد اسرائيل بينما أصدقاء اسرائيل يعيشون بينهم تحذوهم الطائفية والتعصب إلى
استنكار الانتصار اللبناني ومحاولة تقويضه لمجرد انه أبي علي يد حزب الله ، في حين أن المسموح
لرجال حزب الله وللسكان الجنوب في العموم طبقاً لأجندة التعصب والطبقية أن يكونوا ماسحي
أحذية أو ما شابه مثلما قال السيد حسن نصر الله . . وفي هذا فإن الباشوات اللبنانيين يشبهون
بعض باشاواتنا الذين كانوا يفضلون بقاء الاحتلال البريطاني عن الجلاء الذي يتحقق علي يد
الضابط (علي) ابن الرئيس عبد الواحد الجنايني الذي كان ينبغي أن يكون بستانيا عند الباشا مثل
أبيه لا ضابطاً بالجيش .

لهذا كان البعض في لبنان يتمني هزيمة حزب الله حتي لا يرفع أهل الجنوب رؤوسهم خاصة
بعد أن قام الحزب ببناء المدارس والمستشفيات وتوفير فرص العمل وأصبح من بين أبنائه العالم

والطبيب والمهندس والمخترع وهؤلاء هم أنفسهم المقاتلون الذين يصنعون الحياة في الشطر الأول من اليوم ويحملون السلاح ليدافعوا عما صنعوه في الشطر الثاني .

و من العجيب أن الذين أهملوا الجنوب وتركوه للفقر والجهل يوجهون اللوم لحزب الله اليوم بزعم انه استولي علي دور الدولة ببنائه للمدارس والمستشفيات وتشغيل العاطلين ! مما حدا بالسيد حسن نصر الله ان يقول لهم انه مستعد اذا قامت الدولة ببناء مدرسة في قرية ان يغلق فورا المدرسة التي بناها حزب الله واذا قامت بانشاء مستشفى ان يقوم بهدم المستشفى التي بناها الحزب . . فقط فعلوا شيئا !

ما أسهل الحرب بالنسبة للمقاتلين الساعين للشهادة ، لكن ما أصعب النوم مع العدو !



الدبلوماسية المصرية و "عمدة الشغل"

المؤمن مُصاب .. هكذا قلت لنفسي حين قرأت عن حادث سرقة تعرض له الدكتور مصطفى نفقي، واتهم سائقه بكسر مخزن الخمر الخاص بسيادته والإستيلاء علي حمولته من المشروبات . وقد نشرت الصحف أن الدكتور الفقي قال أنه يقدم هذه الخمر لأصدقائه الأجانب . حيث أن علاقاته الدولية الواسعة تفرض عليه هذا .

نحن بالطبع نتعاطف مع الدكتور الفقي ونرجو أن يأخذ السارق جزاءه .. ولكن ربطاً غير تعمفي قد اقتحم رأسي، فرأيت حفلات الكوكتيل ومادب الشراب التي يقيمها الدبلوماسيون أو يدعون إليها وقد حضرتُ شخصياً كثير من هذه المناسبات وأري أنها جزءاً مكملًا لعمل دبلوماسي في الخارج يستطيع أثناءها أن ينسج علاقات بالكثير من صانعي القرار والشخصيات الهامة في المجتمع الذي يخدم فيه .. غير أن الأسف إعتراني لأنني أعرف أن هذا في الحقيقة لا يحدث ! .

في حديث تليفزيوني لوزير الخارجية السابق أحمد ماهر قال ان العمل الدبلوماسي ليس نزهة ولم يعد عبارة عن حفلات وبروتوكول وكوكتيلات ومأدب طعام، لكنه عمل شاق ينطوي علي مخاطر، وقرأت لكثير من الدبلوماسيين المصريين اراء مشابهة في الصحف خلال الأيام الماضية بعد مقتل السفير المصري في بغداد . والحقيقة أنني أشعر بالأسف عندما أسمع هذا الكلام يتردد وكأنه حقيقي لأنني أعلم أنه ينطبق علي العمل الدبلوماسي لبلاد أخرى ودبلوماسيين آخرين غير بلادي ودبلوماسيينها . إن البعثات الدبلوماسية المصرية في أربعة أرجاء المعمورة لا تفعل أي شيء سوى حضور حفلات الشراب ومادب الطعام دون هدف . وللعلم هذا الأمر لا يقتصر علي السفارات والقنصليات التابعة لوزارة الخارجية .. إنه يشمل الجيوش الجرارة من الموظفين للبعثات المصرية الموجودة في ١٨٨ دولة كالتمثيل التجاري والسياحي والثقافي والإعلامي والعمالي والطبي .. آلاف الموظفين يتقاضون مئات الملايين من الدولارات يدفعها الوطن الجريح من لحمه العاري لأناس لا يفعلون شيئاً سوى تنمية مواردهم وارتياح صالات المزادات لشراء التحف والسجاد وبيع حقوق المواطن المصري بالخارج للجهة التي تظلمه وتفتري عليه نظير أجراً صار معلوماً للكافة . هل تعلمون حصيلة جهد السادة المستشارين التجاريين في الخارج؟ الحصيلة هي إختلال الميزان التجاري

لصالح كل الدول التي تحتضن بعثاتنا التجارية الميمونة بموظفيها التنبلة الذين يتخذون من مقرات مكاتبهم المملوكة لمصر مقرات للبرنس الخاص بهم وبشركاتهم التجارية الخاصة .

و هل تعلمون ماذا يفعل مديرو المكاتب السياحية في الخارج؟ يستجمون ويقضون وقتنا لطيفاً بصحبة وكلاء السياحه من ذوي الأصول العربية حيث لا يستطيعون التواصل مع الأجانب لجهل معظمهم باللغات الأجنبية . أما عن المستشارين الثقافيين والتعليميين فحدث ولا حرج ، نجد أحياناً مكتباً يضم مستشار ثقافي وملحق ثقافي وفريق من الموظفين الإداريين يتقاضون أكثر من خمسين ألف دولار شهرياً لمتابعة ٢٠ طالب دراسات عليا! ، وعندما تسأل طلبة البعثات عن علاقتهم بالمكاتب الثقافية ، يخرج لهيب النار من أفواههم عندما يحكون لك عن الغطرسة والصلف الذي يلقونه في أي معاملة مع المكاتب المفترض أنها مفتوحة لخدمتهم ، ويكفي لها مجرد موظف إداري لإنجاز العمل الهزيل المتمثل في دفع رواتب المبعوثين الشهرية! ، وإن المرء ليشعر بالغيثان عندما يعلم أن مستشاراً ثقافياً تافهاً كان يطلب من أحد أكبر المخرجين في الصحافة المصرية وأكثرهم موهبة أن يقوم بعمل نشرية هزيلة يضع فيها المجازاته الوهمية ويرص صوره ليرسلها لأسياده بالقاهرة كدليل على الهمة والنشاط ، مستغلاً أن هذا الفنان كان واقفاً تحت برائته أثناء عمله للدكتوراه في الإعلام .

أما الأفندية أصحاب المكاتب العمالية فكلكم تلمسون مآثرهم ، فحقوق العمال المصريين في العراق وليبيا والأردن والسعودية وغيرها شاهدة على أعمالهم . . إنهم يبيعون حقوق العمالة المصرية بأكلة كباب مع الكفلاء الساديين ويشاركونهم في ارتشاف دماء المصري وممصمة عظامه .

حتي الصحفيين . . انظروا إلى الصحفيين المبعوثين من الجرائد الحكومية إلى مكاتبهم الخارجية بعواصم العالم ، ولیدلنا أحد علي موضوع صحفي له قيمة أخطأ أحدهم ذات مرة وأرسله ، ذلك أن فهمهم للعمل الصحفي قاصر على تغطية أخبار الغذاء والعشاء الذي حضره السيد السفير والسيد القنصل والسيد المستشار ، وليس لديهم سوى أخبار عن إفطار الوحدة الوطنية وسحور الوحدة الوطنية الذي أقامه رئيس الجالية ، وقد ولدت صورة هذا الصحفي قناعة لدى السفراء بأن الدولة كما تصرف لهم مرتبات وبدلات ، تصرف لهم صحفياً من الأهرام يغطي أخبار الكوكبتيل والغذاء والعشاء والطبخ والسندوتشات . وعندما يقارن المرء بين الرسائل الصحفية التي يبعثها مراسل صحفي مثل " روبرت فيسك " مغلاً وبين الرسائل الواردة من مراسلينا يعرف الفرق بين الجدل . . و الهزل في موضع الجدل .

علي أن من أخطر الأسباب التي تدفع الدبلوماسيين إلى حياة الدعة و "الهمبكة" والتنكر للعمل حقيقي هو أن أحداً لا يطلب منهم القيام بأي عمل له صلة بالعلاقات الخارجية والسياسة الخارجية، بل إن المفاجأة الكبرى هي أنه يُحظر عليهم الإدلاء بأي تصريحات سياسية! وأن هناك منشورات دورية تؤكد علي هذا الأمر حتي لا ينسي أحد فيكون مصيره مثل مصير السفير الأسبق في تركيا الذي تمت إعادته للقاهرة لأنه تجرأ وتصور أنه سفير "بحق وحقيق" وأدلي بتصريح أدان فيه ممارسات العدوانية الإسرائيلية. ومن بعدها وصلت الرسالة واضحة للدبلوماسيين في الخارج: لا تصدقوا أنكم دبلوماسيين مجد، لا تصدقوا أنه يمكنكم الحديث باسم مصر، السياسة الخارجية مصر ليس لوزارة الخارجية علاقة بها!، كل المطلوب منكم هو أن تأكلوا وتشربوا في حفلات لأتس والسمر وأن تدعوا للسلطان بالنصر، ويكون دوركم الوحيد هو القيام بالتشهيلات وحمل حقائب عندما تكون هناك زيارات من أصحاب المعالي وعائلاتهم، وعليكم أن تضعوا خبراتكم في "الشوننج" تحت الطلب حين يقتضي الأمر إحضار آخر صيحة في دنيا "اللانجيري" أو توفير قراض الفياجرا للرجال منتهي الصلاحية.

إن غياب الدبلوماسية المصرية الفعالة هو أحد الأسباب الرئيسية لإخفاء الدور المصري وهوان مصر علي الجميع، وليسمح لنا السيد أحمد ماهر أن نختلف معه في رأيه بشأن العمل الدبلوماسي فنحن لا نراه سوي تشريفات وبروتوكول وثرثرة وشراب ومرح.

غير أن المشكلة الحقيقية الآن تتمثل في أن أقبية الخمور المعتقد اللازمة للعمل الدبلوماسي لم تعد في مأمن بعد أن استطاع اللصوص كسر مخزن الويسكي بمنزل الدكتور مصطفى الفقي، وفي هذا خطر داهم علي الدبلوماسية المصرية، إذ بإمكانهم أن يكرروها في مواقع أخرى فتمتد أيديهم الأثمة بسرقة "عدة الشغل" أو جانباً منها من بيوت مسؤولين آخرين.

موسم السُّحُت الكبير

منذ أن وعيت علي الدنيا والتمثيلية الموسمية لا تتغير . . فمع اقتراب عيد الأضحى تبدأ الصحف تحدثنا عن موسم الحج والاستعدادات العظيمة التي تقوم بها الدولة لخدمة زوار بيت الله الحرام ، وعن التوجيهات التي صدرت من أجل تيسير الرحلة المقدسة ، وقيام الدولة بكل أجهزتها بالعمل علي راحة الحجاج ووضعهم في حدقات العيون ، بحيث يصير شأن الحجاج في حلهم وترحالهم ، في سعيهم وطوافهم ، حصاهم ورجعهم ، نومهم وصحوهم ، دعاؤهم وصلواتهم هو الشغل الشاغل للدولة . . ولا يتواني السيد المحافظ والسيد مدير الأمن والسيد رئيس الحي والسيد مدير الاستاد عن الذهاب في مشهد درامي مؤثر لوداع الحجيج في الموانئ والمطارات وفي مواقف الأوتوبيس .

و لاحظ معي أنها نفس الدولة التي اعتادت أن تهمل المواطنين ، بل وتحرمهم من كل أسباب الحياة ، نجدها فجأة تستنفر كل أجهزتها وتقوم بإرسال عدة بعثات لرعاية الحجاج حتي عودتهم إلى أرض الوطن بسلام . فنجد بعثة لوزارة الأوقاف يقال انها تسافر بغرض رعاية الحجاج دينيا وثقافيا وتضم موظفين من كل نوع بحوزتهم بدل السفر مربوطا تحت ملابس الإحرام ومعهم كل أنواع الفتاوي . . عادة وإكسترا وكومبو ! بالإضافة لبعثة أخرى لوزارة الصحة تضم أطباء وممرضين وإداريين يصطحبون معهم شحنة ضخمة من الدواء تكفي لإغاثة مدينة منكوبة . ولا يهم أن أحدا لأننا يستعمله لأن أحدا لا يعلم بوجوده وإن علم فلن يصدق أن وزارة الصحة التي لا ترعاه في الداخل يمكن أن تفكر فيه خارج الحدود ! . ثم تأتي إلى البعثة الأكبر وهي بعثة وزارة الداخلية . . العين الساهرة التي تضم الضباط الذين يذهبون مع حجاج القرعة من أجل رعايتهم وتوصيل الخدمات الأمنية اليهم حتي خيامهم في مني وعرفات ، ولا يغمض لهم جفن حتي يحكموا الغطاء ويشدوا اللحاف فوق كل حاج ويتأكدوا أنه نام وينعم بأحلام سعيدة .

أما باقي الوزارات والهيئات والمجالس الشعبية فإن محظوظيها يصطحبهم معه عادة أحد الوزراء الذي يتم تكليفه برئاسة البعثة الرسمية للدولة المصرية ، وتكون مهمة رئيس البعثة عادة هي إصدار بيانات النفي القاطع أن يكون أي مصري قد تعرض لصداق أو أصيب بنزلة برد أو حوضه زائدة ، حيث أن رعاية سيادته للحجيج لا تترك لهم فرصة التعرض لتيار هواء بارد أو فيروس شارد ، ولن

نتحدث عن الموت حرقاً أو دهساً أو عصراً ، ولا للإصابة بالأوبئة كما يحدث لغيرهم من حجاج الدول التي لا تقدم الرعاية لمواطنيها !

لا أعرف متى نترك الهزل ونكف عن استغلال شعبنا . . إن الولايات المتحدة تصدر إلى العالم عشرات الملايين من السياح كل عام منهم عشرين مليون يذهبون إلى إنجلترا وفرنسا فقط . . ومع هذا لم نسمع أن جهاز ال إف بي أي قام بإرسال بعثة رسمية إلى باريس ولندن ، ولا قامت وزارة الصحة الأمريكية بشحن عشرات الأطباء من الدواء مع أطبائها وعمرضها ليقموا معسكر الهمة بالشانزليزية أو بميدان الطرف الأغر . . ذلك أن أي دولة ذات سيادة تكون مسؤولة عن حفظ الأمن لمواطنيها وزوارها ، كذلك تكون مسؤولة عن توفير الرعاية الصحية لمواطنيها وزوارها ولا أعتقد أن المملكة العربية السعودية قد شكت من عجزها عن رعاية الحجاج من كل جنس ولون .

و الحقيقة المؤسفة هي أن الحجاج المصريين لا يعرفون شيئاً عن البعثات التي تذهب لتكون في خدمتهم . . هم مثلنا يقرأون عنها ويرون صور رؤسائها في الجرائد فقط ! والحجاج يتندرون علي وزارة الأوقاف التي تذهب لتبيع الماء في حارة السقائين حيث أن المملكة هي المنتج الرئيسي للوعاظ والدعاة ولديها منهم ما يكفي الاستهلاك المحلي والتصدير ، والداعية المصري يظل محلياً حتي يتم تعميده في الفضائيات السعودية فيظهر ليحذرنا من سرقة السلك بتاع الشيخ صالح !

ومن الطبيعي أنه إذا مرض الحاج المصري أو غيره أثناء أداء المناسك فإنه يذهب إلى المستوصف السعودي وتحمله سيارة الاسعاف السعودي ، وإذا فكر في البحث عن البعثة المصرية لمات ودُفن في البقيع قبل أن يعثر عليها !

ثم ما معني أن تقوم وزارة الداخلية بتنظيم حج ما يسمى بالقرعة ، وما معني أن تقوم هذه الوزارة السيادية المثقلة بالمهام والأعباء بمنافسة وكلاء السياحة فتقوم بحجز الفنادق والمساكن وحجز تذاكر الطيران والاتفاق مع المطوفين . . ما معني هذا؟ وهل هذه هي وظيفة وزارة الأمن؟ . . وإذا كان الرد بأن حج القرعة يكون منخفض التكاليف نسبياً ويساعد راغبي أداء الفريضة من الفقراء ، فإن هذا القول هو الهزل بعينه أولاً لأن الفقراء غير مكلفين بالحج ولن يسألوا عنه وثانياً لأن الدولة التي رفعت الدعم عن كل شيء وتركت الناس تموت من نقص الغذاء واختفاء العلاج ليس معقولا أن تقوم بتقديم الحج المدعم عن طريق وزارة الداخلية !!

ثم هل تعلمون أن الحج السوبر الذي يتيحه الأمراء السعوديون لنظرائهم المصريون كل عام ،

والذي يخلو من أي مشقة ويعقبه العودة بالهدايا والنفحات . . هل تعلمون أن مصر تدفع ثمنه من كرامتها ومن سيادتها وقرارها الذي صار يتخذ في الرياض .

و لا أعتقد أن الأمر في حاجة إلى فتوى من عالم جليل أو شيخ متفقه ، إن الأمر واضح وضوح
لشمس وبسيط لدرجة أن أي سمكري أو عجلائي أو مبيض محارة يملك قلبا نظيفا وفطرة سليمة
يمكنه أن يشرح للسادة الأكابر أن السفر علي حساب شعب مصر الفقير هو حرام شرعا وهو إثم
عظيم لو كانوا يعلمون . . وهم بالتأكيد يعلمون !

وطه في السبئسة

من بين أخبار هذا الأسبوع اللافتة الخبر المتعلق برفض الولايات المتحدة الأمريكية واسباني منح تأشيرة دخول للسادة الشيوخ الذين رشحهم الأزهر للسفر هذا العام خلال شهر رمضان. رغم توجيه الدعوة لهم من المراكز والجمعيات الإسلامية بالبلدين.

ما الذي يمكن أن يثيره خبر مثل هذا في النفس؟ . . فيما يخصني فقد أثار عندي شعورين متناقضين أولهما بالاستياء من الغطرسة الغربية تجاه رجال دين لا يوجد منهم أدنى خطورة تبرز رفض منحهم التأشيرات. لكن من جهة أخرى خالطني شعور بما يشبه الارتياح. . . ذلك أنني ومن خلال تجربتي الشخصية وما شهدته بنفسي لسنوات في الخارج أصبحت أتمني ألا تقع هذه الزيارات لا في رمضان ولا في غيره، لأن الأزهر لم يعد هو الأزهر ورجاله لم يعودوا رجاله!

ولا أستطيع أن أري أن رقة الحال يمكن أن تكون عذرا للسلوك الذي يؤخذ علي بعضهم حين يتفرغون طوال الشهر الكريم لجمع الهدايا والأموال وكل ما يمكنهم أن يحصلوا عليه بسيف الحياء من أفراد الجاليات العربية، وتنافسهم مع بعضهم البعض في هذا المضمار، ومحاولة كل منهم الاستئثار بالغنائم وحده، ونشر الشكوك حول زملائه، وبصل الأمر أحيانا إلى تصرفات مزرية بالنفس والكرامة إلى أبعد حد من أجل تحقيق الهدف الخاص من رحلة القنص هذه!

و الأمر المدهش أن المراكز الإسلامية بالغرب ليست خالية من علماء أفاضل من كل البلاد الإسلامية الذين استوطنوا واستقروا بالخارج، ويديرون شئون هذه المراكز بكفاءة واقتدار، ومعارفهم الفقهية تبعث علي الإعجاب، ولم يعودوا يحتاجون إلى من يأتيهم من مصر أو غيرها. . خاصة وأن المواقف السياسية لمصر في السنوات الأخيرة، ودعمها لكل من قاموا بالعدوان ضد العرب والمسلمين في أي مكان، واندفاع الأزهر في تأييد ومباركة كل المواقف الرسمية مهما بلغت من شطط. . كل هذا قلل من قيمة كل ما يأتي من مصر بدءا من المدرس والطبيب حتي البطاطس المصابة بالعفن البني!

غير أن ما يحدث هو الإلحاح إلى حد التوسل في الحصول علي خطاب دعوة من المراكز الإسلامية، أو خطاب تزكية من السفير المصري يشهد فيه بأن فلانا قد أبلي بلاء حسنا وأن الجمهور هنا قد أحبه دون غيره ويريده أن يأتي في العام القادم!

و للقارئ الكريم أن يتخيل أن هذه المحاولات يقوم بها كل منهم علي حدة من خلف ظهر

أقرانه ومع نفس الشخص، الأمر الذي يجعلهم مادة للتندر بعد رحيلهم!

ولما كان الشيء بالشئ يذكر، فلأمانة ليس الشيوخ وحدهم الذين يذهبون إلى مهمات في الخارج وفي أذهانهم أجندة خاصة بهم لا علاقة لها بالمهمة التي قدموا من أجلها، فكل موظفي الحكومة والوزارات والهيئات العامة حين يسافرون في مأموريات ومهام بالخارج تجد حالتهم تدعو للرتاء .. فإذا كانوا بصدد حضور اجتماع دولي تشارك به وفود دول عديدة، هنا تجد الوفود الغربية وقد حضرت مستعدة وبحوزة أعضائها أجهزة الحاسب الشخصي، والاحتمالات كلها قد قتلت بحثاً وهناك سيناريوهات أساسية وسيناريوهات بديلة وكل فرد يعرف دوره في الاجتماع، وعملية " الدهلزة " وتنسيق المواقف قد تمت في الليلة السابقة على الاجتماع، ولا يبقى غير عرض الاقتراحات التي تتحول إلى توصيات يتم مناقشتها ثم فرضها لتصبح ملزمة لكل من حضروا الاجتماع، دون أن تتاح لجماعتنا الفرصة للمشاركة أو المساهمة أو الاعتراض .. ذلك أنهم قد حضروا وثقتهم بالنفس معدومة، وثقتهم بمؤسساتهم أكثر انعداماً، وهم في الغالب مشغولون بأمر آخر أكثر أهمية من الاجتماع وما يدور فيه هو كيفية الحفاظ على بدل السفر وعدم إنفاق دولار واحد منه ما أمكن والعودة بقرشين للعبال، وهذا يقتضي بطبيعة الحال التزود قبل الرحلة بالأطعمة الخفيفة التي تعيش كالجبن الرومي والبسطة والعيش المحمص وغلاية الشاي وكيس السكر .. وهذه الأشياء تعتبر من الأساسيات في سفريات موظفي الدولة في مهام بالخارج .. وكثيراً ما تمت مصادرة التموين بالمطارات، خاصة إذا تعفن من طول الرحلة أو كان يحتوي على مأكولات نفاذة الرائحة كالفسيح أو المش!

ثم نأتي إلى موضوع الإقامة بالفندق حيث ينزل كل ثلاثة أو أربعة في غرفة واحدة وطبعاً من وراء ظهر الأوتيل، ولن أتحدث عن الحسرة التي يشعرون بها حين يمرون بأحد مطاعم الفندق ويشاهدون أعضاء الوفود الأخرى يجلسون لتناول العشاء ..

لا أقصد بالطبع أن أسخر من فقر أهلي المصريين (فلقد مررت شخصياً بكل هذا) لكنني أفكر حقيقة كيف يمكن لوكيل الوزارة الذي يضع في غرفته في الفندق برطمان جبن قديمة ينتظره على الغداء .. كيف يمكن له أن يجلس مع نظيره الغربي أو الشرقي ليناقد بنود عقد أو بروتوكول أو اتفاقية ترتب حقوقاً والتزامات للطرفين .. سأفترض أن هذا الرجل شريف ولن يتربح من بيع حقوق وطنه .. لكنه مع هذا لن يكون مدافعاً صلباً عن هذه الحقوق لأنها بالأساس لا تشغل تفكيره .. وسوف يدفع الوطن ثمن الحرمان الذي فرضه على هذا الرجل عندما تبدأ آثار ما وقع عليه في الظهور مع بدء تنفيذ بنود العقد أو الاتفاقية ..

علي حساب صاحب الملحد

مسكين الشعب المصري . . هو ليس منكوبا فقط في من يحكمونه ، لكن حظه مع نخبته وقادة لرأي لديه لا يقل سوءا ، وأشعر أن الجميع يستغلونه ويرتزقون من المتاجرة بعذابه .

منذ عدة سنوات كنت في نيويورك عندما هاتفني صديق عزيز وأخبرني بأنه قادم غدا إلى أمريكا للمشاركة في احتفال بتسلم مصر قطعة أثرية تم استردادها إيدانا بعودتها للوطن ، وأن وفدا مصري كبيرا يضم كتابا وصحفيين ومشتغلين بالفكر والثقافة وبالطبع رجال الآثار سيحضر إلى مدينة طلائطا حيث الحدث الكبير ! .

و رغم أنني لم أفهم مغزي المناسبة ولا معناها ولا سبب وجود الأسماء التي ذكرها لي في حدث كهذا ، إلا أن فرحتي بالمكالمة ورغبتني في لقاء هذا الصديق جعلتني أقرر أن أطير إليه وألقاه هناك . خصوصا وأن مجموعة من الأصدقاء والمعارف كانوا ضمن المجموعة .

توجهت من المطار مباشرة إلى فندق الريتز كما أخبرني صديقي ، وأدهشني أن تكون الإقامة بهذا الفندق الباذخ المعروف بمستواه الفاخر وأسعاره المرتفعة . وهناك التقيت بجمع كبير من أهل الفكر والصحافة والإعلام وممثلين للصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون . وجدت أيضا عدد من أركان السفارة والقنصلية ومسؤولي المكاتب الإعلامية والثقافية والتجارية لمصر . أفضيت إلى صديقي بدهشتي من أن ترسل مصر الفقيرة البائسة علي نفقتها كل هذا الجيش الجرار في مناسبة هي في أحسن الأحوال عادية وكان يكفي فيها مسؤول من هيئة الآثار ، فأخبرني بأن مصر الدولة لا علاقة لها بهذا الحدث وإنما يتولي الأمر كله أحد رجال الأعمال ممن لهم بيزنس في مصر ومثله في أمريكا ، وأنه قد دعا كل هذا الجمع علي نفقته ودفع لهم تذاكر الطائرة والإقامة الكاملة ، علاوة علي مصروف الجيب .

قلت له إن هذا أسوأ بكثير . . وأعتقد أن إقامة الصحفيين ورجال الإعلام علي نفقة مؤسساتهم هو أكرم وأدعي لاحتفاظ المرء بحياده وكبريائه في أدائه المهني . أما الحال هكذا فقد تحول كل أصحاب الأسماء الكبيرة من قادة الرأي إلى مندوبي إعلانات وموظفي علاقات عامة يعملون في خدمة رجل الأعمال هذا . طلب مني صديقي أن أهون علي نفسي لأن الأمر لا يستحق هذه

الحدة، فرؤساء المؤسسات الصحفية يقومون منذ سنوات بالحفر العميق وقد "لهطوا" كل المنهبا وتركوا الصحفيين يتدبرون أمرهم بمعرفتهم . . من يستطيع أن يجلب إعلانات فليجلب ومن يستطيع أن يصادق تاكونا ويتخذة راعيا رسميا فليصادق، والحياة في النهاية لا بد أن تجد مخرجا وتمني صديقي أن يقوم كل رجال الأعمال باصطحاب الاعلاميين في رحلات خارجية حيث الأكر والشرب والأنس والفرقة!

ثلاثة أيام كاملة تواجدت فيها مع كتاب مصر وصحفيها وقادة الرأي بها، شهدتهم يجلسون في المطعم يأكلون كمن خرج للتو من مجاعة جنوب الصحراء، وأما عن السهر فقد أرغموا البار علي أن يظل مفتوحا حتي الفجر، والفاتورة مفتوحة وما عليك سوى أن توقع وتكتب رقم الغرفة . . وكله علي حساب الممول الكريم . ولا أنكر أن الأصدقاء قد تطفنوا وعرضوا علي أن يتحدثوا إلى "صاحب الليلة" فيضميني إلى الفاتورة، حيث لاحظوا أنني الوحيد بين النزلاء الذي يدفع لنفسه ويقيم علي نفقته الخاصة . شكرتهم علي الأريحية والذوق ورفضت العرض الطيب . وأعترف أنني لم أندم أبدا علي قرارى هذا خاصة عندما مر من أمامنا رجل الأعمال صاحب الأيادي البيضاء وكنا نجلس في ردهة الفندق، ووجدت الرجال الكبار والنساء الفضليات يقفون انتباه وابتسامات واسعة تملأ وجوههم لتحية الرجل، وقد حياهم في لطف وركب سيارته من أمام الفندق . وأكدت لي هذه اللحظة الفارقة معني لم أشك فيه لحظة . . أكدت لي أنك تكون حر بقدر استغنائك، إذ وجدت نفسي الشخص الوحيد الذي ظل جالسا بمكانه ولم يقف أثناء مرور المحسن الكريم .

و أنا لا أحكي هذا من باب التفاخر، لكن لأنني شعرت وقتها أن مصر ليست بخير، وأن الكثير من كُتابها وحملة مشاعل التنوير بها ليسوا كما يظنهم الناس الطيبين . ولا أستطيع أن ألوم رجل الأعمال الشاطر علي إدارته الناجحة لأعماله وقدرته علي استقطاب رجال الفكر والإعلام، خصوصا وأن كل النفقات التي دفعها والتي بلغت ملايين الدولارات كلها مخصومة من الضرائب في أمريكا، أي أنه لم يتكلف شيئا! أقول أنني لا ألومه علي شطارته، لكني ألن الفقر و ألن الانسحاق الانساني الذي يجرد الانسان من اعتداده بنفسه ويجعله أسير السيد المانع .

و في الوقت نفسه أرثي لحال المواطن المصري العادي الذي أسمع أحيانا يتحدث بفخر عن الكاتب الفلاني الشجاع أو الصحفي العلاني الجسور، وأضحك ملء فمي ولسان حالي يقول للمواطن المسكين: لقد شاهدت بأم عيني بطلك الهمام مصطحبا زوجته يقومان بالشوينج

ويستمتعان بالإقامة المجانية علي حساب صاحب المحل في رحلة أطلانطا، بينما صاحب محل حقيقي أي المواطن المصري يغط في نوم عميق دون أن يدري أن كتابه المخبوئين موزعون بين باحث عن كرسي علي الطائرات الرئاسية يأخذه إلى حيث الأسمطة المليئة بالأوزي والبعور، أو ملتبس نعزاء في صحبة رجل أعمال كريم، أو... يلتقط الحب في عشة الوزير الفنان!

اللبصوب وأصدقائهم اللبصوب

كتب الدكتور جلال أمين يصف بعض طبائع المصريين المثيرة للحيرة فقال: "إستعداد مدحش لنصبر وتحمل المكاره، وعزوف عن مواجهة الأمر المعوج ووقفه عند حدّه، وتسامح أكبر من نلازم مع المخطئ، واستعداد للمجاملة حتي عندما تكون المجاملة مكروهة أو بالغة الضرر. ويزيد هذا الاستعداد المدحش للتسامح والصبر والمجاملة عندما يكون الشخص المطلوب مجاملته أو الصبر عليه متميماً إلى شريحة من الشرائح الإجتماعية العليا وعضواً من أعضاء الطبقة الممتازة."

جال هذا كله بخاطري بينما كنت أجلس علي مائدة للعشاء في إحدى عواصم الغرب نلتية لدعوة رئيس الجالية المصرية بحضور السفير المصري ونخبة من أساتذة الجامعة والعلماء والأطباء من أصل مصري الذين هاجروا واستقروا في هذا البلد منذ سنين.

كان نجم السهرة المقام علي شرفه هذا الحفل هو أحد المسؤولين الرسميين الذي يطيب له أن يقدم نفسه باعتباره ينتسب لأصحاب الفكر والثقافة، ولهذا فقد اعتمد عليه أهل الحكم في محاولة لتبييض وجه النظام، ودفعوا به لشاشات التليفزيون وصفحات الجرائد مُنظراً وفيلسوفاً يبيع الوهم ويبرر الفساد وينشر بضاعته العطنة بدأب وإصرار عجيبين، حتي أصبح إسمه مقترناً لدي الناس بالضجر وثقل الظل.

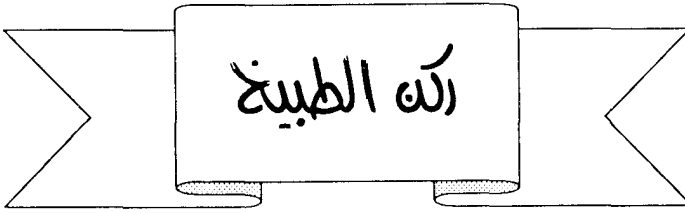
أخذ الضيف يتحدث ويتنقل من موضوع إلى موضوع وسط مجاملات الحاضرين وترحيبهم.. قام بالحديث عن السياسة المصرية داخليا وخارجيا، ولم ينس أن يتندر علي حُكُام مصر السابقين، كما تناول زملاءه الوزراء بالسخرية والتجريح، وعلي مدي أكثر من ساعة لم يكف عن الكلام والثرثرة.. لغو وكلام مُعاد سبق ترديده مئات المرات.. أقول لكم الحق لقد شعرت بالإختناق وبالرغبة في مغادرة المكان ولم يمنعني غير أن الضيف تفضل وأبدي استعدادة للإجابة عن أسئلة الحاضرين.. استبشرت خيراً وأملت أنهم سيمطرونه بأسئلة تحرجه وتكشف تهافته وخواءه، وحلمت بأن أراه مرتبكاً في دفاعه عن كل خطايا الحكم، لكن خاب أمني.. كل الأسئلة رقيقة، ساذجة، سخيفة ولا تمس أياً من القضايا الحقيقية التي تشغل المصريين، مع أنني أعلم أن هؤلاء الناس جميعاً قد هاجروا وتركوا الوطن منذ سنوات بعيدة بعد أن خنق أحلامهم، وكلهم حققوا نجاحات كبيرة ليس لهذا الرجل أو لحكومته فضل فيها، بالعكس كل الفضل كان لفرارهم من

وطن يحكمه أمثال هذا الرجل ، وهم علي علم تام بحقيقة الأوضاع المساوية في مصر ، ومع هذا يحاملون الرجل ويتوددون إليه ، ولم يكن ينقصهم سوي أن يُخرجوا أو توجرافاتهم ويطلبوا توقيعه !

تذكرت ما قرأته للدكتور جلال أمين عن الشخصية المصرية وشعرت بالأسف لهذه الشخصيات المرموقة التي تحيا في وطن حر يستطيع المرء فيه أن يناقش حكماءه وأن يعزلهم ويسجنهم أيضاً إذا انحرفوا ، ومع هذا تهزمهم جبناتهم في مواجهة مسؤول تافه يجلس معهم بعيد عن نفوذه وهيلمانه وأمن مركزه . استأذنت في طلب السؤال وقلت له : لعلك تعلم أنه هنا في هذا البلد يقبع عشرات من المجرمين الهاربين من مصر الذين فروا بأموال المصريين بعد أن اقترضوا بدون ضمانات من البنوك ، فقال : نعم أعلم . . قلت له : ولعلك تعلم أننا لا نستطيع استعادتهم إلى مصر نتيجة أن الأحكام الصادرة ضدهم بالسجن هي أحكام صادرة من محاكم غير طبيعية (عسكرية أمن دولة . . الي اخره) ومن المعروف أن الغرب لا يعترف بهذه المحاكم التي لا تتوفر به ضمانات العدالة ، كذلك المتهمون بارتكاب أعمال ارهابية . . الأحكام الصادرة ضدهم من غير القاضي الطبيعي يجعلها أشبه بالأوامر الإدارية التي لا قيمة لها ، فمتي نتخلص من هذا النوع من المحاكم حتي نستطيع استعادة أموال مصر من اللصوص الهاربين ؟ . . شكرني الرجل علي هذا السؤال الهام (طبقاً لقوله) وشرع يتحدث عن ذكرياته عندما كان طالب بعثة في الخارج وحدثنا عن علاقاته الدولية وصدقاته بقيادة العالم ، وعن نفوذ الولايات المتحدة وتأثيرها الحضاري ، ونظره إلى حال مصر قبل الرئيس مبارك وحدثنا عن صلاح نصر وزوار الفجر . . نتحدث عن كل شيء وأي شيء ولم يجب عن سؤالي !

همست بأن أنفجر فيه قائلاً : ما هذا يا عم الحاج ؟ هل حكايتك مع الزمان هذه هي ردك علي سؤالي ؟ . . لكنني تراجعته مدركاً أنه لا فائدة مع هذا الرجل المراوغ في وجود هؤلاء التنايلة الذين لن يساندني منهم أحد . بعدها أخذ الحديث منحي كوميدياً عندما طلب أن يسمع منهم اخر نقطة . وعلت الضحكات والقفشات خصوصاً مع قدوم الطعام . . و نظرنا حيث اتجهت أنظار المسؤول نحو باب المطعم في اهتمام عظيم ، ورأينا شاباً صغيراً في حوالي العشرين من العمر يقترب من مائدتنا ودهشة المسؤول تتسع ثم فوجئنا بسيادته ينتفض من علي كرسيه مهللاً مرحباً فاتحاً ذراعيه من علي البعد . . يا أهلاً يا باشا . . أهلاً يا باشا . . ازاي معاليك . . المتحدث هنا هو المسؤول الكبير وليس الشاب الصغير ! أهلاً يا باشا كيف حالك وكيف حال الباشا الكبير ؟ تفضل يا سعادة الباشا

واجلس هنا بجانبى . وجدت نفسى أنظر فى ذهول إلى صديقى الذى بجوارى والباشا الصغير يجلس بجوار أفندينا ، وسألنا بعضنا فى همس عمن يكون الولد الذى انتفض المسؤول المتخبر لى رؤيته . وانتحي بنا أحد العارفين وأخبرنا أن هذا الشاب هو أخو فلان اللص الشهير الذى سرق قصر وهرب بفلوس البنوك وترك مصر تبكى على بختها المايل مع حكامها وأصدقائهم اللصوص . وعندما تساءلت عما يجمع هذا الشاب وأخيه اللص من ناحية مع رجل السلطة هذا . حكوا لى حكاية كاملة وأظننى سأقصها عليكم فى حديث آخر .



مدسة أبلة نظيرة الصحفية

من المعروف أن الفلاسفة والأدباء وكبار الكتّاب الذين سبروا أغوار الحياة وكتبوا أستاذ المعرفة ووقفوا أيامهم ولياليهم على البحث والقراءة والتأمل . تتميز كتاباتهم دائماً بأنها تثير من الأسئلة أكثر مما تقدم من إجابات .

هذه المقدمة أراها ضرورية لأنني أنوي الحديث عن رجل من هؤلاء وأيضاً لأنني أعلم أن القراء عندما يرون عنواناً يتعلق بحديث الطشة والتخديعة والتقليد قد يقولون : " إنت لسه فاكّر " إشارة إلى أن المقال الذي نشره ممتاز القط في أخبار اليوم بعنوان " حَال الهوموم " قد مضى عليه أكثر من أسبوعين ، ولكن ماذا أفعل إذا كانت كل التعليقات التي تناولته لم تروظمأي للمعرفة ولم تتطرق لجوهر الموضوع ولم تطرح إجابات للأسئلة التي فجرها المقال المدهش ، معظم ما كُتب كان نقداً لاذعاً وسخرية مرة وإتهاماً بالنفاق والمواسة حتي أن الأستاذ بلال فضل لم يعرف ماذا يفعل بعد أن منحه أوسكار المواسة ثلاثة مرات تجيز له الإحتفاظ بالتمثال للأبد ! . لا شأن لي بهذا ولا شأن لي بالأشهر الذين يقولون أن أخبار اليوم صارت تصدر في طشة أولي وطشة ثانية . إن كل ما يعنيني هو أن أستعيد السلام الداخلي الذي فقدته بعد أن إضطربت أفكاري وتشوشت بفعل المقال " الواعر " للكاتب الأكثر وعورة .

عندما يكتب القط أن الرئيس محروم من أكل محشي الكرنب ومحروم من طشة الملوخية بالتقليد ومن الصيادية ويكتفي فقط بالخضار السوتيه فمن حقنا أن نعرف هل هذه معلومات موثقة وحقيقية عن الرئيس أم أنها محض إجتهدات ، فإذا كان الرئيس لا يتناول هذه الأطعمة لأنه لا يستسيغها مثلاً أو لأن معدته لم تعد تقوي على الأكل المسبك شأن كثيرين فإن هذا ينسف مقال القط من الأساس ويجعل إشادته بالرئيس في معرض الإمتناع عن الأكلات المصرية غير ذات معني .

لا بد أن القط يقصد أن الرئيس يفعل هذا من أجل الوطن ، وهذا بالتحديد ما لم أفهمه ، فكيف يكون الإمتناع عن تناول أصناف يحبها المرء ، غير محرمة دينياً ومعدته قادرة على هضمها تضحية من أجل الوطن ؟ وأي وطن ملعون هذا الذي يقبل بجرمان رئيسه من اللقمة ؟ وهل أخبره الرئيس أنه يحب الملوخية ويمتنع عنها لأسباب رئاسية . . هناك أشياء لم يوضحها القط وناشده أن يتكلم . .

إن أنبياء الله جميعاً كانوا يأكلون مما يأكل منه الناس ولم يؤثر هذا على رسالات السيد .
ونعرف أن سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام كان يأكل في اعتدال الثريد واللحم وكل ما يأكده
قومه ، فكيف تتعارض لدى الأستاذ القط أكالات المصريين مع واجبات الرئاسة؟

إننا لا نعتقد أن الرؤساء بهذه الرهافة التي يظنها القط ، فنحن نشاهد الرئيس الأمريكي يشاربه
شعبه إلتهم الديوك الرومي العتافي في عيد الشكر دون أن تتأثر مكانة أمريكا في العالم ، والرئيس
الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران وكما حكى الأستاذ هيكل كان يدعو على الغذاء لتناول لحمة
الراس ، ولم نعرف أن دولاب الحكم الفرنسي قد تفككت ضلفه أو تخلعت قوائمه ، كما أن
الرئيس السوداني الأسبق جعفر نميري كان يتناول الكبد والكلاوي في الإفطار ، ولا نظن ليه
علاقة بالإنقلاب الذي أقصاه عن السلطة . . ولا نريد أن نتطرق ونحكي عن امبراطور أفريقي
الوسطى المخلوع بوكاسا الذي عثروا في ثلاجته على رجال مشغبين وجاهزين على الطهو ، ويقدرون
أنه أطمع ضيوفاً له يوماً أحد وزراءه .

هل تعلم يا أستاذ قط أن معايير هذه قد حرمتني من حقي الدستوري في الترشح للرئاسة
حيث خجلت أن أقدم أوراقتي وأنا الزبون الدائم في الناصرية عند محلات الطحال والمبار
والسمين ، ولقد بدأت أساءل : هل تضاول حفظ المرشحين المنافسين للرئيس مبارك يعود إلي
دناوة " أغلبهم وإيثارهم للطعام على مصالح الوطن العليا؟ لكن هذا القول ينفيه أن أحد من
حضرنا لتقديم أوراقهم كان حافياً ، رث الثياب وشكله لا يذوق الطعام إلا لماماً ومن الواضح أن
سعيه للكرسي الكبير هو بالأساس من أجل أن يفتح على دنيا المحمر والمشمّر والصواني ، فإذا
بالقط يصدمه ويحدثه عن الحرمان والخضار السوتيه .

من الأشياء التي لم تكن واضحة أيضاً هل هذه القيود بتعين فرضها على كل رجال الحكم أم
أنها قيود رئاسية فقط ، وما موقف الوزراء والمحافظون وكبار رجال الدولة وإمكانية أن " يضربوا
كشري بالشطة أو حواوشي ملتهاً مثلاً؟ ، وإذا نحينا الكرب جانباً . . ماذا عن بقية المحاشي بتنجان
وكوسة وفلفل ، وهل يسري الحظر على الملوخية بنوعيتها الخضرا والناشفة؟ وما حكم الحبيزة؟
وهل نأخذها بذنب الملوخية نتيجة القرابة؟ خاصة وأنها تتضمن أيضاً نوع من الطشة ، وما موقف
الطواجن خاصة إذا إمتلأت بالعكاوي والمخاوي والكوارع؟ وماذا عن الفتة بالخل والثوم وأسياخ
الكفتة وورقة اللحمة بالبهار وورق اللاوري وجوزة الطيب .

نحن نحسن الظن بالأستاذ ممتاز القط ولا نساير من يوجهون اليه الإتهامات ، فقط نرجو أن
يرشح لنا ما استغل على عقولنا الصغيرة ونحن نشق أنه يدشن مدرسة صحفية جديدة ستحتاج
بعض الوقت حتي " تتسبك " وعليه أن يحتمل رزالة الجهلاء والحمقي فهذا هو قدر أصحاب
رسالات أمثال جاليليو وكارلوس البرتو و . . زكي جمعة ، ولن يمر وقتاً طويلاً حتي يمتلئ الوطن
تلاميذ المدرسة الصحفية الجديدة . . مدرسة أبلة نظيرة .

ع الدنيا إلا هسقط كبدنا

من ألد وأمتع المقالات التي قرأتها في الفترة الماضية ما كتبه الأستاذ محمد علي إبراهيم رئيس تحرير الجمهورية بعد عودته من رحلته مع السيد الرئيس إلى السعودية ورحلته مع الوفد المصري لسي زار بيروت أثناء العدوان الاسرائيلي .

و على عكس كل من انتقدوا كتابته عن المشويات والسلطات والكنافة باللوز بيننا لبنان عترق ، فإني أرى أن الرجل لو صام عن الطعام وعن الكتابة ما أفاد لبنان بشئ . وأرى أن هناك قبيلة يجب أن نشجع على ممارستها ولأنه لقمع من يؤدونها وهي فضيلة الصدق .

حكى الأستاذ ابراهيم بكل صراحة عن السباط الذي تم مده للسادة الصحفيين في مدينة الباحة سعودية وفي بيروت ، واستفاض في وصف الموائد العامرة بما لذ وطاب من كميات اخرف صغيرة " الأوزي " والجمال الصغيرة " البعور " و التيوس والنعاج المشوية والمسلوقة التي ملأت كان ، و حدثنا عن علاقته باللحوم فوصف نفسه بأنه من الناس " اللحميين " الذين يرفضون حالة لا لحم والذين إذا لم يتناولوا اللحم أبيض أو أحمر - مرة يومياً فإنه يشعر بإعياء وعدم توازن وزغلة ، ولكن من إن تنزل في جوفه قطعة لحم أو دجاج مشوية حتي يشعر أنه استعاد وعيه .كامل وتنبه مراكز الشعور والاحساس عنده وينطلق إبداع العقل . . (ما سلف هو نص كليته عن رحلة السعودية ، أما رحلة بيروت فقد قال عنها : " لم أذق في حياتي مزارت لبنانية بهذه حلاوة ، ربما لأن كل ما كنت أكله من طعام لبناني قبل ذلك كان تقليداً ، أما ما أكلته في مقر رئيس نوزراء فهو الأصلي الوحيد ولن أحكي لكم عن البقلاوة وعجينة اللوز المكسرات . . بصراحة . . يا دلي . ")

لا أكتمكم أن من ضمن أسباب إعجابي بالرجل أن الناس العاديين إذا ما ملأوا بطونهم باللحوم ثم سدوها بالحلويات . . بالتأكيد سيسري الخدر في أوصالهم ويحل عليهم التثاقل والوخم ما قد يدفع بهم إلى المتيسة التي تفضي للنوم والشخير بصوت عال ! ، أما الأستاذ ابراهيم عند تعرضه لهذه التجربة الدسمة (مشويات وسلطات ، تبولة وفتوش ، بقلاوة وعجينة اللوز) فإنه شعر بالصفاء والانتباه مما يدفع ببحور الابداع لتتلاطم على شواطئه !

و أنا لا يخافني شك في صدق ما يقول مع أنه دون أن يدري قد كشف ما يحدث في الرحلات لتي يصاحب فيها الصحفيون السيد الرئيس أو سفرياتهم بصحبة الوفود المصرية ، حيث يتم حمل

الصحفيين إلى المركبة التي تطير بهم إلى وجهة ليست معلومة لهم بالضرورة، في زيارة لا يعرفون عنها شيئاً، ثم يتم إجلاسهم حيث تمد الأسمطة وتفرش الموائد وتري جحافل الخراف المشوية والوز المحمر والبط والفراخ والحمام .. فيأكلون حتي ييشمون، ثم إذا سمعوا النادي ينادي أن حب يا رجال تركوا الأكل والشرب وهرعوا إلى الطائرة التي تعود بهم من حيث أتوا دون أن يشرح لهم أحد شيئاً! لقد كشف الأستاذ محمد على إبراهيم بصدقه ورفضه للإدعاء ما يفعله زملاءه الصحفيين من اختراع لقاءات لم يجروها وإدعاء حضور مباحثات لم يحضروها وكتابة تحليلات يزعموا أنها من وحي رحلتهم السياسية مع أن الرحلة لم تكن سوى محض مأكلة!

لقد أحببت هذا الرجل لأنه كتب عن أشياء محبة الينا عكس زملاءه الذين يكتبون عن شخصيات وأشياء لا نحبها، لهذا فإنني أتمني عليه في زيارته القادمة إلى بلاد الله المختلفة ألا يخبر علينا بالمعلومات والحقائق عن الأطعمة اللذيذة التي سيصادفها .. فإذا حطت راحلته مرة في جنوب شرق اسيا فليحدثنا عن ضفدع الهيمالايا المحمر الذي يأكله الناس في مملكة نيبال ويقدمونه مع الخضار المسلوق والرز على البخار، وإذا عرج على تايلاند ورأي البُرص (الذي نتعامل معه بالشبشب) يغلي في القدور على عربات تقف على النواصي وبداخلها الأبرص والسحالي والجرب السني يفطرون بها مع الأرز فللا يشمتز ولا يحفل . أما إذا هبطت طائرته يوماً في بيرو على المحفد الهادي فلا تفوته المطاعم الشعبية التي تقدم وجبة إحليل الفقمة الشاطئية المغموس في صوص الريحان مما يجعل المرء يقول من قلبه يا دلي!

أما في رحلاته الأفريقية لمساندة الأشقاء وتغطية صراعات القارة السمراء أدعوه للتركيز مع مطاعم اللحوم الصرفة مثل المطعم على أطراف العاصمة الكينية نيروبي الذي يقدم لحم الأسماك والنمر والغزال والنعام، غير أن أغلي ما لديهم هو طبق مخ الشمبانزي بالزبدة الذي يعتقدون في سره البائع لشد العصب . ولن أحدثه عن أوروبا وسلسلة مطاعم " كودي شوفال " أي ذيل الحصار التي يعرفها بالتأكيد وتقدم لحم الخيول الصغيرة مشوية وطواجن وسنجاري .

ولكن مهما لف وطاف وشاف في الخارج لا بد أن يعود في النهاية إلى القاهرة .. وأدعوه بصدق إلى زيارة المربع الأمني الغذائي بوسط القاهرة الممتد من الرويعي إلى درب القطعة والذي يحوي مسمط عربي تسقية حيث الكارع النخاعي الشرح، وبجواره الحويجي ملك سندوتشات اللية، والحلو لا بد أن يكون عند الحوري صاحب البسبوسة الأشهي والأطعم من بسبوسة فؤاد السنيورة في بيروت! . وأنا واثق أن الدسم هناك لن يصل به فقط إلى مرحلة يا دلي .. بل قد يدفع به إلى الاورجازم!

كفري أبو طارق ومهلبية هاني سرور

التقيت أحد الأصدقاء مصادفة في الشارع، فتكرم بدعوتي على طبق كشري عند أبو طارق وسألني: هل تعرفه؟ قلت: طبعاً أعرفه وتستطيع أن تقول أنني شاهد على مسيرة صعوده من صفر أيام عربة الكشري على نفس الناصية إلى أن صار له موقعا على الإنترنت يضع عليه صورته التي يعتز بها ويضعها في صدارة المحل من الداخل كما تحتل واجهة البناية بأكملها.

علق صديقي على مسألة الصورة بامتعاض كأنما استكثر على الرجل أن يفرح بنفسه. لكني لم نساكره اعتراضه وقلت له: صحيح أن صورة الرجل تشي بالسعادة الواضحة على محياه، ونظرة وهو يرونو ببصره للأفق متكئا بذقنه على راحة يده تبدو كنظرة مفكر حدائي أو بعد حدائي نحطتين، لكني في الحقيقة أشاطر الرجل فرحته بنفسه، فهذا رجل يتقن ما يعمل وينشر السعادة على زبائنه. ولئن أرادت هيئة الأيزو أن تجد له غلطة ما استطاعت، فكل مقاديره مطابقة لمواصفات القياسية. عدسه وأرز، حمص شامه وصلسته، مكرونه وتقليته. . كله بالمازورة وجميع المكونات ترقص في القدور بنسب منضبطة في انساق بديع. . لهذا يحق للرجل أن يفرح بنفسه ولا يحق لنا أن نلومه!

قال صديقي: لعلك محق فيما تقول، وبما أنك تشجع اللقمة الحلوة فإني قررت أن أصطحبك حتي نأكل الحلو عند رجل آخر من صناع السعادة طبقا لتوصيفك، ذلك هو هاني سرور صاحب محل طبق مهلبية في البلد، وهو لا يقل عن "أبو طارق" إفتانا بنفسه وإعجابا بصورته. سألته في دحشة: هاني سرور صاحب شركة هايديلينا الذي يقف أمام النيابة للتحقيق في اتهامه بعدم مطابقة منتجاته للمواصفات ووجود عيوب جسيمة بها؟ قال: هو بعينه. سألته: هل هو يبيع مهلبية؟ قال: نعم له محل لمنتجات الألبان يقدم مهلبية فاخرة، ومنذ أن تذوقت منها طبقاً آمنت ببراءة لرجل وأدركت أن من كان مثله لا يمكن أن يغش في المنتجات الطبية لأن الجودة لا تتجزأ.

قلت لصديقي: لا بد أنك تهزل لأن الرجل لا يعمل في منتجات الألبان. قال: تعالي معي وسري بنفسك. وبالفعل اصطحبني معه إلى حي الظاهر. . ولدهشتي الشديدة وجدت المحل كما وصفه تنصدره لافتة كبيرة عليها صورة هاني سرور وتحتها اسمه. . نظرت إلى الصورة فأسرتني ابتسامته وأشاعت في نفسي إحساسا لا يسهل وصفه. . بصراحة لقد خطف الرجل قلبي

بنظرته الحانية كأنما يشجعني على الدخول وتناول طبقين وثلاثة بين مهلبية ورز بلبن وعاشورة .

قضيت و صديقي ساعتين من السحر عند ساحر المهلبية العظيم ، وأحسست أن الزبيب وجـ
الهند فوق سطح الطبق هي فصوص زبرجد ولؤلؤ تضدها صائغ فان يتعامل مع زبائنه بنـ
وحنان .

صارحت صديقي بأنه محق في تقديره لبراءة الرجل لأن مواصفات الجودة في طبق العاشـ
تكشف عن حب جارف للإتقان ، ولا يمكن لمن يبيع السعادة في سلاطين فخار أن يصدر الموتـ
أكياس ملوثة .

و الحقيقة أنني لفرط انبهاري بما أكلت تساءلت : هل مر العضو حيدر بغدادي بتجربة كائـ
أخوضها الآن ؟ هل جرب واحد رز بالقشطة والمكسرات في هذا المحل ؟ أشك . . لأنه لو فعل لكـ
أذاه عن الرجل وسحب استجواباته وأسئلته ، ولا شك أن الدكتور حمدي السيد قد سبقنا وعاشـ
لحظات جميلة في هذا المكان مع سلطانية زبادي على الأقل ، ومنه خرج يعلن على الناس براءة الأـ
هانى سرور ويصرح بأن مصانعه تعتبر فخراً لمصر ويتهم حيدر بغدادي بالعمل لحساب شركات
أجنبية يهملها تخريب الصناعة الوطنية . . كذلك السيد وزير الصحة ربما يكون قد أدرك معدـ
الرجل مع أول قطعة من سندوتش قشطة بالعسل .

أشرت صديقي في أفكاري وذكرته له أن رواية " العطر " للكاتب الألماني باتريك زوسكـ
تحتوي موقفاً مشابهاً عندما اجتمع الناس وقد سحرهم العطر الذي صنعه بطل الرواية وأصدر
حكمهم له بالبراءة لأنه لا يمكن أن يكون قاتلاً بعد أن صنع هذا العطر المعجز .

عند خروجي وصديقي من المحل فاجأنا وجود دكانا آخر يحمل اسم هاني سرور وصورـ
أيضا يبيع الخردوات ، وعند الناصية دكان طرشجي عليه نفس الاسم ونفس الصورة . .
الهي . . ما هذا إن كل المحلات تقريبا تحمل نفس الاسم والصورة ، وهذا ما لم ألاحظه عند قدومي
أبعقل أن يكون الرجل قد اشترى كل المحلات على اختلاف أنواعها وأصبح يمتلك حي الظاهر
بجميع حوانيته ؟ دخلت دكان علاف وسألت الواقف بالباب : قل لي يا عمنا . . هذا الدكان ملك
الدكتور هاني سرور ؟

فقال : هاني سرور مين ؟ هذا الدكان ملكي أنا ورثته عن أجدادي ، فسألته مندھشا : ولماذا إذ
تعلق صورته على دكانك ؟ فضحك وقال : قبل الانتخابات الماضية حضر رجال هاني سرور

يقولوا أنهم سيقوموا بدهان المحل وتركيب يافطة جديدة مقابل وضع صورة الرجل للاستفادة منها في لدعاية الانتخابية ، ولما كانت ابتسامته حلوة كما تري فلم أجد ما يمنع ، وكذلك فعل أصحاب محلات الأخرى . أما الذين طلبوا أن تطلي لهم دكاكينهم دون أن يضع صورته فقد حرمهم من منته ومن صورته !

ودعت صديقي وقد طارت النشوة وتبخرت السعادة بعد أن أصيب خيالي في مقتل . لكنني مع هذا كنت أعزي النفس بأن " أبو طارق " ما زال موجودا وأن صورته المبتسمة تقبع فوق دكانه وأنه - يدهن لأحد . الهوا دوكو !

تُفَنِّكُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

كتب الأستاذ فهمي هويدي، بصحيفة «الدستور» تحت عنوان: «فضيحة في طب الأزهر عن ربة مخزنية أشد الخزي ومؤلة أشد الألم، ملخصها أن أستاذًا بالكلية كان منهمكًا في إلقاء محاضراته، عندما انفتح باب المدرج فجأة، ودخل ضابط وبعض المخبرين، وأن الضابط قد أشار إلى الأستاذ المحاضر بأن ينهي محاضراته، فما كان من السيد الأستاذ إلا أن انصاع لسيادة الضابط، ورسد أوراقه وانصرف!!

بعدها انفرد الضابط بأحد الطلاب لتأديبه وتهديده إلخ. هذا هو مضمون الموضوع، كما يرححه الأستاذ هويدي، الذي بدا مصدومًا بل مفجوعًا من المدي الذي بلغته استباحة الحرمات وهدار التقاليد والأعراف من جانب الشرطة في مصر.

كما وضح التأثير الشديد للكاتب الكبير من موقف الأستاذ الجامعي، الذي كان متوقعًا منه أن يطرده الضابط الذي انتهك حرمة المدرج، وأن يحرر محضرًا لدي العميد ورئيس الجامعة، لكنه لم يفعل ذلك قبل أن يقوم رجل الأمن بإنهاء محاضراته على مرأى من الطلاب دون أي غصاضة!

حقيقة أن الأستاذ فهمي، قد نكأ جرحاً مفتوحاً منذ أن بدأ السباق الرهيب في الحصول على معنم السافهة، مقابل كل ما كنا نعتز ونفخر به في حياتنا، مثل الاعتداد بالنفس والشعور بالعزة بكرامة.

نسألت بيني وبين نفسي، عن السيناريو الذي كان من المتوقع أن يحدث، لو أن الأستاذ قد قام بـ هو منتظر ممن كان مثله، ورفض أن يتم انتهاك محاضراته من قبل الأمن، وهو السيناريو الذي حني الأستاذ عواقبه... لكن تري ما هي تلك المواقب؟ في ظني أن شيئاً خطيراً لم يكن ليحدث، لأن الهواجس في الأمر أكبر بكثير من المخاوف الحقيقية، لكن يبدو أننا أصبحنا نخاف من حرافة!!

فعلي سبيل المثال، لو أن الذي مر بهذا الاختبار كان فرائشاً بالكلية أو عاملاً بسيطاً محدود دخل والتأثير لعذرناه، لأنه ربما يخسر رغيف الخبز المدعم الذي لا يملك غيره، وربما يتم قطع حظ الإمداد والتموين، الواصل بين عربة القول على الناصية ومائدة الأسرة! لكن ماذا كان يضير

الأستاذ الجامعي بكلية الطب، الذي هو بطبيعة الحال طبيب، وطبيب كبير بالضرورة، ومن الأرجح أن له عيادة خاصة أو معمل أو مستشفى، وأن لقمة عيشه لم تكن على المحك، وضمن البُنتيك في البيت لم يكن عرضة لأي هزة.

فلماذا أثار السلامة، وأنهى المحاضرة في هدوء وانصرف؟ هل لأنه علم أن الأمن له الكسب الأولي في الترقيات ورتاسة الأقسام وعمادة الكليات؟ وما الحديد؟ . . هناك أشياء أقيم بكثرة خاصة لمن كان مستوراً ولا يقف على شفير الهلاك.

لكن يبدو أن الأمر في حقيقته أعمق بكثير، وأن المسألة ليست بهذا التبسيط. تذكرت صديق كانت لديه نظرية عجيبة تفسر مثل هذه المواقف، مؤداها أن الإنسان يسعى من المهد إلى النحر للحصول على نصيب عادل من البُنتيك، ثم يظل يسعى للحفاظ على هذا النصيب وتأمينه من الأعداء وتدعيمه ضد غدر الأيام.

ثم عندما يستتب له الأمر، يبدأ في السعي نحو زيادة رقعة البُنتيك على مائدته، حتي لو كانت أكبر من حاجته، وأن هذا السعي المحموم لا يتوقف حتي النفس الأخير، وإليه يعزي كل السوء الذي يخلو من النبالة، ويجنح إلى الاستكانة وعدم الصدام أو مقاومة الظلم الذي قد يترتب عليه. تنقلص قطعة البُنتيك، ويطمع فيها غيره من أكلة اللحوم.

أعتقد أن نظرية «الإسكالوب» التي ابتدعتها صديقي - على طرافتها - تصلح لتفسير كثير من مواقف النخبة، التي تنكرت لكل ما كانت تصدع به رؤوسنا، ومن بينهم بعض أساتذة الجامعة الذين كنا ونحن طلبة نستمع إليهم، فنود لو نخرج في التو واللحظة لنطبق ما تعلمناه على أيديهم.

وتملاً الأرض عدلاً ورحمة، فإذا بالأيام تمر ونجدهم يعملون شماسرجية في خدمة الممالك ويظهر من بينهم ترزية للقوانين في مجال التشريع، يقومون بقص الباترون على مقاس الزبون - يهرعون إلى الحاتي لتذوق كتابه وكفتاء.

كما رأينا من القضاة من يحبون البُنتيك حباً جما ويصدرون الأحكام ونصب أعينهم الفيس المشوي مع صوص الباربيكيو، ووجدنا صحفيين ورجال إعلام يكتبون أشياء تزي بهم الرأي العام دون وجل أو خشية، حتي إن بعضهم لم يحجل من التصريح بحقيقته، فقال في مقابلة قرأه الناس جميعاً إنه من الناس «الحميين» الذين يعشقون اللحوم، ولا يطبقون غيابهات المائدة . . ولو ثواني!

وربما أن هذه النظرية تفسر لي شيئاً آخر قد حرت طويلاً في تفسيره ، وهو لماذا بالمصادفة أن كل بشر الذين عرفتهم في حياتي من النباتيين في كل بقاع الأرض التي زرتها ، الذين يعافون اللحم ويرفضون أكل أي كائن حي ، ويعيشون على الخضر والفاكهة . . لماذا تصادف أنهم كانوا دائماً من النبلاء أصحاب الأخلاق الرفيعة ، ولماذا كانت لديهم دائماً القدرة على اتخاذ مواقف شريفة . ولقدرة على لجم الظالم ووقفه عند حده ، ولماذا اتسموا دائماً بالشفافية والبساطة والكبرياء ؟! أظن أن السبب واضح ، وهو ترفعهم عن كل ما يذل النفس وفي مقدمته . . البُفتيك المشوي !

العَبَثُ اللّٰذِيْ

الحمام جاهز يا باشا

منذ الطفولة المبكرة وهذا الحلم يداعب خيالي ، لم يغب عني أبداً . كنت أشاهد في الأفلام التي يعرضها التلفزيون الفنان زكي رستم أو سليمان نجيب وأحياناً حسن فايق جالساً يتناول الشاي في بيت ساعة العصري عندما يقترب منه الخادم معلناً بصوت جهوري : الحمام جاهز يا باشا .

كان لهذه الجملة مفعول السحر في نفسي وكنت أسرح في تخيل كيف يمكن تجهيز الحمام ، وما نذي يفعلونه بالضبط لجعلوه لائقاً باستقبال الباشا؟ وما هو شكل الحياة وحجم المتعة التي يحصل عليها انسان تجري استعدادات سابقة على دخوله الحمام؟ خاصة وأن الأمر لم يكن يعدو ـ علي ضوْ خبرتي ـ صابونة وليقة وصفحة ماء ساخن مع كوز بلاستيك ، فما الذي يفعله الخادم لتحديد وما الذي يجعله مرهواً كل هذا الزهو وهو يعلن الخبر؟

مع مرور الأيام تبدلت الصفيحة وظهر في بيتنا سخان الغاز والدُش ، ومع هذا ظللت على حيرتي . الماء في المواسير والصابونة على الرف وما على سوي أن أفتح الحنفية و . . أعيش ، فأين دور الخادم الفخم؟ . حاولت أن أشرك أصدقائي في الأمر لعل أحدهم يكون ذا إطلاع ، لكن مِثالي أدهشهم وأثار فضولهم ، وأصبحنا مجموعة تسعى وراء الحقيقة بعد أن كنت وحيداً!

تمر المزيد من الأيام ويدخل البانيو بيتنا مع زمن الإنفتاح وأستبشر خيراً بعد ما أصبحت على مقربة من كشف السر ، لكن . . لا شئ يحدث ، إن ملء البانيو بالماء وحتى بالشامبوهات التي نصنع الفقاقيع لا يحتاج تجهيز أو إعداد ولا يقتضي وجود خادم .

وطّنت نفسي على أن أحيا مع السؤال المورق وطويت جوانحي على الحيرة . ثم دارت الدنيا دورتها وصارت أم تيتو الشغالة تأتي لزيارتنا مرتين في الأسبوع ، فقررت أن أجرب حظي معها وقلت لها ذات مرة دون أن يبدو على الاهتمام : حضري لي الحمام من فضلك يا أم تيتو ، ففغرت المرأة فاهها دهشة وقالت لي : يعني أعمل إيه يا أستاذ . . أشد السيفون؟!

ولما عشت في الخليج لفترة واستعنت بخادمة أسيوية مقيمة ظناً مني أنها قد تعرف ما يحدث في حمامات البيوتات الكبيرة . . طلبت منها تجهيز الحمام ففاجأتني وهزت رأسها بالإيجاب وغابت قليلاً ثم عادت وأعلنت : الحمام جاهز بابا . . رقص قلبي من الفرحه لكن عندما دخلت وجدت

الحمام كما هو ، لا شيء تغير . . الحوض في مكانه ، البانيو هو البانيو ، الليفة منقوشة كالعادة . سألتها : ماذا فعلتي ؟ قالت : لا شيء ، وجدته جاهزاً !

مع مرور السنوات بدا اليأس يتسلل إلى نفسي ، وأصبحت أكثر ميلاً للزهد وقبول الحياة قليلة المتع كما هي . ورغم كثرة التنقل والأسفار ومخالطة شتي الأجناس لم أحصل على إجابة شافية أبداً . حتي عندما عشت في مونتريال وسكنت في شقة تحتوي على جاكوزي كنت أضغط على زر فتفتح الرشاشات ، وعليه لم أجد ما يغري باستخدام خادم لا أضمن أن يكون لديه موهبة وخبرة تجهيز الحمام على نحو مبهر لا أعرفه .

غير أن الحياة التي لا تكف عن إدهاشي حملت إلى مصادفة سعيدة أحييت عندي الأمل بعد أن فقدت طموحي وكدت أستسلم لقدري وأتخلي عن الحلم القديم . . كنت أتصفح جريدة الدستور عدد ٦ ابريل وكان المقال عنوانه "خدم" . . كتب ابراهيم عيسى : " قالها كده وسط ثلاثين بني آدم في الاجتماع الرسمي الفخيم . . أحنى رأسه ووطي ظهره وقال بحروف واضحة فصيحة : أنا خدامك يا هانم . . المذهل أنه قال هذا الكلام أمام شهود وكأنه لا يستحي من نفاقه الرخيص ، والغريب أنه استخدم تعبير (خدامك) وليس تحت أمرك أو حتي في خدمتك . . لأ قالها كدة بالمفتشر وبلا حيا وبمنتهى الصفاقة الذليلة (أنا خدامك يا هانم) طبعاً ليس غريباً بعدها أن يتم تزوير الانتخاب لصالحه بنفس الصفاقة ، فالخدم في حاجة إلى مكافأة " ومضي ابراهيم عيسى يتساءل : " ما الذي يجعل هذا الرجل الذي يجب أن يطلق على نفسه لقب مفكر ينحدر إلى هذا الدرك ؟ ما الذي يدفع شخصاً يوشك الناس أن يعتبرونه محترماً أن يتدحدر به الحال إلى مآل الخدم وخصيان القصور ؟ "

عندما قرأت السطور السابقة اجتاحتني موجة من التفاؤل وأحسست أن دفعات من الريح تندفع في أشربة حلمي القديم ، وأن هذا الرجل هو من انتظرته طوال عمري ، وهو الوحيد القادر على تجهيز الحمام على النحو السلطاني الذي داعب خيالي في الأفلام القديمة ، وندمت على السنوات التي ضاعت مع أم تبتو الجاهلة البليدة أو مع الأخري الأسبوية التي لا يحتوي سجلها المهني سوي على الخدمة في بيوت "فقرين" من أمثالي ! . كان ينبغي منذ البداية أن أبحث بين من خدموا في بيوت باشوات . . أحمذك يا رب .

ولكن مع موجة التفاؤل التي اعترتني انتبعت إلى مشكلة . . هل تراه يقبل العمل في خدمة

رجل مثلي؟ وما الذي سيحصل عليه مني وهو الذي يملك المال والجاه والمعارف الأبية؟ . نصحني أحد الأصدقاء بالألأ أياس لأن مفاجآت الحياة لا تنتهي، وأنه من واقع خبرته فإن مثل هذا الرجل وقد بلغ من العمر أنطعه وأكثره سخافة قد يرغب في التطهر والقيام بأعمال خيرة مثلاً فعل يوسف شعبان في مسلسل الشهد والدموع عندما اختار أن يعمل خادماً بأحد المساجد في نهاية نظاف بعد رحلة طويلة حافلة بالآثام .

لهذا سأظل على أمل . . فقد يفتح العمل في حمّامي للرجل باباً للتوبة ولي باباً للمسرات عندما يقترب مني وأنا أتناول شاي الساعة حذاشر وتلت معلناً الخبر الجميل : الحمام جاهز يا باشا!

سيادتك كوبانية ولا طياري؟!

في فيلم بين السماء والأرض الذي أخرجه صلاح أبو سيف عام ٥٧ مشهد جميل لا نساء . . أستعيده في خيلتي دائماً وأراه يعبر بكل الصدق عن الحالة السياسية في مصر .

كان المشهد داخل المصعد للفنان محمود المليجي الذي يقوم بدور لص وقد أمسك بيد النشال عبد المنعم مدبولي داخل جيبه محاولاً سرقة . . سأل المليجي النشال الذي أصيب بالدعر : كوبانية ولا طياري؟ فقال مدبولي : يعني ايه؟ أجاب : يعني حد مسرحك ولا شغال لحسابك؟ فقال : هب الريح ، بمعنى أنه شغال لحسابه !

من يومها أدركت أن الناس جميعاً لا بد وأنهم يخضعون لتلك التقسيمة التي وضعها محمود نليجي . . كوبانية أو طياري ، دون أن يعني هذا بالضرورة أنهم حرامية أو نشالين .

في الصحافة تجد الصورة أشد ما تكون وضوحاً . . صحافة حكومية يديرها رجال الكوبانية وهؤلاء تم اختيارهم بسبب تسطيعهم الشديد ، وعدم صبرهم على فهم كلام له معنى و كذلك قدرتهم على التعبير البليغ عن فكر الكوبانية الجديد بنفس طريقة شعبان عبد الرحيم وبنفس أدواته تقريباً . بالإضافة إلى صحافة لا تنتمي للكوبانية ، حزبية ومستقلة ، وهذه تشبه ما عبر عنه عبد المنعم مدبولي بتعبير هب الريح . .

فهي وباستثناءات قليلة لا تفعل سوى إرسال رسائل الغزل للكوبانية على نحو يتراوح بين الفج والمستر حتي لو تظاهرت بعكس ذلك . ويلاحظ في الصحف الطياري أنها تعمل في خدمة لكوبانية بشكل أكثر ذكاء وحرفية ، فكتابها لا يتحدثون عن طشة الملوخية والمحشي ، ولا يتغزلون في لحم البعور والبقلاوة بعجينة اللوز ، ومن هنا يدلسون على القارئ الذي لا يعرف حقيقتهم ويوهمونه بأنهم من الأحرار !

ومن هذا ما قرأته مؤخراً لكاتب فخيم بعيد انتخابات مجلس الشوري التي تحدثت عن تزويرها الركبان . كتب الدكتور الأهرامي الاستراتيجي عن أنواع الانتخابات في العالم وعرفها بأنها ثلاثة أنواع : انتخابات حرة يعرفها العالم في الشرق والغرب ، وانتخابات مزورة تعرفها الديكتاتوريات ، ثم انتخابات مصرية تختلف عن الإثنتين السابقتين . طبعاً أراد الكاتب الطياري أن

ينفي عن الانتخابات المصرية أنها مزورة فقام بارتداء روب الباحث وشبشه وتحدث عن خصوصية الحالة المصرية في تدليس لا يليق بالاستراتيجيين ، وقد كان يمكن أن نغفر له لو كان مجرد كاتب تكتيكي ! . كاتب آخر من فصيلة هب الريح يحاول كل أسبوع في مقالته أن " ينكش " جمال مبارك فيمتدحه بشدة ثم ينتقده برفق ويوجه اليه سؤالاً أو اثنين عسي أن يقوم الرجل بالرد عليه . الإنصال به دون جدوي ، حيث أن الكوبانية تمتلئ بأمثاله والخرابة مش ناقصة عفاريت !

فإذا انتقلنا إلى الحياة الحزبية وجدنا الظاهرة لا تقل وضوحاً . الحزب الوطني ومجموعة من الأحزاب التي تعطي أصواتها للحزب الوطني وهؤلاء يمثلون الكوبانية الخربة ، أما بقية الأحزاب فهي طياري تقوم بتلقيط رزقها يوم بيوم وتنطلع إلى فئات الحزب الوطني . . مقعد بالتعيين في مجلس الشعب أو مقعد بالتزوير في مجلس الشوري ، ومخطئ من يراهن على أي حزب يخرج للنور بموافقة لجنة الأحزاب التابعة للكوبانية حتي لو كان برئاسة الدكتور يحيي الجمل وبقيادة الدكتور اسامة الغزالي حرب وعائلته ، لأن ختم اللجنة شبيه بختم السلخانة كما عبّر ببراءة الأستاذ محمد القدوسي . . لا تحصل عليه إلا بعد قطع الرقبة !

و لا يفوتني بالطبع أن أذكر النائب الطياري المعارض الذي تناول الإفطار في معية الرئيس مبارك فخرج يحكي عن الحاجات اللي محشية حاجات التي أكلها عند الرئيس ويشترنا بأن الرئيس الذي تضم مائدته أصنافاً حلوة سيحل كل مشاكل مصر قريباً !

و من الأمثلة المضحكة أيضاً حكاية سفر الدكتور مفيد شهاب إلى باريس الأسبوع الفائت لتسلم جائزة من جهة ما باعتباره أحسن وزير في مصر من واقع أدائه المتميز !! . قيل أن الجهة التي قدمت الجائزة هي أحد المكاتب الرسمية المصرية التابعة للسفارة ولا أعرف إن كان المكتب الثقافي أو الجيولوجي أو الأنثروبولوجي الخ هذه المكاتب التي لا يقوم أصحابها بأي عمل على الإطلاق سوى تكريم أنفسهم أو تكريم الوزراء الذين توسطوا لهم في السفر .

وقالت رواية أخرى أن التكريم كان " طياري " قام به رئيس الجالية المصرية أو جمعية رجال الأعمال ، وأحب هنا أن أؤكد أن المصريين في الخارج يضحكون كثيراً من أمر الجمعيات التي تزعم أنها تمثل الجالية والشخصيات التي تدعي رئاسة الجالية ، وكذا جمعيات رجال الأعمال في الخارج التي تضم بقالين ونقاشين ومواطنين غلبة يعيشون على إعانة البطالة !

الحقيقة أن هؤلاء جميعاً ليسوا أكثر من رجال طياري يلمون بالقرب من الكوبانية بكل فسادها

ونهرؤها على الرغم مما حققه بعضهم من نجاح ، ودائماً في كل عاصمة عربية تجد عشرة أشخاص على الأقل يطبع كل منهم كروت تعارف تحمل صفة رئيس الجالية المصرية ، ولا أبالغ عندما أقول نني أعرف شخصياً أربعة أشخاص يزعم كل منهم أنه رئيس اتحاد المصريين في الخارج . . أي أنه يمثل ما يقرب من عشرة ملايين مصري لا يعلمون عن وجوده شيئاً!

أخيراً فإني أقترح أن نتخلي عن التصنيفات التقليدية في الحياة السياسية مثل ليبرالي ومحافظ أو عمال وفئات ، حكومة ومعارضة ، ونتبنى التصنيف الجديد : كوبانية وطيارى!

أنا مله كافر!

كنت أجلس في البيت أنصفح الجرائد وأقلب محطات الراديو . الصحف كالعادة حافلة بأخبار نغم وتسد النفس . . احتل خبر القبض على الشاب المصري الكندي بتهمة الجاسوسية حيزاً كبيراً في معظم الصحف . استفاض الكتاب في رجم الجاسوس الزنيم (هكذا اعتبروه) ولم ينتبه أحد لظاهرة الخطيرة التي استشرت في الخارج وبالذات في كندا ، وقد كنتُ مشاهداً لها وشاهداً عليها . . ظاهرة اعلان بعض الشباب المصري بمجرد ان يطأوا أرض مطار مونتريال رغبتهم في اللجوء السياسي بحجة أنهم قد آمنوا بالمسيحية ولا يستطيعون العودة إلى مصر حيث سيتم قتلهم !!

نعم هذه هي الصيحة الأحدث في جعبة سماسرة الهجرة الذين يتصيدون الشباب البائس ويرسمون له السيناريو الذي لا يحيب : عليك أن تطلب اللجوء فور وصولك وتعلن أنك قد غيرت دينك وأصبحت مسيحياً ، عليك أن تقنعهم أن الإسلام دين وحشي يعاقب بالقتل من غير عقيدته ، ولا تقلق . . سوف يقتنعون لأن فكرتهم عن الإسلام والمسلمين سيئة من الأساس . والحق أن السلطات الكندية التي تولي اهتماماً كبيراً بحقوق الإنسان تتعاطف بشدة مع هذه الحالات غير مدركة أن صاحبنا لا تربطه بالمسيحية أي صلة ، كما لم تربطه بالإسلام أي صلة من قبل ، وأنه يعلم فقط بالإقامة الجنسية والهرب من وطن لا يعرف الرحمة .

و من بين هؤلاء الذين بدلوا الوطن وغيروا الولاء واستهانوا بالعقيدة لتصيد أجهزة الاستخبارات المعادية من تقوم باغوائهم وتجنيدهم ، بينما الوطن الغارق في خيبته يتجاهل الأسباب التي تخلق المأساة . . يتجاهل الفقر والظلم والقهر ، ويكتفي بلعن المتهم بالتجسس وينسي أصل المشكلة المتمثل في انسداد منافذ الحياة وانعدام الأمل في الغد بعد أن أحكم القراصنة سيطرتهم على البلد .

. لست أدافع عن الجاسوس فهو يستحق الحرق إن ثبتت إدانته ، لكنني أعجب من قدرتنا على خلق الظروف التي تُنبئ الخونة وتجعلهم يتكاثرون وتلقي على رجال استخباراتنا أعباء ما كان أغناهم عنها .

أقلب المزيد من الصحف وأحول مؤشر الراديو فأستمع إلى إعلان فج موجه من الحكومة إلى

الشباب المصري ترجوهم ألا يسافروا إلى الخارج إلا عند وجود فرصة عمل مؤكدة حتي لا يسيئوا إلى مصر . أستغرب من البجاجة وادعاء البراءة . الحكومة لا يهتمها أن يضيع الشباب بالداخل . يزعمونها فقط أن يفضحوها في الخارج عندما تلقي بهم المراكب على شواطئ أوروبا . إن لم يفرقوا _ فيندمجون في أعمال غير لائقة تخرج الحكومة المصرية ، وكأن الحكومة تقدم لهم فرص العمل والحياة الكريمة فيرفضونها ويفضلون " البهدة " !

قصة أخرى مثيرة للحسرة وجدتُ الصحف طافحة بها هي موضوع حلقة " بنات الليل " التي قدمتها هالة سرحان على قناة روتانا واستعانت فيها بفتيات كومبارس من الذين يجلبهن السماسرة للتصفيق في برنامجها ، فقامت بتحفيظهن سيناريو فاضحاً وقدمتهن على أنهن عاهرات يروين تجربتهن مع الرذيلة مقابل مبلغ مالي ووجبة بيتزا !

وقد أدي الأمر كما قيل إلى خراب بيوت الفتيات بعد أن تم فضحهن بالصوت والصورة عندما ادعين على أنفسهن أنهن مومسات .

أنا لا يهمني ما فعلته هالة سرحان ولا يعنيني مستوي برنامجها ولا أساليبها في العمل . كما لا يشغلني اتهمها بالإساءة لسمعة مصر ، فمصر قد ساءت سمعتها من زمان بفعل حكامها . لكن الذي يدفعني للجنون هو حجم الفاقة والحرمان المزوج بقوة التطلع التي تدفع فتيات في مقتبل العمر إلى الإقدام على تجربة مريرة مخوفة بالعار في كل الأحوال حتي لو لم يتعرف عليهن أحد . لقد ذبح الفقر كبرياء هؤلاء الفتيات وأفقدن الحياء الذي يزين الفتاة . ويجرد اشتغالهن " مصنفاتية " في البرامج هو شيء مهين لهن ومهين للوطن الذي أنجبهن .

أقلب المزيد من الصحف بينما يفاجئني الراديو في مصادفة عبقرية بأغنية بديعة للفنان زياد الرحباني بعنوان " أنا مش كافر " . .

يقول زياد :

انا مش كافر بس الجوع كافر

انا مش كافر بس الفقر كافر

انا مش كافر بس المرض كافر والذل كافر

انا مش كافر لكن شو باعمل لك إذا اجتمعوا فَيَا كل الإشبيا الكافرين

ياللي بيصلي الأحد وياللي بيصلي الجمعة
راجعوا الكتب السماوية راجعوا كلام القادر
عم تاكل اللقمة بقمي وأكلك قدامك يا عمي
أنا مقبور بيتي ومش قادر أهاجر
معهم ع الدول الغربية ومبلغ كل المخافر ..
أنا مش كافر

يا الله يا زياد يا رحباني لقد لخصت الموضوع كله على لسان المواطن العربي الحزين الذي يحل
بضيافته قسراً كل أنواع الكفرة من جوع إلى فقر ومرض بينما هو أكثر الناس إيماناً وأكثرهم قناعة
ورضاً .

أزحت الجرائد وأغلقت الراديو وفكرت في الفقر الذي تمنى على بن أبي طالب أن يقتله لو كان
رجلاً ، بمعني لو كان إنساناً يمكن منازلته ، وفكرت في الحكام العرب الذين لم يجرؤوا على محاربة
الفقر أبداً ربما بسبب أنه بدا لهم امرأة . . والأشواوس لا يقتلون النساء .

مذكره صيانة القفا!

بدأ العام الدراسي الجامعي منذ أسبوعين تقريباً، ومع هذا فوجئت بأن إبنى الذي يدخل الجامعة للمرة الأولى لا يذهب إلى كليته ولا يحفل بأن يلحق بالدراسة من أولها. أدهشني موقفه لعجيب هذا، إذ أنني عندما كنت في مثل سنه لم أنم ليلة دخولي الجامعة من الفرحة والتهيب. فما الذي حدث وجعل الشباب ينظرون إلى دراستهم الجامعية بهذا الإستخفاف الذي يصل إلى حد الازدراء؟

نبدأ الحكاية من أولها. في اعتقادي أن الانسان المصري على مدي عصور التاريخ التي مر بها قد تعرض إلى انتهاك آدميته والتعامل معه باحتقار شديد، لدرجة أن الضرب على القفا كان ممارسة يومية يتعرض لها من جانب السلطة وممثليها. لكن الأمر الجدير بالملاحظة أن السلطة على غلظتها وجفائها كانت في الغالب توقر العلماء وطلاب الأزهر، وكان ارتداء الجبة والقفطان -الدال على العلم- يضمن لصاحبه أمناً نسبياً من الإهانة عند التعامل مع السلطة. ولهذا فإن أعداداً قليلة من المواطنين (الأعيان ورجال العلم) هي التي تمتعت بشيء من الكرامة على مدي قرون. ومع هذا فإن المصري لم يفقد الأمل في أن تتغير الظروف ويأتي يوم يتمكن فيه من صيانة قفاه وحمايته من الأيدي الباطشة.

وهنا بالتحديد يكمن الخلاف مع المعادين لثورة يوليو ولا يرون فيها إلا نزقاً وتهوراً ومصادرة ومعتقلات وهزائم. تجربة الثورة تضمنت بعضاً مما سلف بالفعل، لكنها تضمنت بالأساس شيئاً رائعاً لا أدري كيف يغفل عنه الغافلون. لقد أتاحت التعليم ونشرته على أوسع نطاق وأوصلته إلى القرى الصغيرة والأماكن النائية فمنحت الإنسان المصري للمرة الأولى فرصة لطالما حلم بها. منحته إمكانية الصعود الاجتماعي الذي يضمن صيانة القفا! أعلم أن البعض سيقول أن تعذيباً وحشياً قد وقع على خصوم الثورة، وأنا لا أنفي هذا ولا أدافع عن الإجرام، أنا فقط أقول إن ملايين المصريين الذين لم يعادوا الثورة ولم ينازعوها في الحكم قد حظوا بالأمان والكرامة، فاندفعوا لتعزيز المكاسب المفاجئة والحقوق أبناءهم بالمدارس والجامعات. وكان الاندفاع نحو التعليم جنوبياً ومحموماً من جانب الفقراء أملاً في تحقيق المكانة التي تمثل حائطاً لصد العدوان على الكرامة وانتهاك القفا. ومن هنا فإنني كنت أنظر دائماً إلى من يعادون مجانية التعليم على ضوء

ظروفنا هذه على أنهم فاشيست معادون للإنسانية ذاتها، وكان يجدر بهم أن يوجهوا نضالهم .
اتجاه تحقيق المساواة والعدل بين الناس .

ولعلهم يفهمون أسباب انهيار التعليم الفني الصناعي والزراعي والتجاري، وعدد من الشباب عليه إلا مرغمين على ضوء هذه الحقيقة . فالشباب في العالم الغربي في أغلبهم يكتسبون بالمدرسة الثانوية ثم ينطلقون لتحقيق ذواتهم كل فيما يهواه، فيلتحق بعضهم بورشة نجارة ميكانيكا، ويذهب البعض الآخر ليعمل بائعاً في محل أو نادلاً في مشرب أو كمسارياً في ترام . وليس القليل هم الذين يذهبون إلى الجامعات لاستكمال تعليمهم، على الرغم من أن التعليم الجامعي لديهم مجاني أو شبه مجاني . . ذلك أن المساواة بين الناس وسيادة القانون هي التي تضمن كرامة الإنسان وليس الشهادة الجامعية أو المركز المرموق، على العكس من الحال عندنا حيث لا قانون ولا مساواة ولا احترام لأي قيم إنسانية، ومن هنا فإن الدعوة إلى الإقبال على التعليم الفني وسائر الجامعات لم تجد إلا السخرية من جانب المواطنين الذين يعلمون أن دبلوم الصناعات لا يغري بالعدوان ! .

كل ما سبق كان ينطبق على حياتنا حتى نهاية الثمانينيات . . كانت الشهادة الجامعية مصدر فخر للأسرة، وكان الرجل يقوم بوضع شهادات أبنائه داخل براويز أنيقة ويعلقها على الحائط في الصالون كرمز لنجاحه في أداء رسالته وصيانة قفا العائلة إلى الحد الأقصى .

ثم انفجرت في وجوهنا الشروات الفاحشة مجهولة المصدر، وانفتحت بوابات الجحيم ورأينا طائفة من الناس تستولي على كل شيء فتبني المتجعات الفاخرة وتسكن داخل حصون لها أسوار تحجبها عن المصريين، وترسل أبنائها للتعليم في أمريكا وكندا، ورأينا المصانع والشركات تباع بتراب الفلوس والموظفون والعمال يجلسون في البيوت، والتعليم ينهار في الجامعات بعد أن انهار في المدارس، ورأينا السلطة المتعجلة في بيع ممتلكات المصريين تمارس أقصى درجات الوحشية في التعامل مع المواطن العادي خشيته أن يعترض على البيع، ورأينا قضاة ومحامين وأطباء ومهندسين يداسون بالأحذية وصار قفا الجميع مستباحاً، وأصبحت الهجرة هي السبيل الوحيد لحماية الكرامة الإنسانية .

وهكذا سقطت الشهادة الجامعية من عليائها بعد أن فقدت قيمتها في منح صاحبها عملاً محترماً ووجاهة اجتماعية ولم تعد الجامعات تؤدي الدور الاجتماعي الذي طالما لعبته بإدارة كمراكز معتمدة لصيانة القفا ! .

هل تعتبر مخالفتك في الرأي حملاً؟

ما الإجابة التي ستحصل عليها إذا سألت أي إنسان عما إذا كان يعتبر من يخالفه في الرأي حملاً؟ . . من المؤكد أن أحداً لن يوافق على هذه الصيغة، وسوف يسارع الجميع إلى النفي القاطع . . سيهاجمك أهل التنوير ومنظمات المجتمع المدني وجميعات حقوق الإنسان ويرفعون في وجهك مقولة فولتير الشهيرة: " قد اختلف معك في الرأي، لكنني على استعداد لدفع حياتي ثمناً لأن تقول رأيك"، أما المتمسكون بالتراث فسوف يذكرون قول الإمام الشافعي: " رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب" وسوف يؤكدون على أن اختلاف الفتباء رحمة . . أما ذوو المزاج الفني ومحبو الشعر فقد يجدون لدي صلاح جاهين رباعية جميلة تتحدث عن مزايا الاختلاف تقول: لولا اختلاف الرأي يا محترم . . لولا الزلطين ما الوقود انضرم . . ولولا فرعين ليف سوا مخالف . . كان بيننا جبل الود كيف اتبرم؟ عجبني . وطبعاً قبل هؤلاء جميعاً سوف يأتي الإسلاميون بأيات قرآنية محكمة وأحاديث نبوية شريفة تبين موقف الاسلام الذي يؤيد حرية الاعتقاد ويمنح غير المسلمين حقوقاً ممتثلة .

و حتي الحزب الوطني سيتحدث رجاله عن الرأي والرأي الآخر وأهمية وجود المعارضة القوية لتعميق الديمقراطية . ولن تعدم وجود مثقفين ومفكرين يتحدثون حديث العقل والمنطق . . أحدهم قال لي ذات يوم: " أنا لا أعتقد أبداً أن من يخالفني في الرأي هو بالضرورة جاهل أو حمار . لكنه قد يكون سلك دروباً ومسالك في الحياة سوي التي سلكتها أنا، وبالتالي فهو لم يعيش تجاربي التي صاغت آرائي وشكلت قناعاتي، ومن يعلم . . ربما كان هو على حق " .

يا سلام . . منتهي الحكمة والتعقل لولا أنني أعرف أن الرجل قد سحق في طريقه للصعود كل من اختلف معه!

كل الأحزاب والهيئات والمؤسسات . . كل الأفراد على تباينهم سيؤكدون لك أنهم يحترمون الحق في الاختلاف وأنهم لا يمكن أن يتهموا من يختلف معهم في ذكائه أو في خلقه لا سمح الله .

لكن ما أحلي الكلام وما أتعس الممارسة . . كلهم كذابون، لا أحد منهم يطبع كتابه المقدس أو يستلهم خطي فيلسوفه أو يتمثل قول شاعره . . كل ألوان الطيف السياسي والطائفي والفئوي لا يعتقدون فقط أن من يخالفهم في الرأي حملاً . . إنهم في الغالب يرونه دون الحشرة . . الحزب الوطني مثلاً ينظر إلى معارضيه على هذا النحو، ولهذا يدهسهم دون أي شعور بالندم .

ونقابة المحامين يدافع جناح بها عن المحامي مرتضي منصور ولا يبالون بمحام آخر هو ممدوح اسماعيل ، والجناح المضاد له في النقابة يفعل العكس . الإخوان المسلمون يقيمون الدنيا من أجل الإفراج عن خيرت الشاطر (و هذا حقهم وواجبهم بالتأكيد) لكن صوتهم يخفت إذا كان المعتقل من حركة كفاية ! وحركة كفاية لم تهدأ دفاعاً عن الناشط السياسي محمد الشرقاوي (و هو يستحق بالتأكيد) بينما لم تتحرك من أجل عصام العريان .

والسلطة في مصر تضطهد المصريين جميعاً ، لكنها تدفع الأقباط تحديداً للهجرة الجماعية بعد تنامي التعصب واستمرار التمييز . ومن جهة أخرى الكنيسة المصرية لم تعترض أبداً على سجن المصريين بالآلاف دون أحكام قضائية لمجرد أنه ليس بينهم مسيحيون !

كل الذين يدعون مناصرة حقوق الإنسان يقصدون إنساناً بعينه ينتمي اليهم . . الي حزبهم أو طائفتهم أو قبيلتهم ، وأما المختلف عنهم فليذهب إلى الجحيم . أنظر إلى أبسط م السادة " المنورانية " حملة لمبات التنوير من المثقفين ومنظمات المجتمع المدني الذين يُكتفون الإضاءة فقط على " جماعتهم " ، ثم تحبو مصابيحهم إذا كان المنتهكة حقوقه من خارج الجماعة !

حتي الشباب الوطني من المدونين رأيناهم يتنادون للدفاع عن شاب اسمه عبد الكريم دخل السجن لأنه تناول على الإسلام . . هو بالتأكيد لا يستحق السجن . . يستحق الإهمال لأنه لم يقدم أي طرح فكري وإنما مارس السخافة على نطاق واسع . . لكن ما يدهشني أن أصدقاء فولتير ومونتيسكيو تجاهلوا (إلا فيما ندر) مدونا آخر اسمه عبد المنعم لأنه يحب الإسلام ولا يسبه !!

نعود إلى سؤالنا من جديد : هل تعتبر من يخالفك في الرأي حاراً؟ إجابتي دون أدني شك هي نعم ، هذه هي حقيقة البشر في كل زمان ومكان حتي وإن أنكروا (باستثناء الأنبياء والقديسين) . . وعلي فكرة ليس هناك بأساً في أن يكون البشر كذلك ، لكن البأس كل البأس في ألا يكون القانون سلطاناً عليهم ، وأن تكون الديمقراطية غائبة والحكم أبدي والسلطة مطلقة .

في ظل سيادة القانون وتداول السلطة لا يستطيع أحد أن يؤذيك أو يضطهدك لأن شكلك لا يعجبه ، ولا يستطيع أحد أن يسجنك لأنك مختلف عنه أو أن لك طريقاً في الحياة يختلف عن طريقه . ولعل الديمقراطية وحكم القانون في الغرب هي ما يجعلنا نتصور أنهم يملأون بالسماحة والحب فيما بينهم ، مع أن الحقيقة أنهم على مستوي الإعتقاد والتصور لا يقلون عنا فاشية ، وقد يتمني رجل الشرطة عندهم أن يسحق جمجمة المتهم الذي يحقق معه ، لكن ما يجعل الأمر يقف عند حدود التمني ولا يتعداه إلى مرحلة التنفيذ . . أن جمجمته هو شخصياً ستكون هي الثمن !

أصحاب الدال و... أكتب يا شيخ حسه!

تلقيت رسالة من القارئ أيمن غنيم من بني مزار بالمنايا صدرها بقوله : الأستاذ الدكتور أسامة غريب . . تحية طيبة وبعد . . إلى اخر الرسالة . توقفت طويلاً عند كلمة الدكتور هذه . . أن لست دكتوراً ولا حتي تومرجياً ، ولم يُعرف عني الولع بضرب الإبر . فما الذي جعل القارئ الكريم تأخذه بي الظنون الطبية؟ لا شك أنه أراد أن يجاملني ، أو ربما قد حسبني من أصحاب شهادة لدكتوراة في أحد فروع العلم ، وهذا على أي حال شرف لا أدعيه . . ولا أسعي إليه أيضاً! خاصة وأن لي صديق لا يطيق أصحاب الدال ويزعم أن معظم شهاداتهم مضروبة وأبحاثهم مسروقة ومن كان بحثه نتيجة جهد ذاتي وغير مسروق فهو جهد لا قيمة له ولا فائدة للبشرية منه . وحتى الرسائل في الخارج مشكوك فيها والدليل أن البعض يحمل دكتوراة من فرنسا ولا يعرف الفرنسية . أو من روسيا دون أن يعرف شكل الحروف الروسية! ولهذا السبب لا أريد لصديقي أن يضعني في خندق لأعداء إذا لمع عندي ميولاً أكاديمية!

الأسبوع الماضي دارت بيني وبينه مناقشة حادة بعد الاستفتاء على الدستور وكان رأيه أن أساندة الجامعة هم سبب أساسي من أسباب نكبة الأمة . وأن الأمر لا يتعلق بقلة باعوا أنفسهم للشيطان وزينوا للحاكم الاستبداد والديكتاتورية في مواجهة أغلبية شريفة . لا . . هو يري أن تعيب موجود من الأساس في بنية من يرغب في أن يكون معيذاً ومن ثم أساتذاً بالجامعة ، وكان منطقته للتدليل على هذا في غاية الغرابة ، قال : لعلك تعرف أن أوائل الدفعات في الجامعة الذين يعينون كمعيدين ويصيرون بعد ذلك مدرسون وأساندة ويتولون رئاسة الأقسام وعمادة الكليات والجامعات هم في الغالب الأسوأ بين طلبة الدفعة قاطبة! قلت مفزوعاً : كيف يكونون أسوأ الطلبة وهم أكثرهم إجتهداً وتفوقاً؟

قال : هذا هو بيت القصيد ، إن رغبتهم الجاححة في التفوق تجعلهم أكثر أنانية من غيرهم وتجعلهم أكثر استعداداً للدوس على المبادئ والتضحية بالأصدقاء إذا اعترضوا الهدف المرسوم ، وأردف : وعليك أن تستعيد في ذاكرتك أوائل دفعتك وتخبرني كم واحد منهم تعتبره صديقاً وفيّاً أو صاحب صاحبه؟ وهل كان من بينهم من يتعاون ويمنح كشاكيله للزملاء؟ والأهم من هذا كله هل رأيت أحدهم يوماً يشارك في الشأن العام أو يخرج في مظاهرة أو يأخذ موقفاً محترماً من أي قضية؟ هل رأيت من بينهم من يتنصر للحق أو يدافع عن مظلوم؟

عندما هممت بالإجابة لم يسمح لي وأكمل : وأستطيع أن أوكد لك أنهم في غالبيتهم جامدون عقلياً، يتصفون بثقل الظل وليس من بينهم صاحب دم خفيف أو ابن نكتة! أما تعاونهم مع أجهزة الأمن ووشايتهم بزملائهم فأمر ليس في حاجة إلى برهان . قلت له : أراك تخطئ في التوصيف وفي التعميم فالتفوق في حد ذاته ليس شراً وهو ليس قريناً بالضرورة للأنانية وسوء الطوية ، والموهبة تحتاج لمن يديرها ويرعاها في جو من السماحة والديموقراطية بدلا من استغلالها وامتهان صاحبها وتحويله إلى مخبر ، وأنا شخصياً أأ لى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات بعض من أوفى أصدقائي وأقربهم إلى قلبي ولا ينطبق عليهم أي مما تقول ، بالعكس يتسمون بالشهامة والجدعة ودمهم خفيف أيضاً ، وغير أصدقائي هؤلاء يمكنك أن تنظر إلى جماعة ٩ مارس وستجد من بين أعضائهم أناس يفخر بهم الوطن ، يجمعون إلى جانب العلم الشجاعة في الحق والأخلاق الرفيعة . رد بجدة : يا صديقي إن الأمثلة التي ذكرتها هي قطرة في بحر الجامعات العجاج واستثناءاتك التي قد تكون حقيقية تؤكد القاعدة التي أتحدث عنها ولا تنفيها أما الأغلبية فهي من النوع الذي يبيع أباه لقاء نظرة رضا من أصحاب العزبة ، ولهذا السبب فقد وجد فيهم أهل الحكم ضالته من زمان . هل تعرف أن العسكر بعد الثورة لجأوا للجامعة معقل العلم والفضيلة ليختاروا منها الوزراء فماذا وجدوا؟ وجدوا أساتذة قانون يباركون الاستهانة بالقانون ، وجدوا أساتذة دستور يباركون العصف بالدستور ، وجدوا كائنات طيبة مارست التحريض ضد الشعب بأبشع مما فعل أي أحد آخر ، ثم أضاف متفعلاً هل شاهدت قناة الجزيرة عشية الاستفتاء الأخير؟ قلت : لا

قال : استضافت إثنين هما أقرب إلى ذئاب الجبل في ضراوتهم ضد كل ما هو وطني وشريف أحدهما أستاذ علوم سياسية والآخر أستاذ قانون . . لم يتركا باطلاً لم يدافعا عنه ولم يتركا حقاً لم يحقها ، كان منظرهما مزرباً وهما يباركان الإجماع في حق الشعب ويمتدحان العدوان على الحريات ويعددان فوائد المحاكم الاستثنائية ومضار الإشراف القضائي على الانتخابات! . والحق لقد ذكرني منظرهما بالفنان حسن البارودي في فيلم الزوجة الثانية عندما طلب من المأذون أن يكتب كتاب العمدة على امرأة تم تطليقها منذ دقائق فلما تعلل الشيخ حسن بوجوب انقضاء العدة ، لكزه مذكراً إياه : البلد بلدنا والدفاتر دفاترنا . . اكتب يا شيخ حسن .

ألجمتني حكاية الشيخ حسن فلم أعد قادر أعلي الكلام خاصة أن الشيخ حسن الجامعي وقريته الشيخ حسن الأزهري- وكلاهما من حملة الدال- ما زالا يكتبان ، ويا لهول ما يكتبان!

العبث اللذيذ والجديّة التي لا تطاق

أحب شعبان عبد الرحيم ويعجبني ذكاؤه الفطري وقدرته على استغلال المذيعين الجهلاء الذين يحاولون السخرية منه وإظهاره في صورة مزرية ، فإذا به يسحبهم إلى منطقته ويستثمر وجوده على الشاشة ، فبدلي بآراء في السياسة والفن والحياة مليئة بالسذاجة المتعمدة التي أدرك منذ زمن أنها تقربه من الجمهور ، وفي الوقت نفسه تداعب غرور المذيعين الحمقي ، بينما هو يضحك في سره من الإثنين الذين منحاه الفلوس والشهرة مقابل حكايات عبيطة لا يعنيها شيء من الغناء البدائي !

و لكن إعجابي بذكائه لا يعني أنه مطربي المفضل أو من ضمن المفضلين . صحيح هو يتواجد مع آخرين في الشرائط بالسيارة وأسمعه من وقت لآخر ، إلا أن الأمر يظل عند حدوده الطبيعية باعتبار هذا النوع من الغناء يخاطب الجانب العبثي من الوجدان . بالضبط كما أستمع إلى الجميل محمود شكوكو ، مع الفارق أن شكوكو كان يغني لشعراء حقيقيين كالقدير فتحي قورة ، وللمحنيين حقيقيين كالعظيم محمود الشريف الذين تظل موهبتهم حاضرة حتي مع أغنية تقول : يا دابح قلبي بإزاة . لماذا الهجر ذا لماذا ؟ . لكني مع هذا لا أستطيع أن أستمع إلى هذا النوع طول الوقت ، ولا أن أعتبر أن هذا هو الغناء .

ما يحدث الآن ويا للغرابة أن الجانب العبثي من الوجدان الذي كان يغطيه شكوكو واسماعيل ياسين أو حتي عدوية قد تمدد ليستحوذ على الوجدان كله . ومن الممكن أن تسأل شابا عن مطربه المفضل فيقول لك : شعبان عبد الرحيم أو حكيم أو محمد عطية ، ومن الممكن كذلك أن تسأله عن نجوم التمثيل المفضلين فيجيبك : محمد هنيدي ومحمد سعد وعبد كامل . مع أن هؤلاء مع احترامي لهم لا يغطون سوي الجانب الذي كان يشغله زمان استيفان روستي وعبد السلام النابلسي وزينات صدقي ، أما النجوم فكانوا شادية وكمال الشناوي وعماد حمدي وليلي مراد . ولم يكن متصورا أن تسأل أحدا عن نجمه المفضل فيقول لك الخواجة بيجو أو الدكتور شديد ! وذلك على الرغم من موهبتهم وحب الجمهور لهم ، ولكن المساحة المخصصة لهم في الوجدان كانت محددة ومحدودة . لكن الآن فقد اضطربت الأمور وصار العبث هو سيد الموقف !

و من آيات هذه الحالة العبثية أن الناس قد فقدت ليس فقط التمييز بين الغناء الجيد وبين سواه . لقد فقدوا القدرة على التمييز بين الغناء الحزين والأغاني المفرحة ، وأصبحوا يعيشون

الأفراح على أنغام أغاني حزينة . ولقد تكرر في أكثر من مناسبة أن أحضر عرساً فأجد الراقصة والفتيات المدعوات ينهمكن في الرقص على أغنية صارت تيمة في كل الأفراح ، مع أنها واحدة من أكثر الأغاني جلباً للحزن واستدعاءً للشجن وهي أغنية ع اللي جرا التي كتبها الشاعر محسن الخطايط وغنتها المطربة عليا التونسية منذ ربع قرن . وهي أغنية تتحدث عن عذاب امرأة تشعر بالغربة القاتلة وتعيش الوحدة والوحشة منذ أن سافر حبيبها وتركها تجتر أحزانها مع الرسائل . وهي تحكي له عما تفعله بها رسائله وكيف تتحرق شوقاً في انتظار عودته ، وتقص عليه معاناته وهوانها على الناس في غيابه ، لأنه منذ تركها وسافر لم تسمع خبراً واحداً مفرحاً ، وهي تحلم بأنها عند عودته ستحكي له عن كل ما جرى وستطلق العنان لعواطفها وستترك الدموع تنهمر من مآقيها ولن يخفف دمعها سوى منديله . هذه هي الأغنية . لكن الناس تنفصل تماماً عما تسمعه وتنطلق الزغاريد وتعلو الضحكات بينما الغنوة تحكي عن عذاب بلا حدود . . . منتهي العتب !

نفس الأمر يحدث في حفلات الغناء لأي مطرب . . لا أحد يستمع ولا أحد يريد أن يستمع . الشباب يقفون في مجموعات ويعطون ظهورهم للمغني ويدخلون في فاصل من الرقص يستمر طوال الليل على كل الأغاني ، والمطرب وأغانيه وألحانه في الخلفية بينما الرقص هو الأساس .

ولا أتصور أن أسباب هذه الحالة غامضة أو خفية . نحن مجتمع صار يضحك ملء شذقيه على ما يستوجب البكاء . مجتمع ينزف بينما ضحكه الهستيري يملأ الفضاء . ذلك أن الناس لم تعد تصدق أي شيء يكتسي ثوب الجدية الزائف ، وصارت الجدية بالنسبة اليه مرادفة للكذب ، ولعل هذا هو السبب في أن جيلاً كاملاً من نجوم السينما المصرية قد تمت إحالته إلى المعاش بفرمان جماهيري بعد أن أدرك الشباب أن هؤلاء الذين يتكلمون جد ليسوا في الحقيقة جادين .

ولقد قرأت بكل أسى في " المصري اليوم " ما يعزز هذا الظن . . قرأت عن التطابق التام في فقرات مقالين نشرنا بالمصادفة يوم ٢٠ ديسمبر الماضي أحدهما في المصري اليوم كتبه أستاذة في الإعلام والآخر نشر في الأهرام كتبه أستاذة في القانون ، وكانت الفقرات المتطابقة تعني شيئاً واحداً هو أن أياً منهما لم تكتبه وإنما نقلته وقدمته للقراء باعتباره من بنات أفكارها دون أن تشير إلى مصدره . وأستطيع أن أؤكد أن هذا يحدث في الصحافة المصرية كل يوم دون أن يهتم أحد . الصدفة فقط جعلت النشر يتم في نفس اليوم ومن ثم لاحظته الجميع ولم يكن تجاهله .

ولعل هذا ينزع الدهشة عن أي أحد يتساءل لماذا تمدد العتب واحتل الوجدان العام للمصريين ،

ولماذا هجر الناس الجدية وابتعدوا عن المعني وعن الجدوي واعتمدوا الهلس قانونا وديننا . ولماذا شق الشباب لغة جديدة غير لغتنا ، مفرداتها شديدة الغرابة وأحدث ما سمعته منها لفظ الإستكنايص " بمعنى الاسترخاء وهدوء البال . ولعل الشباب معذورون لأنهم بفطرتهم النقية قد أدركوا أن الفيلم كله هندي وأنه بالضرورة زائف وغير حقيقي ، وأن العبث هو الشيء الوحيد الذي يضمنون اليه لأنه يعصم عقولهم من الإنهيار ويمنحهم الإستكنايص الذي يستحقونه !

الجديّة التي لا تطاق

٢٠ دل السلطة.. والإنسان المحترم

شاهدت بعد غياب عن مصر وتلفزيونها السعيد لمدة خمس سنوات برنامجا تلفزيونيا أستضاف أحد القيادات الشابة بالحزب الوطني ضمن ضيوف آخرين يتحدث بمناسبة تعديل المادة ٧٦ من دستور بالسماح بالانتخاب المباشر لرئيس الجمهورية بين أكثر من مرشح .

كان الحوار يدور حول الضمانات الواجب توافرها في العملية الانتخابية واللجنة المزمع تشكيلها لإدارة الانتخابات المشكلة من قضاة لا يمكن الخلاف عليهم ، علاوة على آخرين ممن هم شخصيات عامة ، وهم بالتأكيد شخصيات حكومية طيبة ، تأخذ تعليماتها من الحكومة - سررة .

دار حوار غريب بين الشخصيات التي استضافها البرنامج . أول ما لفت أفتباهي أن الشخصيات كلها ، ممن فيهم القيادي الشاب بحزب الحكومة يتحدثون حديثا واحدا ويعزفون نفس لحن ، ويتفقون في كل شيء وليس بينهم جميعا أي تناقض . فكلهم يرفضون الإشراف القضائي حنفتي على الانتخابات ، وكلهم يؤيدون التعديل المعيب على المادة الدستورية ٧٦ ، وليس بينهم من يؤمن حقا بالديمقراطية وتداول السلطة .

عجبت أشد العجب لأن البرنامج يفترض أنه برنامج حوار ، والحوار كما نعرفه يتضمن جدلا وحللا وتضادا في وجهات النظر ، أما السادة الضيوف ممن فيهم القيادي الشاب بحزب الحكومة من الواضح أنهم أفتفقوا قبل التسجيل على كل شيء فهناك من لقنهم الأسئلة وهناك من حفظهم أحاديث . الأمر برمته بدا لي عبثا وتسألت بيني وبين نفسي : هل نفس مقاول الأنفار الذي حمل الصجبة إلى ساحة التظاهر لقاء ٢٠ جنيه وساندويتشا . هو نفسه الذي ساق هؤلاء الناس إلى استديو بماسيرو ووقف خلف الكاميرا بجوار المخرج يشير إلى هذا بالكلام وهذا بالصمت ، ثم تصرهم بعد التسجيل ليدفع لكل مرتزق منهم حسابه .

الرغم من عبثية الفكرة وغرابتها فإنني أكاد أجزم أن ما حدث في الحقيقة ، لا يبتعد كثيرا عن هذا السيناريو الفانتازي ، خاصة إذا علمنا أن السادة الإعلاميين وسائر العاملين بمبنى الإذاعة ونبضيون قد تم حلهم حملا دون إرادتهم وتم إكراههم على المبايعة والتأييد في الاستفتاء ، الذي عبرت رائحته المحيط الأطلسي ووصلت إلى البيت الأبيض .

جال في خاطري بعد البرنامج التعيس سؤالاً لطالما سمعته في السنوات الأخيرة مشفوعاً بـ علامات التعجب والدهشة، السؤال المؤرق يقول: كيف يمكن للإنسان أن يكون وضعياً، خسيساً، ذليلاً، حقيراً، متجرداً من الإنسانية في أدائه لعمله وفي أدائه لدوره العام، نفس الوقت يستطيع أن يكون في حياته الخاصة أباً حنوناً وزوجاً عطوفاً وجاراً ودوداً وصديقاً خلوماً . . . كيف؟

طوال سنوات الغياب عن الوطن كنت أتابع انحداره وسقوطه بقلب واجف، وكنت أستمع للحكايات المهولة تترى عن مظاهر الخراب التي لو سمعها إنسان غريب عن مصر لما صدقها أبداً. سمعت عن نموذج الطبيب الذي يرسل مرضاه إلى معمل تحاليل معين بالاسم لإجراء تحاليل يحتاجها المريض، ثم يأخذ عمولته آخر الليل من شريكه في الجريمة أستاذ التحاليل وصدقه المعمل! . . وقصص على أصدقائي قصصاً عن المحامي الذي يبيع موكله ويتفق مع الخصم دون بطرف له جفن. وعرفت عن التراخيص التي تباع ولها تسعيرة معروفة، والتي يمكن أن تسد بكل شيء وتمنع كل شيء.

و وصلت إلى أخبار الوظائف التي صارت متاحة لمن يدفع أكثر، والتجنيد الذي لا يقضيه إلا أبناء الفقراء والضعفاء، أما أصحاب الوسطة فإذا أصابهم الدور فإنهم يتعافون من البيت . . إلى جوار ماما! .

وعرفت بنفسي طعم الماء الملوث والطعام المرشوش بالموت وتنسمت الهواء الذي لوثته وبالهباب المماليك الجدد حتي لم يتركوا بيتاً في مصر يخلو من التهاب الكبد أو فشل الكلى السرطان.

كيف يمكن لكل هؤلاء أن يكونوا بكل هذه الخسة، وكل هذا الانحطاط في أدائهم المهني ويكونوا في نفس الوقت أباء وأزواج وأبناء بررة في منازلهم وبين أهليهم؟ كلما طرحت هذا الأسئلة وأمثالها قفزت إلى ذهني صورة صديقي المخرج العبقرى عاطف الطيب - رحمه الله - عندما تناول هذه المسألة في تحفته الفنية التي قدمها عام ٨٥ في فيلم " البرئ "، كل الذين شاهدوا الفيلم قد أعجبهم الأداء الرائع للفنان أحمد زكي في دور جندي الأمن المركزي البرئ . . لكنني لم لا أقصد الحديث عنه . . بل أقصد الدور الذي أداه الفنان محمود عبد العزيز . . دور الضابط بالسجن.

يبدأ الفيلم ومحمود عبد العزيز أو الضابط توفيق شركس يحتفل في منزله بعيد ميلاد طفله.

صغيرة في جو عائلي ودافئ . . . والصغيرة تغني وترقص وسط الأهل والأصدقاء في كنف الأب معزوف الممتلئ بالحنان والرقّة .

هذا عن الأب في بيته . . . فماذا عنه في عمله؟ على النقيض تماما . . . ضابط بالسجن يمارس تعذيب بمنتهى القسوة والوحشية ضد السجناء العزل . . . يؤدي وظيفته متجردا من كل نوازع رحمة والأنسانية . . . فمن أين يأتي هذا التناقض؟ وكيف يمكن أن يكون الرجل إنسانا في بيته يتبع ضاريا ينتشي لرائحة الدماء خارج البيت؟

الإجابة البسيطة القاتلة في تقديري هي: أن الترقّي في العمل والعلاوات والسفريات للخارج - صعود الاجتماعي وتصدر المشهد البشع والوصول للمراكز العليا، صار مرهونا بشيء واحد - أن يقوم المرء بعكس ما يتوجب عليه عمله . أي أن يقوم رجل الأمن بنشر الترويع بدلا من نشر الأمن، ويقوم المعلم بنشر الجهل بدلا من نشر العلم . . . ويقوم الإعلامي بترويج الأكاذيب بدلا من إتاحة الحقائق . . . ويقوم الطبيب بإمراض الناس حتي يصيروا زبائن دائمين ومصدر رزق لا ينقطع . . . وهكذا . بمعنى أن الترخيص والتدني وانعدام الضمير، قد صارت شروطا لازمة لارتقاء والصعود الاجتماعي . . . لأن الشقة الفاخرة والسيارة الفارهة والشاليه، والاشتراك في نادي هي أشياء لا يمكن أن يحصل عليها أي صاحب ضمير .

وحتى يكون الكلام عمليا . دعوني أسألكم: هل الضابط الذي يخدم المواطنين ولا يمارس نسوة - إن وجد - هل يحلم مثل هذا الضابط المتحفي بأن يحصل على حقه في الترقيات ويحصل على دورات تدريبية في الخارج وترقيات استثنائية، وهل يحلم بأن يصبح بعد ترك الخدمة رئيس مدرسة أو محافظا أو وزيرا .

و الصحافي الذي يمارس المهنة كما تعلمناها في كلية الإعلام . هل يحلم بأن يكون له مستقبل؟ والطبيب الجاد الذي يقضي حياته في البحث والتعلم . هل يستطيع أن يحقق لأسرته مجرد الستر . . . وهل يستطيع أن يكون نجم مجتمع ويحل ضيفا على التلفزيون والصحافة . . . سياسي الذي لا يتصف بالسماجة وثقل الظل والبلادة والجهل وإنعدام النخوة والوطنية . . . هل يستطيع أن يشغل منصبا مهما ومؤثرا؟

الأبرياء والسذج من الناس يسألون أنفسهم: كيف يمكن للواحد من البشر الفاسدين أن ينظر في عيني إمرأته، أو أن يضحك في وجه أبنائه وهو على ما هو عليه من فساد وخراب روحي

وضمير مقتول؟ السداجة في السؤال تكمن في أن السائلين لا يمكن أن يتصوروا أن الزوجه والأبناء هم عائق حقيقي أمام أي فاسد فيما لو أراد أن يتراجع ويتوب في أي مرحلة من مراحل حياته!

إن الرجل الفاسد يفسد أول ما يفسد زوجته وأبناءه . . . هؤلاء الذين يعتادون على حياة الترف والعيش فوق القانون . . . فينشأ لديهم شعور بالتعالي على الناس واحتقار الفقراء والتمسك إلى حد الموت بالثراء والنفوذ . . . فهل أسرة من هذا النوع هي التي يستحي منها الرجل الفاسد

إن العفن والفساد الذي استشرى، قد وصل إلى حجم مهول لا يصدقه العقل . كناداتنا نسمع مقولة أن الفاسدين هم قلة صغيرة ولكن القاعدة العريضة بخير ، هذه المقولة المضللة تسبب في تكريس الأمر الواقع وتحجب رؤية الحقيقة . الحقيقة المؤلمة هي أن القاعدة العريضة قد أصاب العطب والبوار وأن المستمسكين بالشرف ، السائرين على طرق النار هم الذين صاروا قلة .

إن الطريق إلى صلاح حال هذا المجتمع طريق شاق وطويل . . . وأول خطوة فيه هي تدوير السلطة ، وهي كلمة السر في أي إصلاح . هل يتصور أحد أن مسئولاً في ظل انتخابات حرة وسلطة يتم تداولها طوعاً بين القوى السياسية . . . هل يتصور أحد أن يتمتع هذا المسؤول عن نفسه حكم قضائي كما هو الحال الآن؟ لا يمكن طبعاً ، لأن هذا المسؤول سيعلم أن الانتخابات التي قد تقصيه عن الكرسي ، سيكون مصيره المحتوم هو المحاكمة والسجن .

إن تداول السلطة يساعد المواطن الذي يريد أن يكون محترماً على أن يكون كذلك دون خسـ .
تذكر .

نظرة الجزمة الدوالة!

بعد انقطاع طال لسنوات قررت أن أصل خيوط الود مع صديق قديم ، قمت بزيارته في مكتبه - شركة التي يشغل بها مركزاً مرموقاً . استقبلني بحفاوة بالغة وأخذنا نسترجع أيامنا السابقة وذكريات الصبا عندما دخل علينا المكتب بدون استئذان شخص غاضب ، تحدث إلى صديقي سراقحة فاجأني وأخذ يعنفه ويلقي في وجهه اتهامات بالغفلة وعدم الإحساس بالمسؤولية ! . أخذت لغرابة الموقف ولم أدر ماذا أفعل بينما استمر الرجل في فاصل البذاءة ، ثم ختم إهاناته بأن سب آباء وأمهات الموظفين جميعاً وصفق الباب وراءه في عنف . نظرت في ذهول إلى صديقي الذي - ينطق بكلمة وهو يتلقى شتائم الرجل وإهاناته . . كل ما فعله أنه أطرق إلى الأرض وهو يردد : تمام سيادتك ، حاضر سيادتك ! . . شعرت بأسف بالغ أن جعلتني الصدفة ألقاه في هذا الموقف سيئ منسحقاً تماماً أمام رئيسه ، خاصة وأن هذا الرئيس نعهد أن يهينه بزيادة لما وجد لديه ضعفاً . كنت مستأذناً في الانصراف حتي أخلص من الموقف المحرج ، لكنه استبقاني وأصر على طلب منجان آخر من القهوة ، وبرر لي ما حدث بأن رئيسه وإن بدا عصبياً حاد المزاج إلا أن قلبه طيب وسرعان ما سيهدأ!! أدهشني تبريره للإهانة بأكثر مما أدهشني تلقيه لها وكأنها أمر روتيني معتاد يحدث كل يوم .

بينما أشرب القهوة استدعي صديقي بالتليفون أحد الموظفين فحضر على الفور ودخل بعد أن ضرق الباب وتنحنح ثم ألقى تحية الصباح فرددتها أنا عليه ولم يرد صديقي ، ثم لدهشتي في يوم عجائب هذا رأيت صديقي " ينجعص " في كرسيه ويتحدث بلهجة غريبة عليه مليئة بالعجرفة والإستهانة سائلاً مرؤوسه عن بعض الأشياء ثم لا ينتظر إجابة بل ينطلق قاذفاً في وجهه وإبلاً من سبب الإهانات كالتى تلقاها منذ دقائق والموظف المسكين يردد : حاضر سعادتك ، تمام سعادتك . . يا الله لقد تكرر الموقف بحذافيره . . نفس جرعات الألم التي تلقاها قام بتصديرها إلى شخص آخر وكأنها كرة النار يتقاذفونها فيتلقاها الواحد منهم ثم يقذف بها في حجر زميله وهذا يسرع بإلقائها للذي يليه . . الطريف أن أذان الظهر ارتفع في هذه الأثناء فرأيتهم جميعاً يهرعون إلى لوضؤ ويفرشون السجاجيد ويصلون ، ثم يسلمون على بعض متمنين اللقاء في الحرم !

استأذنت في الانصراف لأنشد مجلدي من هذا المسلخ ، وصادفت لدي خروجي الأسد الهصور لذي مسح بكرامة صديقي الأرض ، رأيت يفتح الباب لرجل الأعمال الكبير صاحب الشركة

وولي النعم وينحني في مواجهته حتي تكاد جبهته تكنس الرصيف ! وفكرت في سعيد الحظ الذي يمكن أن ينحني أمامه رجل الأعمال الكبير هذا ولكني تذكرت أنه أيضا سيكون لديه من ينحني . وهلم جرا .

مضيت وكلي ألم على ما آل اليه حال صديقي الذي رأيت له وجهين في غاية البشاعة : حارس رعيديا لا نخوة عنده ولا حمية ثم جباراً غليظ القلب واللسان في صورة أبعد ما تكون عن الشخص الذي كانه أيام الدراسة .

إنصرفت إلى التفكير في أحوالنا وأدركت أن ما شاهدته في مكتب صديقي يحدث يوميا في كل مكان ، وكأن الناس جميعا قد ارتضوا هذه الصيغة في الحياة واعتادوها فلم تعد تُخجلهم ، وعدوهم صيغة عادلة تمنحك بمقدار ما تأخذ منك حتي إذا صادفوا رجلاً ألبياً يرفض الإهانة اعتبروه مجرماً يريد أن يجرهم ويعلو عليهم ، لهذا لا يترددون في التنكيل به وتدميره . ولعل هذا يفسر وحتى رجال الشرطة مع من يرفض الإهانة من المواطنين ويصر على أن يُعامل باحترام . . يعذبون ويلغقون له القضايا ويقضون على مستقبله لأنه يكشفهم أمام أنفسهم ، فقد اعتادوا أن نأنتس بتلقوا من رؤسائهم إهانات لا نهائية ثم يصدرونها لمروسيهم وللمواطنين فكيف بهذا المواطن المجنون يحاول التحليق خارج السرب ويفرض ما يقبلونه ويعدونه جزءاً لا يتجزأ من قوانين الحياة .

وأتصور أن شيوخ القاب بك وباشا ومعاليك وجنابك مع تعدد مستويات استخدامها حين تعبير صادق عن نظرية كرة النار هذه حيث الكل راكب والكل مركوب ، ظالم ومظلوم ، جريح ومجروح ، معتد ومعتدي عليه .

و إنني لأتذكر في مذبحه الأقصر التي وقعت بالدير البحري عام ٩٧ أن الجناة قد عُثر عليهم مقتولين داخل إحدى المغارات بعد أن يسوا من المقاومة وقرروا الانتحار فوققوا على شكل دائرة وصوب كل منهم سلاحه للذي أمامه وضغطوا على الزناد في نفس اللحظة فتحول كل منهم إلى قاتل وقتيل معا ! .

و أتصور أن المصريين يعيشون نفس الحالة وينصبون لأنفسهم نفس الدائرة ، فكيف لمجتمع العبيد هذا أن يحلم بغد أفضل في وطن كل واحد فيه يضرب بالجزمة آخرين ويضربه آخرون أيضاً . . بالجزمة .

حظ آل سعود.. وانحياز البنتاجوه

أتابع بإعجاب أعمدة الرأي اليومية بصحيفة المصري اليوم، ومن بينها عمود الأستاذ سليمان حيدة الذي عرفناه كاتباً ليبرالياً ومدافعاً صلباً عن الحرية والديموقراطية.

ولا يقلل من تقديرنا له اختلافنا التام مع ما كتبه في عمود الخميس أول سبتمبر تحت عنوان " حظ آل سعود وانحياز السماء "

يتحدث الأستاذ جودة عن انحياز العناية الإلهية للأسرة السعودية واصطفاء الله لآل سعود ينسولهم برعايته، ودلل على ذلك بثلاثة مواقف قام الله فيها بقصم ظهر كل من اختلف مع آل سعود أو جرؤ على محاولة المساس بهم، وهم على الترتيب مصر الناصرية وإيران الخومينية وعراق صدام حسين. ورغم غرابة أن يخرج الكاتب عن الشأن المصري المحلي المتعلق بالانتخابات رئاسية التي يتناولها يومياً بالنقد والشرح والتحليل، ويتحدث عن رعاية الله لحكام السعودية دون مناسبة، فإننا لا ننكر عليه حقه في اختيار موضوعاته، ولنا نفس الحق في مناقشته.

يشير الأستاذ جودة إلى مساندة عبد الناصر لثورة اليمن، وإرساله قوات مصرية لموازنة الثوار، و استياء الحكم السعودي من وجود الجيش المصري بالقرب من حدودهم، حتي قوله: " وكان وجود القوات المصرية هناك بمثابة الخنجر في خصر الملك سعود وقتها. . ولما لم يستمع عبد الناصر برسائل الرياض العاقلة والناصحة، نزلت عليه بعدها بأربع سنوات طير أبابيل في عام ٦٧، وكأن ما حدث، في زاوية من زواياه كان عقاباً له من السماء لتحرشه بآل سعود. . ثم راح يسألهم العون في قمة الخطوط الشهيرة بعد الهزيمة! ". طبعاً نبرة الشماتة واضحة تماماً لدى الكاتب، خاصة في جملة الأخيرة، بالرغم من أن شعب مصر وكتّابها لم يشمتوا في الملك سعود بعد أن خلعه إخوته عن العرش وطرده خارج المملكة فلم يجد أحن من حضن مصر وعبد الناصر!

و استمر الأستاذ جودة فتحدث عن الثورة الإيرانية وكيف أراد الإيرانيون تصديرها إلى السعودية، ثم ما كان من حرب ضروس دارت رحاها بين إيران والعراق استمرت عشر سنوات حتي أرهقت البلدين خصوصاً طهران التي أصبحت عاجزة تماماً عن مجرد إلحاق الأذى بأولاد سعود. . وبدا الأمر مرة أخرى وكأنه رسالة من السماء إلى آيات الله في طهران بأن يتعدوا عن حدود السعودية ".

و المثال الثالث الذي قدمه الأستاذ سليمان هو محاولة صدام حسين التحرش بالسعودية بعد غزوه الكويت ، واتجاه مدرعاته نحو حفر الباطن ، " ولكن عاما واحدا مضى ، لتنفجر الأرض بالنار من كل ناحية ، ولأدت قوات صدام بالفرار . . أما ما تبقى منها فقد تناثرت بقاياه على طريق الطريق من حفر الباطن إلى بغداد ! وكانت رسالة للمرة الثالثة من السماء " .

و تعليقا على هذا الكلام لا نستطيع أن نخفي دهشتنا من كاتب عهدهاء عقلانيا لا يلجأ للشعور وتلبس الدين وإقحام السماء في الصراع السياسي ، ولا نستطيع أن نقبل أبداً أن ما حدث لنا في ٦٧ كان " في زاوية من زواياه " انتقاما ربانياً نتيجة التحرش بأل سعود . . إن الأمر ببساطة الولايات المتحدة تربط أمنها القومي بأمن دولتين في الشرق الأوسط هما السعودية واسرائيل . وويل من تغضب عليه إحدهما ! فما بالك إذا غضبت الإثنتين ، هنا يكون انحياز البتاجون وليس انحياز السماء . لقد كان العدوان الإسرائيلي على العرب في ٦٧ نتيجة الرغبة في تحطيم مصر وكسب كبريائها ، حتي لا تكون نموذجا لأي دولة عربية في تحدي الهيمنة الأمريكية أو التفكير في التصدي للتوسع الإسرائيلي ، وكانت فداحة الهزيمة بسبب الخيبة الثقيلة وعدم الإستعداد وخطايا كثيرة أخرى ليس من بينها بالتأكيد غضب الله على شعب مصر لصالح أبناء عبد العزيز ، وليس هذا داع لمغازلة آل سعود على حساب دماء المصريين . كما أن تشبيه الطيران الإسرائيلي بقيادة مجرم الحرب موردخاي هود بالطير الأبايل ينطوي على انتهاك صارخ لحدود العقل والضمير ، فلم يكن عبد الناصر هو أبرهة الأشرم الذي أراد هدم الكعبة ولم يكن الشعب المصري هم جند أبرهة حتي يستحقون أن يقصفهم الطير الأبايل الإسرائيلي ، وإلا فليخبرنا الأستاذ جودة لماذا قامت اسرائيل وطيرها ومجنزراتها الأبايل بقصف سوريا والأردن واحتلال أراضيها مع ما تبقى من فلسطين ؟ . فهل قام الدكتور نور الدين الأتاسي أو الملك حسين بالتحرش بالسعوديين وإثارة غضبهم ؟ وهل سلاح الجو الإسرائيلي هو يد الله التي تبطش بأعداء العرش السعودي ؟ !

إن حديث الكاتب عن انتقام السماء من عبد الناصر وشعب مصر يذكرنا بالشيخ الشعراوي عندما سجد لله شكراً بعد الهزيمة ، ولا نري أن أي خلاف سياسي أو كراهية لشخص عبد الناصر أو سياساته تبرر التشفي والسعادة لحظوظ آل سعود خاصة إذا كان هذا الحظ نتيجة مقتل عشرات الألوف من أبناء مصر ، وتدمير المدن المصرية ، وملايين المشردين الذين تم تهجيرهم من منطقة القناة ، فضلاً عن المآسي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي استتبعها العدوان . كذلك الظن بأن ما حدث للإيرانيين والعراقيين هو إنتقام إلهي لمصلحة آل سعود هو ظن عجيب ، إذ أن ما

حدث سواء لمصر أو للعراق وإيران هو انتصار أمريكي إسرائيلي ، فإن كانت هزائم العرب
رسميين على يد أعدائهم تحقق للسعوديين أمنهم وسعادتهم ، فأنا أعتقد أن هذا مما يُخجل
سعوديين ويشينهم ، ولا أظنهم يوافقون الأستاذ سليمان جودة على رأيه ، أو على الأقل لا يمكن
رسمنا قبولهم بهذا الطرح الذي يضعهم في صورة من ترتبط مصالحه بمصالح إسرائيل وترتبط
حريه معده بدمار أشقاءه .

نقد استنكرنا أن يقوم رجل دين مسيحي بتعليق لافتة تأييد لمرشح الحزب الوطني في انتخابات
رئاسة يقول فيها : لقد اختارك الله فكيف لا نختارك ، مثلما استنكرنا ادعاء بعض المشعوذين
مسلمين بأن الرئيس مبارك ينتسب لآل بيت النبي ، ونحسب الأستاذ سليمان جودة في طبيعة
معرضين على هذا الهراء ، لهذا لا نحب أن نراه يضع أبناء سعود في منزلة أصفياء الله الذين
ختصهم برعايته لمجرد وجود الحرمين بأرض يحكمونها ، بالضبط كما أن وجود المسجد الأقصى
منسطين ، لا يجعل محمود عباس ومحمد دحلان وأصحابهما من أولياء الله الصالحين !

يا حضرات القضاة : لستم بالباشوات ولا بالكوات!

تشير اعجابي المواقف المحترمة للسادة القضاة واصرارهم على الاستقلالية، ويبهمني تحديهم
نسلطة المتعسفة التي تبغي خنقهم ماليا لاحتواء غضبتهم وطبيهم تحت جناحها .

و برغم انجيازي التام لنادي القضاة واستعدادي لأكون أول المتبرعين بقروشي القليلة لو تم فتح
باب التبرع من أجل ألا ينحني قضاة مصر لغير الله . . برغم هذا يظل هناك شيئا ما يثير قلتي
وحيرتي . . ما الذي يجعل نضال القضاة ومواقفهم الصلبة وشجاعة ناديتهم العتيد لا تحطي سوي
باهتمام النخبة، أما عامة الشعب فلا أعتقد أنهم يحملون تعاطفا يذكر مع مطالب القضاة ولا هم
حتي مستعدون للتأييد بأضعف الايمان وهو القلب . ولا أعتقد أن مجرد الرد الجاهز عن لقمة العيش
والطاحونة التي يدور فيها الناس يفني بالغرض .

في ظني أن هناك مسافة تفصل بين الناس وبين السادة القضاة، وهي ليست المسافة المطلوبة
لحفظ الوقار والاحترام للقضاء وما يمثله، وإنما هي مسافة ناشئة عن نظرة الناس العامة إلى
أصحاب السلطة باعتبارهم كلهم شيئا واحدا، إذ لا فرق عند الناس بين القاضي ووكيل النيابة
وضابط الشرطة . فكلهم يمثلون سلطة تستطيع أن تضع المواطن في الحجز بإشارة اصبع، ولا
أعتقد أن أحدا يستطيع زحزحة الظن الراسخ والمتجذر في الوجدان الشعبي بأن الخلاف بين المواطن
وبين أحد هؤلاء يعني الهلاك المحقق ويعني خراب البيت ودهس الكرامة . ولا أتصور أن الرجال
الشرفاء بنادي القضاة الذين نجلهم ونثمن مواقفهم الشاخصة . لا أتصورهم قد أولوا هذه المسألة
العناية الكافية، وفي اعتقادي أنها لا ترد على خاطرهم من الأساس .

إن المواطن العادي يا سادة لا يمكن أن يتعاطف مع قضايا البكوات والباشوات . وكما نعلم
فكل ضباط الشرطة ورجال القضاء والنيابة يراهم المواطن العادي من البكوات والباشوات،
خاصة وهو يراهم يتنادون بهذه الألقاب فيما بينهم بشكل طبيعي كما لو كانت ألقابا حقيقية
حازوها بحكم الوظيفة، وكما لو كانت الوظيفة العامة المنوط بها خدمة الناس قد جعلتهم أسيادا
على الناس ! . وجرب أن تستخدم لقب أستاذ وأنت تتحدث مع شاغل وظيفة قضائية أو أمنية،
وأريدك أن تحكي لي عن النتيجة ! . لقد تلقيت مؤخرا رسالة على البريد الالكتروني من أحد
المستشارين الأفاضل يناقشني في مقال كتبه، فقممت بالرد عليه وشكرته وطلبت توضيح بعض

النقاط في رسالته ، وأدهشني أنه لم يرد ، فلما أعدت قراءة رسالتي عرفت أين الخطأ . . . نذرت رسالتي بقولي : سيادة الأخ الكريم . . . ولم أقل فلان بك !

إن ما يدفعني لهذا الحديث هو حبي للعدل وأعجابي بصلابة الرجال العظام بنادي القضاة : ولهذا أتساءل : أليس في استطاعتكم شطب القضاة الذين قاموا بالتزوير وقتمتم أنتم بإثبات تزويرهم من عضوية النادي ؟ أليس باستطاعتكم اتخاذ إجراء مع القضاة الذين يتقربون إلى الحزب الوطني ويبعثون إليه برسائل الغزل ويقدمون ولائهم واستعدادهم للخدمة فيقومون بمخالفة القانون وإصدار أحكام بالسجن ضد أبرياء لا ترضي عنهم السلطة ؟ صحيح أن درجات التقاضي تتكفل بالتصحيح ولكن ماذا عندما يكون الأمر عبارة عن جريمة متعمدة وليست خطأ ناشئاً عن قلة الخبرة ؟ ! .

صدقوني . . . ما أتحدث عنه ليس ثانوياً ولا تافهاً . إن هذا هو ما يضع حاجزا بين نادي القضاة وبين جماهير شعب مصر ، الأمر الذي يجعلكم هو أنتم تعلنون مطالبكم العادلة تقفون شبه وحيديين أمام السلطة التنفيذية الغاشمة إلا من عشرات الناشطين الشجعان من حركة كفاية وغيرها ، أدب الشعب فلا يرى في الأمر سوي أنه خلافات بين السادة البهوات ستجد طريقها للحل ، وأن الداخل بينهم هو الخاسر في النهاية .

يا قضاة مصر . . . عليكم أن تُشعروا الناس أنكم قضاة فقط ولستم بكوات ولا باشوات . وعليكم أنتم قبل غيركم أن تعلموا أن القاضي بدون أي ألقاب هو أرفع مقاماً وأعلى هامة من كل البكوات والباشوات واللوردات ومن كل أصحاب المعالي والفخامة والسمو والرفعة وسائر الألقاب التي يجتبيء وراءها الجلادون والمزورون وسارقو البنوك وأصحاب العبّارات الخردة ولصوص الآثار وناهيو المال العام .

ثم ألا يسترعي انتباهكم أن كل المجرمين الذين أذلوا شعب مصر وارتكبوا في حقّه أبشع الجرائم ، وأطعموه أكلاً فاسداً ولوثوا ماءه وهواه وحطموا كبريائه . . . كلهم تتم مناداتهم ب فلان بك ! . . . فهل يليق والأمر هكذا بمن كانوا أمثالكم أن يتنادوا بنفس اللقب المشبوه ؟ !

أشياء جميلة في صحبة بلال فضل

كانت أجازة العيد بالنسبة لي فرصة ذهبية للقراءة أتاحت لي الاستمتاع ببعض الأعمال التي طال انتظارها معي رغم صدورها منذ فترة، لكنها المشاغل قاتلها الله. بالأسس خلوت إلى نفسي وقضيت أمسية جميلة مع مجموعة بلال فضل القصصية "بني بجم". كنت قد سمعت بها من أصدقاء عديدين أبرزهم ابني أحمد الذي يطارد كتابات بلال وأفلامه أنني وجدت. وفي الحقيقة أنني لا أقل عنه كلفاً وإعجاباً بلال فضل ولا أستطيع أن أنكر إنجيزي له وترحيبي بما يكتب، وأراء حالة فريدة وجديرة بالاعجاب في هذا الزمان الأجذب. فالرجل يكتب في الصحافة ويكتب للسينما ويكتب القصة وينثر موهبته وروحه المتمردة الجائحة التي تملك حناناً على الضعفاء لا حدود له، في الوقت الذي لا يتردد في إهانة الأقوياء المستقوين بفسادهم من الرجال التي ملأها الشروخ. . . دون أن يفكر أبداً في أن يصالح!

تشعر مع بلال أنه إبناً صادقاً للمدينة المصرية، يعرف مفردات مدينة القاهرة كما يحفظ اسكندرية "صم"، وهي معرفة المحبين الذين نفذوا في نخاعها حتي القاع، وتشعر بقدرته على الرصد والتقاط التفاصيل بصورة لا تدع مجالاً للشك في انه يستطيع فك شفرة المكان ويقدر أيضاً ليس فقط على مخالطة "السكان الأصليين لمصر" - كما يسميهم- والإنصهار مع جراهم والأمهم وإنما يستطيع ببساطة من فرط صدقه أن يسجل نفسه في قائمة الضحايا! . أراني قد انتقلت لحدوتة أخرى هي حدوتة أم ميمي التي كتبها في صحيفة الدستور وليس ضمن مجموعة بني بجم، وفيها قدّم الحقيقة البشعة لميمي وأم ميمي وأمثالهما في صورتهم الحقيقية وليس كما نراهم في سينما الوهم يحسدون شخصيات أولاد البلد الذين يجعلونك تحب الفقر بدلا من ان تلعنه!

بينما تقرأ لبلال قصته البديعة "جزل" وهي قصة مشحونة بالموودة وحزينة- تشعر أنك تري الاسكندرية وتشم رائحة بحرهما. . رغم أنه لم يصحبنا في جولة سياحية لنشاهد كورنيش المحجوب ومكتبة الاسكندرية، لكنك تشعر باسكندرية التي قدمها محمد خان في فيلم موعد على العشاء. . اسكندريتنا نحن، والبطل الذي ظل يتناول السمك ويثرثر بنجح في ان يقتلنا حزنا رغم ان حياته ليس بها فواجع درامية مفاجئة، وإنما بها الأخطر: الرضا بالمقسوم، ذلك القاتل الذي يتسلل لحياة الناس فيميتهم أحياء.

أما في " الموت على ارتفاع منخفض " فقد ارتفع إلى آفاق رحبة وأطل على الحياة من حالق . ورغم انه لم يذكر تاريخ كتابتها إلا ان درجة النضج و " السوي " تشي بأنها حديثة ولا تعود إلى التسعينات مثلها مثل " ليلة اغتصاب مادلين اولبرايت " والتي تخيل فيها الحيزبون مادلين بفخذيته العاريتين تثير حاكما عربيا من فصيلة الأشكيف فيغتصبها في لحظة غدر في حضور مساعده الذي أسماه : نصير ساويرس ! .

وقصة الشيخ عرفة وفضيحة القطط التي نالها بعد أكلة الفسيخ اللعينة تدل على أن الكاتب منطور على حب الكوميديا ويستطيع أن يتتزع الضحك من أنياب الأيام الداكنة !

أما رسالته المفتوحة إلى جوليا روبرتس فتكشف لنا عن هوسه بالسينما وعشقه المبكر للأفلام . ليس فقط مشاهدتها وإنما كتابتها أيضا ، وتجاربه السينمائية حتى الآن مربية إذا تحلينا بالنظرة الواقعية لحال السينما وظروف الانتاج ، غير اني أثق بأن ما لدي بلال يفوق ما شاهدناه بكثير . و بمناسبة الكتابة للسينما أتمني عليه أن يشاهد فيلم " ٢١ جرام " للمخرج المكسيكي أليخاندرو جونزاليس بطولة شون بن وناغومي واطس ، إن لم يكن قد شاهده بعد ، وهي نصيحة أقدمها لأصدقائي الذين يحبون السينما حتى يحصلوا على ما حظيت به من متعة ، يقول الفيلم ان الانسان حين يموت يفقد ٢١ جراما من وزنه وهذه حقيقة علمية ، فهل هذه الجرامات الواحد والعشرون هي وزن الحب الذي يضع بالموت ؟ كما ان المخرج والسيناريست يقدمان تكنيك في كتابة السيناريو ليس جديدا تماما ولكن تم تنفيذه باقتدار معجز ، عرض الفيلم في نهاية عام ٢٠٠٣ وكان يستحق الاوسكار ، لكن بطله فاز بالاوسكار عن فيلم آخر هو النهر الغامض .

أما قصة " لا حب تحت المطر " فتحمل شحنة من الرومانسية الكسيرة للبطل الذي ينزل من البيت في المطر للقاء أميرته المتهممة . وفي الاوتوبيس وسط الزحام الخانق ، والأجساد المتلاصقة ودهس الأقدام لا يردع خياله الجامح عن تذكر أغنية (راجعين يا هوي راجعين) لكن تردعه رائحة غير عاطفية هبت فجأة فأحرقت خياله ، ويمضي مع فيروز تحت المطر في انتظار حبيبته في العراء مغنياً (حبيتك بالصف . . حبيتك بالشتا) ولا تأتي الحبيبة ولكن يأتي الصديق الذي يذكره بخيبته وانكساره حين كتب على السبورة في الجامعة (حبيبي سكر مر طعم الهوا) يوم تمت خطبتها .

أما انا فقد أحسست مثله بفيروز تصاحبني قارنا للقصة وتغني في أذني : بدت القصة تحت الشتا بأول شتا حبوا بعضن ، وخلصت القصة بتاني شتا تحت الشتا تركوا بعضن . و تغني نسمة علينا الهوي ، ورجعت الشتوية ضل افكر فيا . وأشياء أخرى جميلة في صحبة بلال فضل .

تأملات في الموت

في كل مرة يختطف فيها الموت انسانا ذو قيمة، أجدني وقد سيطرت على حالة غريبة تغلب فيها التساؤلات العبثية علي ما عداها، حتي لو كان الفقيد انسان لا أعرفه . . يكفي أنه كان صاحب قيمة ويكفي ان الحياة من غيره أقل إنسانية وأقل توهجا .

حدث هذا في الأسبوع الماضي بعد وفاة الدكتور أحمد عبد الله رزة الذي لم أتشرف بمعرفته ولكن الكثيرين من أصدقائي حدثوني عنه . كان موته مفاجأة أليمة لكل من عرفوه عن قرب . وقد استفاض أصدقائه طوال الأيام الماضية في الحديث والكتابة عنه باعتباره شخص استثنائي خسرت مصر بعد أن أضاعته، وأي فتي أضاعت ! . وهذا دأب مصر دائما مع عشاقها، تقسو عليهم وتضغط بقوة حتي تقتلهم، بينما تمنح نفسها بسخاء مفرط لسقط المتاع من البشر .

قرأت أن الراحل المضي، كتب إهداء صدرّ به أطروحته للدكتورة قال فيه : (إلي الأميين الذين علموني، وإلي الفقراء الذين أغنوا ضميري) وقارنت بين سخاء نفس هذا الرجل ورحابة روحه وهو يتحدث عن والديه وأهله وناسه الفقراء الأميين الذين أخذ منهم العلم وغني الضمير . وبين واقعة " الجزمة " التي حدثت بمجلس الشعب بين أحمد عز وطلعت السادات وقرأنا ان عز قال : انا أجدادي معروف من هم . . شوف انت جدك مين؟ كما قرأنا أن فصيلا من عائلة السادات انتفض غضبا ورفع قضية على عز مذكرا اياه بأن عائلتهم أنجبت رئيس جمهورية، فمن يكون هو ليعايرهم؟ . قارنت بين الترخص في هذه الخناقة التي يزعم كل أطرافها أن المرحوم جده كان قائد طابية، وبين العظيم حقاً أحمد عبد الله الذي لم يزعم سوي أن أهله الفقراء قد أورثوه الحكمة والشرف !

وقد أعاد إلى حديث الموت ذكريات ليلة وفاة أعز أصدقائي بالكويت عام ٩٧ وكأنها حدثت أمس . . . أنا أقف بجوار سريره مذهولا ، وجسده مسجي بعد أن انسحبت منه الروح ، وفي غرفة مجاورة أخذ أحد المعارف الذين وفدوا إلى الشقة يعمل بهمة ونشاط في جمع ما خف حمله من مقتنيات الصديق الذي رحل منذ دقائق ، وبعد أن ملأ حقيبتين من التحف والهدايا والسجاد همّ بحملهم والانصراف ، وعندها أفقت من ذهولي وقمت بمنع الجريمة وأنا في حالة ثورة جنونية . وقد

ننهني ما حدث إلى أسوأ ما في الموت . . . الميت لا يستطيع أن يدافع عن بيته ! وربما لهذا السبب كل أكل مال اليتيم هو جريمة تتسم بالخسة والتوحش معا .

غير أن للموت وجوها أخرى جديرة بالتأمل ، أحيانا أتصور أن الموت كثيرا ما يمنح الأموات ميزة الخلود والمجد وحسن السيرة إذا حدث في توقيت معين ، وربما يفقد الميت هذه المزايا إذا تأخر الموت أو حدث في توقيت آخر ، كما أتصور أن من يموت محترما هو من يرضي عنه الله . عندك مثلا الشهيد العظيم عبد المنعم رياض الذي لقي ربه بينما كان يتفقد أحد المواقع الأمامية على الجبهة يوم ٩ مارس ٦٩ . لقد حفظ موته المبكر صورته الثقية في أعيننا كبطل عظيم ورمز للفداء ، لكن تري لو أن العمر قد امتد به أما كان من المحتمل أن يضع يديه في أيدي اليهود ، أما كان من الممكن أن يصفاح شارون ، وهل كان واردا أن يتحدث عن السفاح الذي أوغل في دماننا باعتباره رجل سلام . لا أدري ولكن ما أدريه هو أن الله أحبه ، لهذا فقد اختاره إلى جواره في هذا التوقيت لينال المكانة التي يحوزها في قلوبنا . مكانة الشهيد العظيم .

وعندك أيضا عبد الحليم حافظ المطرب الذي غني للثورة وتغني بها وأنشد في كل المناسبات الوطنية أغنيات عن السد العالي وبستان الاشتراكية وعضوية اللجان الشعبية وتمجيد العمل الفدائي . . تخيل معي أن عبد الحليم حافظ قد امتد به العمر فشهد زيارة السادات للقدس وتوقيع معاهد السلام مع إسرائيل ، ثم شهد التحول إلى اقتصاد السوق ونشوء الرأسمالية المتوحشة وعودة الانقطاع إلى الريف المصري وبيع المصانع . ألا تري أن الله كان به رفيقا فلم يجعله يعيش حتي يغني احتفاء بأولاد العم وترحيبا بالعدوان الأمريكي الذي شاركنا فيه ضد العراق وليبيا والسودان وتمجيда لتصفية الصناعة وتلاشي مجانية التعليم وتنديدا بالعمل الفدائي الذي صار اسمه عمليات انتحارية والمقاومة التي صارت إرهابا .

أنا أتصور أن الله قد أنقذه وحفظ ذكره لأن الموت المبكر قد حال بينه وبين أن يطول به العمر حتي يصبح مطرب لجنة السياسات !

علي العكس من الكاتب الصحفي الاشتراكي الذي عرفته سجون عبد الناصر والسادات كمناضل يساري من أجل المسحوقين ، ثم للأسف يمتد به العمر فإذا به يدخل الخطيرة ويتذوق برسيم الوزير ويشرب ماءه فيتحول إلى مدافع صلب عن الطراوة والرخاوة والمواقف المائعة والمعادية لأحلامه السابقة والتي دخل السجن دفاعا عنها .

إذن فالعمر الطويل ليس بالضرورة نعمة، إذ قد يصاحبه تآكل في الإرادة ونهاو في القدرة على الاحتمال وانفراط التماسك النفسي واليأس من رحمة الله، وهي العوارض التي لا يتجر منها الا القلائل من أولي العزم الذين لا يريدون شيئا من أحد فلا يستطيع أن يكسرهم أحد مثل الراحل الكريم الدكتور أحمد عبد الله ومثل عمنا الكبير الشاعر أحمد فؤاد نجم الذي أثبتت لنا الأيام أنه من كبار المغرمين صباة الذين . . لو خان زمانهم ما يخونوش .

حديث ذو شجون عنه الفوز الميمون

تضمنت أحداث عام ٢٠٠٥ فوز الدكتور محمد البرادعي بجائزة نوبل للسلام . ولا أدري لماذا أنا على خلاف كثيرين أشعر بإنقباض وتوجس ، ودائما ما تكون فرحتي مشوبة بالخذر والترقب عندما يفوز أحد المصريين بجائزة دولية كبيرة أو منصب دولي رفيع ، ربما أبالغ في مخاوفي وربما أن الخبرات السابقة فيمن نالوا هذه الجوائز أو حظوا بتلك المناصب هي التي تدفعني للإنكماش على ذاتي مرددا : يا ساتر استر يا رب !

أو ربما كان السبب هو إدراكي لحجم الهوان الذي انحدرنا إليه ، في الوقت الذي إنفردت فيه الولايات المتحدة بحكم البلاد الضعيفة من خلال وكلاء محليين ، وانفردت بكل المؤسسات الدولية تُسخرها لخدمة المشروع الأمريكي ، ومن ضمن أدوائها جائزة نوبل (حتى لو كانت الأكاديمية السويدية هي التي توزع الجوائز) كذلك جوائز السينما والمسرح والعلوم والفنون والمناصب التي تقوم بتوزيعها بما فيها منصب الأمين العام للأمم المتحدة .

راودني سؤال عن أي فوائد تكون مصر قد جنتها في السنوات من ٩٢ إلى ٩٦ أثناء تولي الدكتور بطرس غالي رئاسة المنظمة الدولية ، فلم أجد أي شيء ، ولا أقول أن غالي مسؤول عن إخفاقنا ولكن أقول أن توليه المنصب بدعم من فرنسا واستجابة من أمريكا لم يجعل لمصر أي فضل في الأمر وبالتالي فالرجل لم يكن قادرا على إفادة مصر حتى وإن رغب .

ولا ننسى أننا سمعنا من الدكتور غالي عن الباب السابع بميثاق الأمم المتحدة وعرفنا أن هذا الباب يغفل بد الأمين العام ويجعله غير قادر على تطبيق قرارات الأمم المتحدة ضد إسرائيل ، ولم يطلعنا أحد على الأبواب الستة التي سبقت هذا الباب المشؤوم وما إذا كان يمكن الولوج من أحدها لإرغام إسرائيل على الانسحاب وإيقاف إستهانتها وتحديدها للقانون الدولي ، كما أننا فوجئنا بأن هذا الباب الفولاذي الذي أسبغ على إسرائيل الحماية قد إمتلأ بالفتحات الواسعة التي مر منها ١٥٠ ألف جندي امريكي في طريقهم لإحتلال العراق . كذلك الحصار الخانق الذي فرضته الأمم المتحدة على ليبيا عام ٩٣ واستمر ٧ سنوات إنتهت باستسلام ليبيا لكل الشروط الأمريكية كان في عهد أمينها العام المصري بطرس غالي .

وجائزة نوبل للسلام التي فاز بها الرئيس السادات واستلمها ومصر ممزقة بين من وعوا مبكرا للسيناريو المشؤوم بعد الصلح مع اسرائيل بالشروط الاسرائيلية وبين من راودتهم أوهم السلام والاستعداد لإستقبال الرخاء الذي لم يأت أبداً .

و حتي فرحتي الطاغية بفوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للاداب عام ٨٨ لم تلبث أن تبددت بعدما عرفت الطبيعة السياسية للجائزة التي لا يمكن أن يفوز بها أديب مهما عظمت موهبته وارتقت أعماله إذا كانت له مواقف سياسية مناهضة لأمريكا وريبتها اسرائيل . إننا بالطبع نعرف قدر نجيب محفوظ ونعرف أنه أكبر من مائة نوبل وقد عشقنا أدبه من قبل أن يفوز بالجائزة ، ونري أن له كل الحق في إبداء أي آراء أو مواقف سياسية تتفق معها أو تختلف . . ولكن كل هذا لا يغير من حقيقة أن الجائزة لا تمنح أبدا لأي مبدع يعادي اسرائيل .

و طبعا الدكتور زويل خارج هذا الحديث لأنه حصل على الجائزة بحسبانه عالما امريكيا ، وهو حين يذكر مصر بالخير فإنما يفعل ذلك من طيب أصله ، لكن الحقيقة المؤكدة أنه لو ظل بكلية العلوم جامعة الاسكندرية لما حصل حتي على جائزة مهرجان الاذاعة والتليفزيون ! . . ورغم كل هذا فالتعاون العلمي بين الرجل وبين تل أبيب ليس خبرا جديدا .

و نأتي للدكتور البرادعي الذي صادف فوزه بالجائزة فتورا رسميا وكأن النظام "مقموص" منه ، ولم يشهد فوزه تطبيلا وتهليلا كسابقه ، وعلي أي الأحوال فموقف النظام منه ويا للغرابة يتفق مع موقفني من الحدث وإن اختلفت الأسباب ، فأنا غير مقموص من الرجل ولم أكن أطمع في أن أحل محله وأفوز بالجائزة ولكني أري في فوزه بها نذير شؤم ، ذلك أن الملفات المكلف بها الرجل لا تحمل أي إنصاف للعرب والمسلمين ، وخير مثال على ذلك البرنامج السلمي لإيران للحصول على الطاقة النووية وموقف الوكالة برئاسة الدكتور البرادعي منه . البرادعي يعلم قبل غيره أن إيران لم ترتكب أي مخالفة ويعلم أن تخصيص اليورانيوم للأغراض السلمية هو نشاط مشروع ، ورغم هذا فإن كل جهده ينصب على إدانة إيران والعمل على حرمانها من حق مكفول لكل الدول ، بالرغم من أن الدور المفترض للوكالة التي يرأسها هو رعاية وتشجيع الاستخدام السلمي للطاقة النووية ، ولكن ماذا نفعل والجهة التي منحتة الجائزة تضغط عليه في اتجاه مصالحها ، وبالتأكيد تمنعه من التفكير ، محرد التفكير في الحديث عن قتابل اسرائيل النووية . وحتى زيارته التي قام بها لإسرائيل وضعت اسرائيل شروطا صارمة من أجل إتمامها أهمها عدم الحديث عن أي شيء يتعلق بالبرنامج النووي الاسرائيلي ، والغريب أن الزيارة تمت كما أرادت اسرائيل ولا تدري ماذا

بقي لرئيس الوكالة الدولية للطاقة النووية ليتحدث فيه بعد استبعاد كل ما يخص الطاقة النووية من النقاش!

ليس الذنب ذنب الدكتور البرادعي الذي يحدوه الطموح المهني مثل أي انسان لتقلد أكبر المناصب بالشروط المتعارف عليها . الذنب والمشكلة تتمثل في أن الشروط المتعارف عليها للحصول على الجوائز وتقلد المناصب الدولية لا تساهم في وضعها وإنما يضعها الكبار من أجل أنفسهم وبالتالي فهي ليست في صالحنا ، ولهذا يظل من الأقل سوءاً أن تكون أدوات قهرنا أجنبية الصنع والمنشأ وليس من بينها مواطنون من بني جلدتنا ينفذون فينا الأحكام الجائرة . . بينما نحن نهلك لفوزهم الميمون!

فيصل القاسم يواصل إنتقامه!

لا أدري إلى متى يستمر الدكتور فيصل القاسم مذيع فضائية الجزيرة في انتقامه ، كنت أظن أن الوقت كفيل بأن يجعله يعيد النظر ويفرق بشعب مصر الذي لا يستحق منه كل هذا . لكن يبدو أن ندرس الذي تعلمه على يد الذين يديرون العزبة لدينا كان بليغاً .

و أصل الحكاية أن فيصل القاسم كمتقف عروبي كان كثيراً ما يستضيف في برنامجه " الاتجاه عاكس " شخصيات مصرية محترمة مشهود لها بالفضل والنزاهة والثقافة ، ولما كانت شخصيات من هذا النوع لا يمكن أن تكون على هوي الحزب الوطني فإن شهرة البرنامج وذيوعه وكثرة استضافة المعارضين به جعلت الحزب الحاكم يشعر بالحرج البالغ وبأن جهوده في إخفاء صورته الحقيقية عن شعب مصر يفضحها فيصل القاسم دون أن يقصد . . ومن هنا كان الضغط عليه . . ومن أقسى وسائله إبعاد شقيقه المطرب محمد القاسم خارج مصر وعدم السماح له بالغناء إنطلاقاً من القاهرة . من بعدها وصل فيصل القاسم إلى صيغة يرضي بها السلطة العاشمة في الظاهر ، ويتنقم في الوقت نفسه من الشعب الذي سمح لهذه السلطة أن تركبه ، فكان عندما يختار لبرنامج ضيوف مصريين يختارهم دون المستوى ، ليس بينهم معارضين ، وللأسف أغلبهم من عشاق اسرائيل والمبهورين بالمشروع الاستعماري الغربي الراضين لعروية وطنهم وإسلامه وهويته الحضارية . الذين لا يخفون سعادتهم باحتلال العراق وتفتيت السودان وإذلال سوريا .

و شيء من هذا شاهدته في الحلقة الماضية التي كانت تناقش تصريحات الرئيس الايراني أحمدي نجاد التي طالب فيها بمحو اسرائيل كمشروع استيطاني من الوجود . إستضاف البرنامج الاستاذ أنيس النقاش من لبنان ، وفي مواجهته شخص لم أسمع به من قبل قدّمه باعتباره صحفي مصري ولم يقل لنا بأي صحيفة يعمل . كان شكله غير مألوف بالنسبة لرجل ، إذ قام بلمّ شعره من الخلف في ضفيرة طويلة على شكل ذيل حصان مثل البنات . شعرت بالقلق وتساءلت : أين عثرت على هذا الكنز يا عم فيصل !

من البداية كان واضحاً ان الضيف اللبناني أتى إلى الاستوديو مُسلحاً بثقافته وإمامه الواسع بالتاريخ وثقته في نفسه ومنطقية الطرح الذي يتبنّاه . في المقابل تبدت الغوغائية والسطحية والجهل الفاضح في أحيانا المصري .

كان الأستاذ انيس النقاش يتحدث في لغة عربية فصحي وسليمة مسترسلا بشكل يدل على إتقاده ذهن ويعرض رأيه في ثقة وهذوء ، بينما كان الرجل ذو الضفيرة يتحدث بعامة مصرية بالغة الركافة تشبه حديث السمكرية وسائقي الميكرو باص (مع احترامنا للمهن الشريفة) . . القاف لديه أقرب إلى الكاف والطاء هي ناء صريحة . الضيف العربي يقول إن ما يطرحه الرئيس الايراني هو ما يمتناه كل عربي وكل مسلم ، وأن حماية اسرائيل وكفالة أمنها _ وإن كانت هماً امريكياً غربياً _ إلا أنها ليست قضيتنا بل العكس هو قضيتنا ، ولا ينبغي أن نتنفذ إشفافاً حين نرى رجلاً يهدد اسرائيل ، ولو كانت الحجة أن هذا الإعلان تنقصه الحصافة لأنه قد يكون مبرراً لضرب ايران وتدميرها ، فإن اسرائيل لا تحتاج إلى مبرر للقيام بهذا العدوان إن استطاعت ، وأن الرئيس الايراني يحتاج إلى دعمنا وليس إلى سخريتنا منه .

لكن في الجهة المقابلة نجد صديق اسرائيل الحنون يسب ايران ورئيسها ويكيل لها التهم ويشكك في نواياها ويستنكر أن يقوم أحد بتهديد اسرائيل لأنها دولة عضو بالأمم المتحدة ويدافع عن المشروع الاستعماري الذي رشق اسرائيل في قلب العرب مدعيًا في تبجح أن كثيراً من الدول العربية هي أيضاً نتاج مؤمرات الغرب (يقصد اتفاقية سايكس بيكو) فلا يجد النقاش سوي أن يتسم إشفافاً على صاحبنا الذي لا يحسن التمييز بين وطن عربي واحد تم تقسيمه إلى دول ودويلات من أجل إضعافه - مع بقاء سكانه كما هم - وبين عصابات اجرامية طردت شعباً من ارضه واسكنت غرباء مكانهم .

و كان فيصل القاسم يدير دفة الحوار بمهارة ودهاء ويوجه للضيف المسكين بين الحين والآخر سؤالاً يجعله يغوص أكثر وأكثر في وحل تمجيده للاسرائيليين والإفصاح عن كراهيته للعروبة والاسلام حتي أن الضيف المصري تمت لهلته وكان فرجة بحق أمام المشاهدين . ولا شك أن الجمهور المصري المشاهد قد شعر بغصة ومرارة من سوء اختيار فيصل القاسم ، فقد كان بإمكانه أن يختار ضيفاً غير مصري يتبني نفس الطرح التعيس وما أكثر حبايب اسرائيل الآن في كل البلاد العربية ، وكان بإمكانه أن يختار ضيفاً مصرياً من بين الذين يستنكرون تصريحات الرئيس الايراني ولكن لديهم منطق ولديهم مصداقية ويعبرون عن آرائهم هم ولا يتكلمون بلسان الأعداء . ولكن يبدو أن فيصل ما زال يواصل انتقامه من الذين عاقبوه لكثرة استضافته شخصيات مصرية محترمة فأراد أن يريهم كيف تكون الصورة عندما يفعل العكس . ولا نريد أن نضع اللوم كله عليه ، وإن كنا نناشده أن يكتفي بما حقق حتي الآن . . في الوقت الذي ندعو الله ألا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا .

صاحب الجلالة السائح!

أيما وليت وجهك يطالعك في الشارع إعلان عجيب يقول إن كل مليون سائح يوفر ٢٠٠ ألف فرصة عمل للمصريين ، وإذا فتحت الراديو أو التلفزيون يصادفك نفس الاعلان مع تفاصيل عن التي شيرت الذي يشتريه السائح ، وكيف أنه يفتح بيت الفلاح الذي يزرع القطن والسائق الذي نقله وعمال مصنع النسيج والمحل الذي عرضه والشاب الذي باعه . الخ . وينتهي الإعلان بأن السياحة خير لنا كلنا ! .

و على الرغم من سذاجة الطرح لأن الفلاح منذ فجر التاريخ يزرع القطن الذي يتم نقله وتصنيعه لأن هناك بشر مصريون في حاجة للملابس وليس من أجل التي شيرتات السياحة ، لكني لن أتوقف عند هذا . فقط أسأل من هي الفئة أو الطائفة أو الجماعة المستهدف أن تصل إليها الرسالة الإعلانية ، وأن تتلقاها على نحو إيجابي فتعدل من سلوكها المعادي للسياحة وتعود إلى حظيرة الوطن السياحية !

هل يرون أن السلوك العام للمواطن المصري لا يرحب بالسياح ولا يشجعهم على العودة مرة أخرى؟ ربما كان الأمر كذلك فعلا ، وربما كان المتعاملون مع السائح من المواطنين ينظرون اليه بحسبانته صيدا وقع في الشبكة ولا ينبغي إفلاته قبل اعتصامه . قد يكون كل هذا صحيح ، ولكن الأكثر صحة أن المواعظ والكلشيهات المدرسية لا تكفي ولا تصلح لحل المشاكل . . ولدينا آلاف الوعاظ والدعاة والأئمة والخطباء ، ومع ذلك لا تزداد الأخلاق والسلوك إلا تدهورا !

و إنما العودة إلى أصل المشكلة وإزالة أسبابها هو الطريق الصحيح للحل . ثم إن أغلب أسباب ضعف السياحة يعود إلى الحكومة المترهلة البلدية التي تخلت عن مسؤوليتها . و على سبيل المثال انظروا إلى مطار القاهرة واحكموا بأنفسكم . .

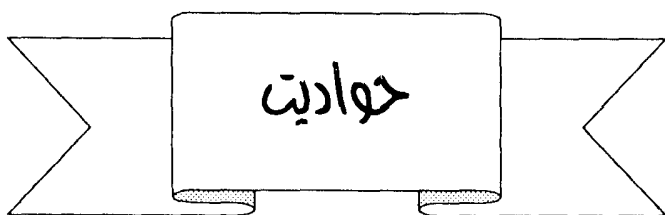
هل المواطن المصري هو المسؤول عن كل هذا الكم الهائل من المتسولين الذين يحيطون بالسائح عندما يخطو أول خطواته على أرض الوطن ومن بينهم أفراد الشرطة الذين ينتطعون على الناس قائلين وأيديهم مدودة لكل من يقابلهم : حمد الله على السلامة ، فهل الإعلان اللذيذ يستطيع أن يردع هؤلاء أم أن الذي يردعهم هو حصولهم على مرتب يحفظ انسانياتهم وبقيتهم ذل السؤال . . وهل المواطن المصري مسؤول عن موظفي الجمارك الذين يعتمدون التلكؤ والتركيز على تفتيش شنت السائحات والتقليب في أشيائهن النسائية على نحو بالغ الفجاجة؟ وهل المواطن المصري

مسؤول عن أن وطنه أصبح فاقدا للمصداقية والثقة بعد أن صار معروفا بأنه دولة لا تحترم القضاء ولا تنفذ أحكامه إلا بشكل انتقائي وحسب المزاج ، فهل هذا مناخ يشجع أحدا على زيارة بلاد ضاع الحق فيها؟! وهل المواطن المصري مسؤول عن أن شوارع المدن بما فيها العاصمة أصبحت ساحات لقضاء الحاجة تفوح منها رائحة البول بعد أن عزت المرافق العامة التي يحتاجها الإنسان مواطننا كان أم سائحا ، وكيف لا يعرف المسؤولين أن أي ميدان يحتاج إلى عشرة دورات عمومية " نظيفة " على الأقل وليس دورة مياه يتيمة عفنة تأنف الحيوانات من الاقتراب منها .

ثم نأتي إلى النقطة الأهم التي يغفل عنها من يحلمون ببلادنا بمستقبل سياحي زاهر وهي أن ليست هناك دولة متخلفة استطاعت أن تحقق تنمية اقتصادية من خلال الاعتماد على السياحة . ولننظر إلى أكبر بلدان العالم استجلابا للسياح . . أمريكا وفرنسا وإسبانيا وإنجلترا وإيطاليا واليونان . . كل هذه البلاد تعتمد اعتمادا أساسيا على الزراعة والصناعة ، ثم تأتي السياحة بعد ذلك تنويعا لوضع مستقر اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وأمنيا وليس العكس . أما نحن فقد تخلينا عن الزراعة واستسهلنا استيراد القمح والذرة والفول ، وتخلينا عن الصناعة فبعنا المصانع وشررد العمال ونحلم بأن تعوضنا السياحة عما جنت أيدينا من خراب وأن تستوعب ملايين العاطلين . وهذا تصور مضحك لمستقبل دولة تدعي الريادة . .

فمن ناحية لن يأتي السياح أبدا بالقدر الذي نتمناه وذلك للأسباب السالفة ، ومن ناحية أخرى ليس من الحصافة أن نجعل أرزاق وأقدار ملايين المواطنين معلقة بوضع أنني هشر قد تفجر رصاصة طائشة هنا أو عمل إرهابي هناك ، فضلا عن أن الخنفة التي نحلم بتدفق السياح منها موجودة دائما تحت أيدي الأعداء خارج الحدود!

و الأهم من كل هذا أن الأنشطة السياحية من منشآت فندقية ومطاعم وملاهي وكازينوهات وبارات تجعل من خيرة شباب مصر وخرابيحها مما فيهم الأطباء والمهندسون والجيولوجيون والمحاسبون والكيميائيون . . تجعل منهم مجرد جرسونات يعتمدون على تلقي البقشيش من الزبائن ويقدمون كل التنازلات بما فيها الأخلاقية في سبيل الحصول عليه . وقد بلغ الأمر في هذا الخصوص مبلغا يملأ النفس أسى وحسرة ، ولن أحكي عن أشياء مشينة يعرفها الجميع ، فقط أحكي عن أن هؤلاء الجرسونات أصبحت أراهم ينحنون للزبائن بشكل يخلو من الكرامة وعزة النفس ويخاطبون الزبون بلفظ : معاليك وجنابك في حالة من الانسحاق شديدة القسوة . فهل يرضينا أن يتحول أمل مصر ورصيدها البشري إلى عبيد عند من صاروا أصحاب معال لمجرد امتلاك بعضهم فقط لثمن كوب شاي في كافيتريا سياحي؟!!



عن الذين يجعلونه قيمة أنفسهم

تعرفت اليه أثناء إقامي بالخارج . . مهندس مصري مهاجر يملك شركة ضخمة للإنشاءات ، لتقيت به أول مرة بمنزل موظف إداري بالسفارة المصرية . في البداية ظننته السبّاك لأنه كان يقوم بإصلاح بالوعة مسدودة ، وعندما أنهى عمله تم تقديمه لي بأنه : المهندس فلان ، مرة أخرى التقيت به في حفل كبير أقامه المكتب الثقافي في ناد إجتماعي عريق ، شدّني حجم البذخ والإسراف في حفل . . ثم علمت أن هذا المهندس هو الذي قام بدفع تكاليف الحفل بالكامل .

تعددت المرات التي لقيته فيها بعد ذلك وكلها كانت مناسبات وأحداث خاصة بالسفارة والقنصلية والمكاتب المصرية المختصة بالسياحة والثقافة والتجارة . . إلخ وفي كل هذه المناسبات كان هو المتكفل بدفع جميع مصاريف الأكل والشرب وتأجير القاعات . . ولم يحدث أبدا أن رأيت اسمه مدونا على كارت الدعوة ولو باعتباره الراعي الرسمي أو بأي صفة تكفل له الحصول على حقّه الأدبي والمعنوي لقاء ما يدفع . والعجيب أن المناسبات التي كانت تقام ببيت أحدهم كان يتكفل فيها أيضا بنقل أفخم المأكولات من فنادق الخمس نجوم إلى بيت الموظف الرسمي صاحب الدعوة .

الخلاصة أنني وجدت هذا الرجل العجيب يبذل عشرات الآلاف من الدولارات بمنتهي لبساطة على أمور لا تخصه ولا تعنيه ولا يحصل منها على أي عائد ، وحتى عند حضور شخصية مصرية إلى هذا البلد كان ينوب عن السفارة في عمل إستقبال أسطوري يفوق قيمة الشخصية بكثير وفي النهاية يحصل السفير وأتباعه على " الكريديت " ولا يحظي صاحبنا حتي بكلمة شكر . الحالة العجيبة من العطاء المجاني السفيه لهذا الرجل أثارت فضولي فسعيت لمد الجسور معه لمحاولة فهم الحالة ، وفعلا جمعتني به جلسات كثيرة بالمقهى حكى لي فيها قصة حياته وهجرته للدراسة بالجامعة حتي تخرج مهندسا من إحدى أكبر الجامعات بالغرب ثم صار صاحب مشروعات ضخمة تجلب له أرباحا بالملايين ، وتطرق إلى الجزء الذي أثار دهشتي في شخصيته وقال : والآن بعد أن حققت كل أحلامي المهنية أحاول أن أقوم بدور في الخدمة العامة من خلال رعاية الاحتفالات والمناسبات لمصرية هنا خدمة مني لمصر !

كنت أستمع اليه فاعرا فمي من الدهشة ولم أشأ أن أعلق على هذا الكلام الفارغ بما يجرحه وأثرت أن أحتفظ برأيي فيه لنفسي . هذا رجل سفيه يملك المال والفراغ ويتصور أن إنفاق المال على موظفي السفارة والقنصلية خدمة لمصر . وذات يوم كنت أسير معه بالشارع عندما التقينا رجلا سلم عليه بجملة بحرارة وقدمه لي : أستاذي البروفيسور تيم روبنسون العميد السابق لكلية الهندسة التي تخرجت منها . . رحبت بالرجل الذي بادرني بالسؤال : هل أنت صديق لهذا الرجل ؟ قلت : نعم ،

قال يجب أن تكون فخورا بصداقة هذا العبقري ، ابتسمت في ارتباك ، فأكمل الرجل العجوز : هل تعلم أن هذا الرجل له سبعة مخترعات مسجلة باسمه ، وأن اختراعاته هذه أحدثت ثورة في دنيا الإنشاءات في العالم كله وجلبت لشركته أرباحا بالملايين ، إن صداقة هذا الرجل هي شرف عظيم ، لكن عيبه أنه لا يعرف قيمة نفسه . . هممت بأن أقول له : إن صداقة هذا الرجل ملقاة على الرصيف ومتاحة لكل من هب ودب وإني رأيته بعيني يصلح السباكة في منزل أحد الموظفين . بعد ذلك علمت من مصادر أخرى أن صاحبي هذا عبقرية هندسية لا مثيل لها حقا وأن الأوساد العلمية تعرف له مكانته وتحفظ له قدره .

أذهلتني هذه الحقائق عن الرجل . . إن سلوكه وإتضاعه وسعيه الحثيث للقرب من الموظفين الحكوميين المصريين الذين لا يملك أحد منهم علمه أو فضله أو مكانته ، وإنسحاقه أمامهم وبذره المال على مناسباتهم التافهة . . كل هذا لم يجعله موضع إكبار ولم يكفل له المكانة التي يستحقها بينهم . . بالعكس كانوا يأخذون منه على طريقة " حسنة وأنا سيدك " وبدلا من أن يجعلوا مقده تستفيد من علمه وخبرته ورغبته في القرب والوصال فإنهم يكتفون بالاستفادة من عبطه وسنبد ويجعلونه يصرف عليهم .

ذكرتني هذه الحالة بقصة ليوسف إدريس كان بها ما يشبه هذا هي قصة " علي ورق سوليفان عن قصة الزوجة التي لم تعرف أهمية ومكانة زوجها الجراح الكبير إلا عندما زارته بالمستشفى أثناء إجراء جراحة وعرفت أن الرجل الذي تستهين به في المنزل هو السيد المطاع الذي يحبه ويحترمه الجميع هنا . . وهي نفس التهمة التي عزف عليها الروائي محمد المنسي قنديل في أحدث رواياته " قمر على سمرقند " .

كل هذا طاف بخيالي عندنا قرأت عن توجه لدي بعض السادة القضاة بالعمل مستشارين لدى بعض الوزراء . . وتعجبت بشدة كيف يرضي القاضي أن يعمل في خدمة وزير ؟ وكيف لا يري هذا القاضي الحقيقة التي نراها جميعا وهي أن مقام القاضي أعلي شأن وأرفع مكانة وأكثر سموا من محالس الوزراء بالعالم كله ، حتي بالبلاد التي بها وزراء أتوا عبر انتخابات حرة وليس على أسنة الرماح ، وكيف لا يعرف بعض القضاة أن الناس تنظر إليهم نظرة مليئة بالاحترام الحقيقي والإجلال الحقيقي والعرفان الحقيقي وليس كما ينظرون لرجال السلطة التنفيذية في احترام زائف مرجعه الخوف والطمع . . لا يمكن أن يكون المال وحده هو ما يدفع بعض القضاة إلى الرض بالإشتغال عند الوزراء ، العامل المادي عامل مهم بالتأكيد لكنه ليس كل شيء ، هناك حالة من تقديس الميري تغلغلت في النفسية المصرية بحكم توحش السلطة وتغولها وقدرتها على سحق البشر ، وهذه الحالة للأسف لم ينج منها بعض القضاة ، كما لم ينج منها مهاجر عبقري مرتبط نفسيا بمصر ، يحاول أن يتقرب من ممثلي السلطة حتي بدون الحاجة إليهم ، ويتصور أن دفع فاتورة العشاء لسيادة السفير هي خدمة للوطن !

والله يا مصر زمان!

عندما نزل من الطائرة بعد غيبة ثمانى سنوات وصافحت بصره لافتة: إدخالها بسلام آمين . .
هتز قلبه وارتعش ووجد نفسه يغمغم: والله يا مصر زمان.

عبث رجال الجمر كبحقائه في جلافة، واستظرف أحدهم سائلاً إياه عن فيلم ثقافي، فلم يفعل ولم يسمح للغضب أن ينتقص من فرحته.

للم أشياء وخرج من المطار. هو يعلم أن مصر قد ساءت أحوالها إلى درجة كبيرة، ولن يدعي لتفاجؤ باللصوصية والرشوة والسوقية والقدارة. لقد كانت هذه أسباب سفره واغترابه. كل ما بعينه الآن هو أجازة لمدة أسبوعين بأقل قدر من المنغصات، ولن يسمح لأحد بأن يفسدها عليه.

توجه بعد أن وضع حقائبه بالبيت إلى مكتب تأجير سيارات حتي لا تضيق أيامه في الشجار مع سائقي التاكسي. كان المكتب فخماً يحتل شقة بالدور الأول في عمارة بالمهندسين، والسيارات تتخذ من الرصيف والشارع معرضاً دائماً!

أدهشه أن المكتب يغص بالفتيات اللاتي يشبهن فتيات هالة سرحان وقناة روتانا يعملن في استقبال الزبائن. سأله الموظفة بدلال عن طلبه فأجاب: أي سيارة بحالة جيدة. أمسكت بيده وسارت به إلى الشرفة وأشارت للسيارات الواقفة بالأسفل: اختر ما شئت فكل ما لدينا جديد. أشار إلى واحدة. قدمت له نموذجاً ملء ببياناته، لم يجادل في السعر رغم ارتفاعه الواضح، لكن فزع الشرط الموضوع في العقد والخاص بالأسافر خارج القاهرة وألا يتعدي ما يقطعه يومياً مائة كيلو متر، اعترض بشدة لأنه ينوي أن يسافر داخل القطر كما يحلو له. قالت ذات الدلال أن هذا يقتضي سعراً مضاعفاً! رضخ صاعراً لكنهم لم يكتفوا وطلبوا مبلغ ٢٠٠٠ جنيه على سبيل التأمين يتم رده عند إعادة السيارة.

بعد أن وقع الأوراق ودفع المطلوب فاجأته الموظفة عندما سأله التوقيع على إيصال أمانة بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه. رفض بشدة وقرر إلغاء الأمر برمته، حيث أن تأجير السيارات في كل مكان بالعالم لا يتضمن هذا الإجراء العجيب. هنا تدخل صاحب المكتب وهو رجل لا تحفي أناقته لبادية سحنة القواد غليظ الملامح التي يحملها وقال: يا سعادة الباشا نحن نثق بمعاييرك ولكن هذا جراً شكلي يسري على الجميع. . عندما تعيد إلينا السيارة نعيد إليك الإيصال.

حسم تردده ووقع الإيصال، لكن تفاؤله بالإجازة بدأ يهتز. تسلم المفاتيح ونزل إلى السيارة، فلما اقترب منها فوجئ بها "مخبوطة" في أكثر من موضع، وقال الموظف: سنقوم بعمل بيان بكل

العيوب الموجودة بالسيارة حتي لا نقوم بتحميلك مسؤوليتها عند إعادتها . فقال وهو يقاود الانفجار : أنا أريد سيارة سليمة وبدون عيوب وقد دفعت مبلغاً يكفي لشراء سيارة في البلد الذي أعيش فيه . فاعتذر الموظف السمج قائلاً : لقد وقّعت سيادتك على العقد ولا نستطيع تغيير السيارة ، فصاح غاضباً : إذاً أعيّدوا إلى فلوسي ، فهز الموظف كتفيه وانصرف .

عاد صاحبنا إلى المكتب مسرعاً وحكي الأمر للفتاة طالباً إلغاء العملية واسترداد ما دفعه . فاعتذرت بأن ما تم دفعه لا يمكن استرداده ، فطلب التحدث مع صاحب المكتب ، فأخبرته أنه انصرف ولن يعود قبل يومين !

لم يدر ماذا يفعل مع هؤلاء المخادعين ، وشعر بالدنيا تضيق في وجهه والإجازة توشك أن تتحول إلى كابوس . . لماذا تفعلون هذا؟ ألا تحرصون على سمعة مكتبكم؟ فقالت الموظفة : صدقني يا أفندم نحن لسنا نصايين . كل ما في الأمر أن العائدين من الخارج يتصورون الأمور في مصر تجري مثلما هي في الخارج ، وعندما تعتاد على التعامل معنا ستعرف كم نحن طيبون !

لم تزد كلماتها السخيفة إلا غضباً . المهم . . . فوض أمره إلى الله وعاد لاستلام السيارة . كانت مهمة فحص السيارة صعبة للغاية تحتاج لعيني صقر يستطيع رصد العيوب حتي لا يحملونه إياها عند إعادتها . في النهاية دخل سيارته وقبل أن يدير الموتور اكتشف غياب المرأة الأمامية التي لا يمكن القيادة بدونها ! أين المراية يا بني؟ ثانية واحدة معاليك ، غاب الأفندي قليلاً ثم عاد مبتسم وفي يده المرأة ودخل وثبتها في مكانها . أين كانت؟ هل أخفيتموها لتحاسبوني عليها وكأنني أنا الذي أضعتها؟ ابتسم في حياء مصطنع يليق بغانية ولم يرد .

وضع المفتاح وحاول إدارة السيارة فلم يتحرك الموتور ، جرب عدة مرات ، لا فائدة . . صرخ على العاملين : تعال يا بني ، السيارة لا تدور ، الله يخرب بيوتكم . . خف اليه وجه جديد . .

- ما الموضوع يا معالي الباشا؟

- الموضوع ان السيارة قطعة خردة لا تدور

فرد العامل كأنه تذكر شيئاً : آه عرفت ، السيارة ليس بها بنزين ، غاب لحظات ثم عاد يسلك بكموز حقير وصب مقدار فنجان بنزين داخل السيارة وقال : من الممكن هكذا أن تصل إلى محطة الخدمة عند الناصية القادمة !!

كاد صاحبنا أن يبكي من القهر . . لقد قام باستئجار سيارات في معظم عواصم العالم ، ومن المتعارف عليه أنك تتسلم السيارة مملووة بالوقود وتعيدها مملووة . أما أن تتسلمها فارغة فهذه بدعة

غير مسبوقة . وصل للمحطة وملاً السيارة بالوقود واندفع على الطريق مستبشراً أن الأجازة قد بدأت . لكن ما كاد يصل إلى الطريق الصحراوي حتي سمع الموتور يزجر وحشرجه تزايد ، ثم تعطل وتقف السيارة .

يوماً بأكمله أمضاه صاحبنا على الطريق بصحبة الميكانيكية والكهربائية والعفشجية . . في النهاية تم إصلاح السيارة ودفع صاحبنا مبلغاً جسيماً لإصلاح الكتاوت والكبالن والأنارخ إلى آخر هذه الأسماء العجيبة !

فقد صاحبنا رغبته في الفسحة وانهارت أحلامه في الاجازة ، وصار كل همه أن يستعيد إيصال لأمانته . . أعاد لهم السيارة مجددة ومملووة بالوقود ، وترك لهم مبلغ الايجار الذي دفعه وسمح لهم أن يصادروا مبلغ التأمين لأن السيارة بها تلفيات !!

لم يجادل ولم يناقش . . استعاد إيصال الأمانة وخرج إلى الشارع يغني : والله يا مصر زمان !

حياة ٧٧ الملقف الجريح

أي إنسان إذا كانت لديه مشكلة ، من الطبيعي أن يشعر ببعض المعاناة وقدر من الضيق يتدرج حسب حدة وطبيعة المشكلة ، لكن إحساس المرء بأن لا أحد يشاركه ما يحسه أو يفهم ما يعانيه . . لتأكيد سيسبب له عذابا أقسى وأمر من عذاب المشكلة ذاتها ، فالإحساس بالإغتراب وسط الناس . . قاتل .

عدت لمصر بعد سنوات بالخارج وبدأت أتردد على محل مجاور للمنزل يقوم بتأجير شرائط فيديو وال دي في دي . ولاحظت منذ البداية أن نوعية الشرائط ومستوي الصوت والصورة في غاية الرداءة مع أن أسعاره مرتفعة ، فكنت أعيده الشريط الذي أصابني بالنكد بدلا من أن يمنحي مهرة طيبة وأنا مستاء وغاضب ، وكنت ألقى عليه دروسا عن أهمية احترام العميل والمحافظة عليه من خلال تقديم خدمة حسنة وسلعة ذات جودة ، خصوصا وأن عصر الشمولية قد انقضى والتسعييرة الجبرية التي كانت مبررا للرداءة لم تعد موجودة ، والسوق أصبح مفتوحا ، والمنافسة على أشدها ، وقانون العرض والطلب يحتم عليه أن يرتقي بالخدمة والإضاع !

ولكن كان بروده يثيرني ، وعدم اكترائه لما أقول يزيد من حنقي وغضبي . لهذا فقد انصرفت عنه واتجهت لمحل آخر قريب ، فوجدت الأمر لا يختلف واكتشفت أنهم جميعا يقدمون نفس الخدمة لردئية ، واكتشفت كذلك أن مبادئ آدم سميث عن العرض والطلب والمنافسة وقوانين السوق كلها معطلة وخارج نطاق الخدمة ! واتضح لي أن أصحاب محلات الفيديو كانوا على حق عندما نهمني بعضهم بالرغبة في الشغب والبحث عن المشاكل ، وأنهم كانوا صبورين معي أكثر من نلازم ! ذلك أن بقية الزبائن لم تكن تصدر عنهم بادرة تذر أو استياء ، بالعكس كانوا يبدون سعادة والرضا ولم يشتك أحدهم من رداءة الصوت أو الصورة أو قذارة الشريط . . وقد سبق أن رأيت بعيني بعضهم يستأجر عشرة أفلام في المرة الواحدة بعضها هندي وبعضها أمريكي أو عربي ، وأشهد أنهم كانوا يتبادلون الضحكات الودودة مع العاملين بما يدل على الرضا التام عن المحل ومنتجاته .

من الضروري أن أذكر أن هذا لم يكن يحدث في حي عشوائي أو لدي محلات رخيصة ، الأمر نذي جعلني أتوقف طويلا أمام هذه المعضلة بالتساؤل : ما الذي يجعل أبناء الطبقة الوسطي يقبلون لدنية في حاجاتهم ؟ وما الذي يدفعهم إلى الرضا بنوعية الحياة الرديئة عندما لا يكون هناك مبررا لهذا الرضا كالفقر مثلا أو الجهل أو انعدام الحيلة ، إن الرضا بالدنية والقبول بنوعية حياة رديئة بدون مبرر قد قام على نحو واضح بتعطيل قوانين العرض والطلب وجعل التاجر يسى معاملة لزبون ومع هذا لا يخسر ! إلى حد أن الفكاهاني يبيع بضاعته كلها - ونصفها معطوب - بالسعر لنذي يحدده ، ولا أستطيع أن أتصدي له بسبب أن الآخرين راضون !

و حتي عندما أذهب إلى السينما وأدفع ٢٥ جنيه في التذكرة أجد أحيانا مقعدي مشغولا بأحد الأنطاع الذي جلس مكاني ويرفض أن يقوم، فإذا أصررت على مقفني أسمع (في الظلام) مهممات الحاضرين من عينة: " ما كل الأماكن زي بعضها يا أخي " أو " ما تعمملكش حكر واقعد في أي حته " . . هنا يجتاحني شعور ممرض بالألم والاغتراب والرغبة في الفرار من المكان ومن البلد كلها .

أنا أعلم أنهم لا يقصدون إيلاامي ولا يعرفون أنهم بما يفعلون يجعلونني أكره الحياة . . لهم أرشي لهم، واقتني أن أعيش حتي أراهم يعرفون الاختراع العجيب الذي عرفته الدنيا كلها واسمها "كواليتي" ويجدون في طلبه . . ويندرج تحته كل الأمور المتعلقة بالذوق في المعاملة والذوق في المنتج، وهو لا يرتبط بالفقر أو الغني . . يرتبط فقط بالإحساس ونظرة الانسان إلى نفسه وشعوره بالجدارة والاستحقاق .

ما أشد شعوري بالحق عندما أقرأ عن المعتمرين الذين يتم إلقاؤهم على أرصفة المواني والمطارات في انتظار السفن والطائرات التي تنقلهم لأداء العمرة . . . ومرة أخرى أنا لا أتحدث عن الفقراء الذين يتم التعامل معهم بالجزمة ٢٤ ساعة في اليوم . . أنا أتحدث عن أناس مقتدرين مدي ولديهم فائض للقيام بالرحلات السياحية، ومع هذا يعتقدون أنه كلما زادت البهذلة على يد الموظفين السفلة كلما زاد ثواب العمرة !!

ما الذي يجعل أبناء الطبقة الوسطي لا يتصورون وجود نوعية للحياة أرقى مما هم فيه . . هم طبعاً يحلمون بالصعود الاجتماعي ويرغبون في المال الذي من المفترض أن يجلبهم من الذل لكن هذا للأسف لا يحدث، إذ أنهم مع الصعود الطبقي ووفرة المال لا تتحسن نوعية حياتهم ولا يفرون من الذل . . هم فقط يجدون العزاء في إذلال عدد أكبر ممن دونهم!

و مهما حدث لا يرتفع مستوي توقعاتهم من الحياة، ما يرتفع هو نهمهم الاستهلاكي الذي يزيد الجلافة ويغيب الروح ويسحق الذوق فيجعلهم يستهلكون كل انتاج الدنيا التافه والردى من السلع، ويجعلهم يملأون جيوب تجار الخردة السينما والغنائية، ويحطمون حياة أي باحث عن الهدوء والخصوصية، كما يقتلون كمدا كل من يتوقع منهم المساندة أو المشاركة في الشأن العام وكل من يتمسك بحقه في أن يحصل على معاملة واحترام لائقين بالبشر . . ومع كل هذه الغلظة تجدهم ياللعجب ينكمشون أمام أي موظف، حتي لو كان موظف قطاع خاص هو أصلاً يتمني رضاهم وينظرون اليه باعتباره سلطة قادرة على العصف بهم، فيتنازلون طواعية عن أسبق حقوقهم لديه حتي أنهم يستحون من مواجهة الجرسون في المطعم لو كان الطعام سيئاً خشية أن يظن أنهم "مش وش أماكن نضيفه" .

عذرا لأنني لم أتحدث اليوم عن الفقراء وعذابهم الذي لا ينتهي، وتحدثت عن بعض حياة وآلام المثقف الجريح!

الرحلة ٩٩٠.. على ضفاف المأساة

على الساحل الشرقي للولايات المتحدة حيث سقطت الطائرة المصرية واستقرت في قاع المحيط، كانت المأساة كاملة. واستمرت توابعها تترى على الساحل نفسه في متوالية حزينة بعد وصول أسر الضحايا إلى ولاية "رود أيلاند" حيث أقرب بقعة من مكان السقوط.

رغم كل شيء، فالمكان بديع، فندق "دوبل تري" مستقر العشاق ومأوي الحالمين بالحب والسكينة، تحوطه المياه من كل جانب، كما تضيئ مزارع الورد على المكان سحراً وعبقاً. الاسم الرسمي للجزيرة هو "جزيرة الماعز"، أما سكان مدينة نيويورك التي يفصلها عن جزيرتنا جسر يعلو المحيط، فيسمونها جزيرة الفردوس.

كان الفندق قد تم إخلاؤه تماماً من النزلاء بتعليمات قاطعة من البيت الأبيض، وتم تسكين أسر الضحايا بمساعدة مندوبي شركة الطيران ومؤسسة مساعدة أسر الضحايا. عقد أول مؤتمر يضم الثكالي والأرامل واليتامي الذين فقدوا ذويهم مع رئيس المجلس الأمريكي لسلامة النقل الجوي في وجود مندوبين عن البحرية الأمريكية. القاعة ضخمة جداً، ومن الواضح أنها أعدت على عجل لاستقبال هذا العدد الكبير من أهالي الضحايا سواء الذين وفدوا من أنحاء الولايات المتحدة، أو الذين حملتهم الطائرة من القاهرة. سماعات الترجمة الفورية متاحة للجميع، الصليب الأحمر موجود لتقديم المساعدة، وكذا العديد من الجمعيات الدينية الإسلامية والمسيحية واليهودية. بعض التنافس الخفي لتأكيد الحضور يمكن ملاحظته، الشيوخ والقساوسة يحاولون تهدئة النفوس المتلوعة، المحامون الباحثون عن أفضل استثمار للكارثة يسعون لجمع التوكيلات، صرخة هنا ونحيب هناك، ونشيج مكتوم في كل مكان، حالة إغماء بهرع إليها رجال الإسعاف، صوت جرى يسأل عن موعد العشاء! المشهد مأساوي بكل معني الكلمة.

لافتة "ممنوع التدخين" واضحة للجميع شأن أي مكان عام بأمريكا، لكن من ذا الذي يجرو على تطبيق القانون بالقاعة الآن؟ كل ما فعلوه أنهم فصلوا أجهزة الإنذار بالحريق ونشروا طفايات السجائر بكل مكان لينتقدوا الأرضية من الدمار.

ألمحه وسط الجمع يجلس متملماً على كرسيه، يقف ثم يجلس، ينهض ويسير خطوتين ثم يعاود الجلوس، يرفع رأسه لأعلى فأري الزيف في نظراته، أقرب منه حتي أواجهه، عيناه مجهدتان من طول البكاء، أسأله: هل أستطيع أن أساعدك؟ فيجيب: بل تستطيع أن تتركني وشأني. قلت: هذا أسهل ما يمكنني القيام به ولكني أود مساعدتك. نظر إلى بعينه المكدودتين في شك، ثم طلب مني أن أجلس بجانبه وأن أساعده إذا أمكن في الحصول على ملابس لأن جلبابه قد اتسخ،

وأخبرني أنه وصل إلى مطار القاهرة من بلده بعد أن علم بالكارثة غير مصدق أن أخاه الوحيد مات. ثم حدث كل شيء بسرعة، تم تصويره واستخراج جواز سفر وتذكرة وتأشيرة، ثم رحل نفسه داخل الطائرة مع حشد من أهالي الضحايا. لأول مرة يركب طائرة في حياته، ناه عن مقعده حتي أيقظوه وأخبروه أنه وصل أمريكا.

انقطع الحوار بيننا عند بدء المؤتمر وran على القاعة صمت عميق، ثم بدأ السيد "جيم" بتقديم العزاء للحاضرين ثم شرع يشرح تفاصيل ما سجله الرادار، ويشرح الإجراءات المتخذة مثل هذه الحوادث، ثم تناول مندوب البحرية الأمريكية الميكروفون وأخذ يعدد الصعوبات التي تعترض وصول سفينة البحث عن الحطام بسبب الأحوال الجوية الصعبة. ثم بدأت الأسئلة تنبعث على المنصة من كل جانب عن فرصة وجود ناجين وانتشال الجثث وشهادات الوفاة وتحمل المسؤولية وصرف التعويضات. .

وسط هذا كله وجدت الرجل إلى جانبي يقوم من مقعده ويتجه نحو الميكروفون ثم يرحل سؤاله: لماذا نحن هنا. . هلا أخبرتموني عن سبب وجودي هنا بينكم؟ كانت الترجمة الفورية تسأله، ومن ثم جاء الرد الألي من المنصة يحمل التعزية والتعاطف والرغبة في تقديم المساعدة فقال: نعم، نعم أنا أشكركم على كل هذا لكني بعد لم أفهم ماذا أفعل هنا، أو ما هو المطلوب مني؟ إذا كان أخي قد مات فامنحوني جثمانه وشهادة الوفاة حتي أدفنه في "البلد". . أنتم تقولون إن الجثث يصعب استخراجها الآن، وشهادات الوفاة مرتبطة بوجود الجثمان، وصرف التعويض مرتبط بالإنئين، فلماذا أحضرتموني إلى هنا وقد كان يمكنني أن أتفرج عليكم في التلفزيون. ثم تهدج صوته وغلبه البكاء، فقام إليه بعض الرجال يهدونه ويعيدونه إلى كرسيه، ويبدو أن بكاءه قد نكأ المشاعر الملهته فانتشرت العدوي ولمعت العيون بالدموع. .

و هنا اندفع رجل أمريكي في منتصف العمر فقد أمه في الحادث كما عرفنا وأمسك بالميكروفون وبسده الأخرى بطحة خمر أخذ يعب منها وتساءل في استنكار غاضب: هل تريدون أن تقنعوني بالولايات المتحدة بكل معداتها البحرية وامكانياتها التكنولوجية الهائلة تعجز عن انتشال الطائرة الغارقة وجثث الضحايا لمجرد أن أمواج البحر مرتفعة؟! إني أشم رائحة غير طيبة وأشعر أن لديكم ما تودون إخفاءه.

ومرة أخرى يأتي رد المنصة رسمياً، حكومياً معلباً، به من المواد الحافظة ما يجعلك تعاف وتعجز عن ابتلاعه كما وصفه الرجل ثم واصل: أنا لا أصدقكم ولا أثق بكم ولن أستمع اليكم بعد الآن، أنا ذاهب ومعني صديقي هذا - وأشار إلى صاحبنا - إلى مكان ليس به طيبخ فاسد. وأخذ ذراع الرجل الذي قام إليه في سكينه وخرجا من القاعة.

بعد انتهاء المؤتمر الصحفي لمحت الرجل الأمريكي مجلس مع الفلاح المصري داخل البار يتبادلان حديثاً ضاحكاً، فلم أستطع أن أداري دهشتي. اقتربت منهما وسألت المصري: هل تعرف اللغة الإنجليزية؟ فأجابني: ولا حرف واحد، سألت الآخر: هل تعرف العربية؟ فكف عن الضحك وقال بجدية: ما لا تستطيع أن تفهمه تستطيع أن تحسه، ثم رفع كأسه لرفيقه وتبادلا الأنخاب، فتركتهما وانصرفت.

في الصباح التقيت صاحبنا المصري على الإفطار يجلس وحيداً، فجلست أفطر معه وسألته عن أحواله فأجابني: نمت نوماً عميقاً، ولم يبدأ الكابوس إلا حين استيقظت!

شعرت أنه قد أنس إلى فمضينا في جولة داخل ردهات الفندق حتي وصلنا للباب الخارجي، فرأيت مندوبي شبكات التليفزيون يقفون وكاميراتهم مصوبة في وجه كل من يطل برأسه خارج الباب، وتوجه إلينا أحدهم حياً وطلب أن ندلي بحديث، فاعتذرت له وهممت أن أمضي إلا أن صاحبنا أمسك ذراعي بقوة وأوقفني قائلاً: أنت لا تريد أن تتحدث إليه ولكني أريد، فسألته وقد أخذتني الدهشة: ماذا تريد أن تقول له؟ وكيف تراك ستحدثه؟ بالإشارة؟ أم تظنه مثل صديقك الفيسوف المخمور سيحس بك دون أن تنطق؟ فانفعل بشدة مؤكداً أنه قادر على أن يقدم نفسه للمشاهدين بشكل طيب ويشرح لهم قضيته! فطلبت منه أن يشرح لي قضيته هذه أولاً. فأجابني: وما شأنك أنت يا متطفل. . . مطلوب منك فقط أن تقوم بالترجمة.

وهنا انتهت إلى أن عشرات الكاميرات تسجل ما يحدث بيننا، وقد التقطت حاستهم الصحفية أن هناك من يريد أن يتحدث، فمد أحدهم ميكروفونه وسأله عن اسمه، فأجاب: محمد. من أين أنت يا محمد؟ نقلت له السؤال فأجاب: من ميت أبو الليل، ثم استطرد موجهاً سؤاله للصحفي: وانت. . . ما اسمك؟ نظر إلى الصحفي متسائلاً، فقلت له: يسألك عن اسمك. أجاب الصحفي: اسمي توماس أندرسون. من أين أنت يا توماس؟ وهنا لم أتمالك نفسي من الضحك وسألته: يا عم محمد، أنت الذي توجه الأسئلة! فرد بنفاذ صبر: دعني أعرف إليه على طريقتي وكُف عن تمثيل دور الحكيم. حاضر يا سيدي. . . انه يسألك يا مستر توماس من أي بلد أنت؟ فابتسم وقال: أنا من مينيسوتا. وبشحنة من الود الصادق رد محمد قائلاً: "أجدع ناس" فكدت أقع على الأرض من الضحك، لكنه قال لي: لا تضحك. . . ترجم. . . فقلت له ماذا أترجم؟ أنا ماشي، فوجدته يتعلق بذراعي وكأني صرت كل أمله في الحياة، وفي ضراعة استخلفني: لو كنت تحب النبي لا تتركني، لقد سألتني بالأمس إذا كنت أحتاج إلى مساعدة، فلا تحيب رجائي وترجم له كلامي.

اجتاحني حزمة من المشاعر المتناقضة ما بين اشفاقي على الرجل من أن يصير أضحوكة وبين

رغبتني حقيقة في مساعدته .. ثم قررت أن أساعده فيما يريد وليكن ما يكون . يا مستر أندرسون انه يخبرك أن أهل ولايتك أناس طيبون ! تجاوز الصحفي دهشته بسرعة وسأل ما قصتك يا مستر محمد؟ . أنا الأخ الأكبر لأربع فتيات ورجل واحد ابتلعه هذا البحر الذي أمامك ، وابتلع معه أحلام الأسرة كلها . كان قرة عين والديه ، متفوقاً منذ الطفولة حتي أصبح مهندساً بشركة البترول ، على عكسي أنا الذي لم أفلح في التعليم ولا في أي عمل . كان يتولي الإنفاق عليّ جميعاً . زوجته وأبنائه وأمه حتي شقيقاته المتزوجات كلهم يعتمدون عليه ، وأنا الرجل الطويل العريض هو الذي كان يعولني . فماذا أفعل الآن؟ إن أولاده سيقبضون مبلغ التأمين وهذا حقهم . ولكن ماذا عني أنا؟

أشرت اليه بالسكوت حتي ألاحق ترجمة ما قال لكنه لم يعرني التفاتاً واستمر :

لقد كنت بفضل علو شأنه أتجاسر على كل أهل البلدة ، والآن سيدوسوني بسنابكهم . ثم أردف في رجاء : لكنكم طبعاً أهل مروءة ، وبالتأكيد لن تقبلوا لي الهوان ، كل ما أريده منكم أن تنقلوا رسالتي للرئيس كليتون ، أريد كشك سجاير أتعيش منه في بلدكم الطيب هذا ، ولن أطلب منكم شيئاً بعد ذلك . أنهى جملة هذه ثم لكزني في جنبي وقال لي : هيا .. ترجم .

تحررت الدقة قدر طاقتي في نقل كل ما قاله وأنهيت المهمة بسلام . قدم الصحفي لنا الشكر وشد على يد محمد الذي لم يتردد في معانقته وكأنه صديق قديم ، ولم ينس أن يسأله عن موعد إذاعة اللقاء ، فأخبره أنه سيذاع بعد ساعة في القناة المحلية وانصرف . استدار إلى وسألني : هل سيراني العالم كله في التلفزيون؟ قلت له : في الغالب نعم ، قال : والرئيس كليتون؟ قلت له : هب اصعد إلى غرفتك لتشاهد اللقاء على الشاشة ، وربما يراك الرئيس كليتون . تركني وكل قسمات وجهه تنطق بالسعادة .

في الأيام التالية صار إنساناً آخر ، كنت أراه مزهواً بنفسه يسير في خيلاء وكأنه أصبح من المشاهير . وكان يجلس معظم الوقت بالمطعم أو بالبار وحوله جمع من الأصدقاء مستمتعاً بالطعام والشراب والصحبة ، أو واقفاً وسط الكاميرات بالخارج يقص سيرته الذاتية ، وقد استغني عن خدماتي ووجد مترجماً آخر . وكان أحياناً يمر بي فيوصيني : إذا سأل عني أحد من التلفزيون فأنا بالمطعم ولن أتأخر !

ما زلت أسترجع تلك الأيام ومعها السؤال المؤلم : هل كان لا بد لهذا الرجل أن يفقد أخاه الوحيد حتي يحظى بهذه الإقامة الطيبة في أجمل بقعة ، ويرتدي الملابس الجديدة ، ويخالط أناساً من كل لون ، ويحقق أحلامه في الشهرة الزائفة وهو الذي لم يغادر بلده قط .

و هل كان أخوه كريماً معه حتي النهاية ، فاستقر بقاع المحيط بهذه المنطقة ليمنحه أسبوعاً مجانيًا في جزيرة الورد؟

الوالي والفرنسيين

في أوائل الثمانينيات عندما كان الأصدقاء والزلاء من خريجي كلية الإعلام وغيرهم يتجهون شرقاً نحو الصحافة الخليجية كأحد أبواب الرزق . . إما مباشرة أو عن طريق مكتب مرسي للصحافة (و مرسي هذا كان أكبر سمسار "موضوعات") .

في ذلك الوقت قمت بحركة مضادة تصورتها فتحاً مبيناً عندما اتجهت بكليتي نحو الغرب والتقيت في تونس برئيس تحرير مجلة تصدر من مدينة "سوسة" فاتفقت معه على أن أصير مراسلهم من القاهرة ، وعدت إلى مصر يتملكني نفس الإحساس الذي راود "ماجلان" وهو يشق طريقه إلى العالم الجديد .

شرعت في العمل بكل همة ولم أركن إلى الاستسهال أو الفبركة وإنما قدمت أفضل ما في استطاعتي . بعد عدة شهور كنت خلالها أتلقي الشكر كما أتلقي أعداد المجلة بانتظام ، وجدت أنه من المناسب أن أسأل عن الراتب المتفق عليه والذي تركته يتراكم لديهم ، فاعتذروا بأن اجراءات التحويل والسياسات النقدية للدولة تجعل المسألة تستغرق بعض الوقت قبل أن يتنظم التحويل !

استمر العمل واستمرت نفس الحجة . . بعدها وجدت أنه لا بد من وقفة مع الصديق . . امتنعت عن إرسال الشغل وطلبت تسوية الحساب أولاً ، فأخبرني الأصدقاء في تونس أن الفلوس موجودة وأن بإمكانني أن أرسل من يقوم بتحصيلها أو أنتظر زيارة رئيس التحرير المرتقبة إلى القاهرة .

طال الإنتظار فوجدتني آخذ الطائرة وأهبط في تونس في زيارة مفاجئة لم أخبرهم عنها ، ثم أخذت القطار إلى مدينة سوسة . . وصلت في المساء وأوصلني التاكسي إلى بناية عليها إسم المجلة ، لكن أدهشني وجود جمع من الناس يجلسون على الرصيف ويدور بينهم حوار لم أفهم منه سوي اسم رئيس التحرير الذي كان يتردد على ألسنتهم مشفوعاً بالسباب ! قمت بتحيتهم وقدمت لهم نفسي . . آه أنت إذن مراسلنا القار بالقاهرة؟ أهلاً وسهلاً . . ولكن من أدراك باجتماع الليلة؟ قلت لهم رويداً ، هلا أفهمتموني ما الموضوع وأي اجتماع تتحدثون عنه؟ فهمت منهم أنهم لم يتقاضوا رواتبهم منذ عدة شهور وأن صاحب المجلة ورئيس تحريرها في نفس الوقت قد أغلق أبواب المكتب لما علم أنهم قد شكوه إلى الوالي وأنهم في طريقهم إلى لقائه بعد قليل ، سألتهم لقاء من؟ قالوا: لقاء الوالي ! سألتهم الوالي مين . . خورشيد باشا؟ قالوا: لا نفهم عم تتحدث . قلت : هل للوالي قلعة يتحصن بها في الجبل وأنتم ستصعدون إليه؟ ثم فهمت أن الوالي هو من نسميه في مصر . . المحافظ .

عندما اكتمل العدد توجهنا جميعاً إلى مبني الولاية ، ورأيت صاحب الجريدة الذي بهت لرؤياي لكنه عانقني وهو يتحني بي هامساً : مالك أنت وهؤلاء الرعاع؟ إن موضوعك مختلف تماماً عنهم .

أرجوك لا تحرجني مع الوالي . . في هذه الأثناء ظهر الوالي ودعانا جميعاً للدخول إلى مكتبه ، وقد حرص الزملاء على تقديمي إليه فحياني وأثنى على مصر وأبدي إعجابه بما يقرأه لي في مجلته فتلففت الخيط وقلت له إن هذا الشغل الذي أعجبك لم أقبض ثمنه ، ولقد أتيت من مصر خصيصاً للحصول على فلوسي بعد أن يئست من التحويل المزعوم الذي لا يجيء أبداً .

رأيت وجه الوالي يكتسي بالغضب وهو يضرب المائدة بقبضة يده ملوحاً للرجل الذي لم يكتف بفضائح المحلية ويريد أن تمتد الفضيحة إلى مصر . . قام صاحب المجلة بعمل مكاملة سريعة حضر بعدها رجل يحمل ظرفاً متنفخاً قدمه له فقام بدوره وسلمني الظرف أمام الوالي وقبل رأسي معذراً عن التأخير ، وسرت همهمة بين المحررين عندما رأوا هذا القادم من مصر وحده يحصل على فلوسه دونهم ، واحتدم النقاش بينهم ، عند هذا الحد قمت فسلمت على الوالي وشكرته وحييت الجميع ، وانطلقت أغادر مبني الولاية وأنا لا أصدق أنني ظفرت بمالي من فم الثعبان .

أخذت سيارة أجرة عائداً إلى تونس العاصمة وقضيت الليلة بأحد الفنادق . في الصباح قمت بجولة في أحياء المدينة وقد خطر لي أن أسأل عن إمكانية استبدال الدولارات بالنقد التونسي من البنوك ، ففوجئت باستحالة التغيير إلا إذا أتيتهم بما يفيد دخولي البلاد بهذه الدولارات . . استقط في يدي ولم أدر ماذا أفعل بالدنانير التونسية التي لا تساوي شيئاً خارج تونس - هذا إن استطعت الخروج بها - وعرفت أنه ليس هناك حل سوى التغيير من السوق السوداء وهو أمر مخوف بالمخاطر وعقوبته رادعة .

قررت المغامرة وذهبت إلى السوق الذي ينتشر به تجار العملة فوجدته يشبه الموسكي واكتشفت أنهم لا يعرفون الدولار لكن يتعاملون في الفرنك الفرنسي ويسمونه الفرنسي . . اقترب مني أحد الشباب وسألني في صوت خفيض : معك فرنسيس ؟ قلت : بل أنا الذي أريد فرنسيس ، نظر حوله ثم قال : تعال معي ، تبعته حتي توقف بجوار موتوسيكل وأشار إلى أن أركب وراءه ، ترددت قليلاً ثم ركبت وراءه فانطلق يلف ويدور لمدة نصف ساعة حتي استقر في النهاية عند زقاق مسدود ووقف بآلته البخارية ونزل ثم طلب مني الفلوس فلم أملك سوى أن أقدمها له . فقال : انتظرنى دقيقة واحدة .

صعد إلى بيت متهالك وبقيت في انتظاره . . الدقيقة الواحدة امتدت وصارت ساعة ، ثم ساعتين ثم انهارت اعصابي فوجدتني أندفع إلى البيت الذي دخله الشاب أطرق الأبواب بعنف وأنا أنادي عليه ، غير أن البيت كان مهجوراً ولمحت سلباً آخر يفضي إلى الشارع الخلفي فأدركت أنه اختفي واختفت معه فلوسي التي ظلت أعمل بها سنة بأكملها .

عدت إلى مصر وقد حرمت أمري ألا أعمل ثانية بالصحافة . . تلك المهنة العجيبة التي تضطرنني في مصر إلى أن أشتغل عند مرسي ، وتضطرنني خارج مصر إلى طرق أبواب الوالي والتعامل مع تجار الفرنسيين !

العلم.. حيه يُكَلِّدُ بالبتجاه!

لم يكن صلاح جاهين وحده الذي حلم بصناعة كبري، ملاعب خضراء، تماثيل رخام ع الترة وأوبرا في كل قرية عربية. أنا أيضا عشيت هذه الأحلام، وسرحت مع التصورات والأخيلة التي رأيت فيها مصر مكانا جميلا يرعي العدالة والحرية والمساواة. وعششت في رأسي صورة الوطن الذي يمنح أبناءه الكرامة فيمنحونه الحب والولاء. صحيح أن الأيام تكفلت بإجهاض كل هذه الأحلام عندما اندفع الوطن بعيدا عن سكة اللجنة الخضراء ومضي عاقدا العزم على أن يكون في النهاية مكباً للنفائات!، إلا أنني وطوال زمن تدرج الوطن من أعلي التل ظللت مقتنعا بأن عشاق هذا الوطن بإمكانهم إبطاء التدرج ومن ثم إيقافه حتي يأتي الله بقوم خير منا في جيل آخر ثم لا يكونوا أمثالنا!

و كنت أعتقد دائما أن التعليم هو البوابة الرئيسية لصيانة الأمن القومي بمعناه الحقيقي، وأن بإمكانه إن صح أن يهدي للوطن إنسانا عالماً ومتمنيا في أن. لهذا فقد كنت أنفر من المدارس الأجنبية التي تدرس كل العلوم بالانجليزية والفرنسية وتسليخ التلامذة منذ الصغر عن هويتهم وتلحقهم فكريا ووجدانيا بثقافة أوروبية تمجد الغرب وتراه النموذج والمثل، وتقلل من شأن اللغة العربية والهوية الحضارية للعرب والمسلمين.

و كان ماثلا في ذهني دائما ما فعله تلامذة المدارس الأجنبية في مصر عندما قرر عبد الناصر عقب العدوان الثلاثي أن يضع المدارس الفرنسية والانجليزية تحت إشراف الدولة، فقام التلامذة وأهاليهم والمدرسون بالتهديد بالاعتصام وأمطروا رئاسة الجمهورية برسائل الرفض والاعتراض (كما ورد في كتاب مصر ولع فرنسي) تأليف روبر سوليه، وبما يعني أن حبهم وولاءهم لأوطان أصحاب المدارس أكبر بكثير مما يحملوه لمصر.

و كانت كتابات ومواقف رجال كبار أمثال الدكتور حامد عمار والأستاذ فهمي هويدي تمنحني الثقة في صحة ما أعتقد، إذ ما فتئوا يدقون أجراس الخطر محذرين ومنذرين من أن انتشار مدارس اللغات التي تدرس للأطفال المواد التعليمية باللغات الأجنبية منذ الحضنة يشكل خطرا على الهوية، خاصة بعد أن ازدهر بيزنس التعليم واتجه كثير من أصحاب رأس المال لإنشاء مدارس للغات ثم قاموا باستقدام خوات من الخارج للتدريس معظمهم لم يدرس في بلده أبدا. المهم أنه خواجه ويعرف القراءة والكتابة حتي لو كان في بلده يعمل إسكافيا!

و لإثبات أنني لست ممن يأمر الناس بالبر وينسون أنفسهم، وللتدليل على أن الايمان بهذه الأفكار ليس موقفا حنجوريا للتصدير الخارجي في الجلسات مع الأصدقاء أو على صفحات الصحف فقط، فقد فاجأت الأهل والأصدقاء عندما قمت بإلحاق أولادي بمدارس عربي تدرس كل العلوم باللغة العربية ما عدا مادة اللغة الانجليزية، فاتهموني بالسفه والجنون واعتبروني خطرا

على أولادي . . لأن الحياة لم تعد تحتل مثل هذا الهراء المسمي بالهوية أو الانتماء ، وأن سوق العمل لم يعد يعترف الا بخريجي مدارس اللغات ، وحاولوا إقناعي بأن أبنائي أنفسهم لم يساحوني عندما يكبروا على ما فعلته بهم خاصة وأنا لا أشكو العوز أو العجز المادي .

قلت لهم : انا تخرجت من مدارس عربي ولم يمنعني هذا من تعلم الانجليزية والفرنسية أفضل من كل خريجي مدارس اللغات ، وانا أريد لأبنائي أن يتعلموا لغات أجنبية لا أن يتعلموا باللغات الأجنبية والفرق كبير . واجهوني بأنني فعلت هذا في غفلة من الزمن ، وأن الزمن لم يعد غافلاً الآن ! كانت المعارضة حادة وجارفة حتي أنني بدأت أتساءل بيني وبين نفسي عن صحة ما أعتقد ، ولم يؤيدني فيما ذهبت اليه سوى صديقي الأديب الدكتور محمد المخزنجي الذي أخبرني أنه فعل الشيء نفسه وألحق ولديه بالتعليم العربي لأنه يؤمن أن مدارس اللغات لا تقدم للتلاميذ سوي الرطانة واللكنة الأجنبية لكنها لم تمنحنا أبداً مترجماً عظيماً يفهم أسرار اللغة ويسبر أغوارها ويصلنا بالإبداع الفكري للغرب . ولقد استرحت كثيراً إلى هذا الرأي وكنت أحتاج لأن أشعر بأنني لست وحيداً .

ولكن تمضي الأيام لتكشف لي أن أولادي يذهبون إلى المدرسة ويعودون دون أن يتعلموا شيئاً . وأن مستواهم في اللغة العربية متواضع للغاية رغم أنهم يدرسون كل المواد بها ، وأنهم لا يفقهون شيئاً في اللغة الانجليزية رغم أنهم يدرسونها ، وبدأت أعي أن المشكلة ليست في تعليم عربي أو تعليم أجنبي . . المشكلة أن الدولة غير موجودة ، وأن مسألة المفاضلة بين تعليم وتعليم أو بين أسلوب وأسلوب يمكن أن تنشأ فقط عندما تكون هناك دولة وهناك مسؤولين وهناك مدرّس مؤهل لديه ما يقدمه للتلاميذ ، أما عندما يكون مدرّس اللغة العربية ضعيفاً في اللغة العربية فما الفائدة من الذهاب للمدرسة غير تشييط الجهل والعودة به للبيت ! ب

وقد حمدت الله كثيراً أن أنقذ أولادي من جنون أبيهم الحالم عندما انتقلنا للحياة في كندا وعشنا هناك لمدة خمس سنوات كانت كفيلة بفتح صفحة جديدة ونظيفة مع الحياة ومع التعليم ، فتعلموا اللغة الانجليزية وأتقنوها ، وعندما رجعنا إلى مصر ألحقهم بالمدارس الانجليزية التي بالرغم من كل مساوئها المستمدة من كونها تعمل في مصر ! إلا أنها تمنحهم شهادات يعترف بها العالم .

أما مسألة الهوية والانتماء فمن الواضح أنني فكرت فيهما وفي ذهني أساتذتي الذين علموني في مدرسة غمرة الاعدادية ومدرسة الأهرام الثانوية ، ولم أتنبه إلى أنهم قد رحلوا من زمان ، وأن مدرّسي هذه الأيام هم النسخة المدرسية من سعد الصغير ويعرور وشعبان عبد الرحيم ، ولم أتنبه كذلك إلى أن النموذج الذي حلمت به يقتضي شروطاً موضوعية غير جاهزة ، وأنني سأكون ضحية مؤكدة في حالة اصراري على أن أكون أباً محترماً لأبناء وطنيين في وطن "موكوس" ! وليسأخني الدكتور حامد عمار والأستاذ فهمي هويدي وكل المفكرين الوطنيين الذين منهم تعلمت حب الوطن وتعلمت لبس الطربوش . . . بعد أن تم إلغاؤه !

العمل تحت ناسه شمهوشه!

منذ حوالي عشرين سنة كنت أقوم بعمل موضوع صحفي مع سيدة مشهورة كانت تزعم اتصالها بالجن وقدرتها على الإتيان بالخوارق بمساعدة أصدقائها . . شمهوش وأعوانه .

في منزلها الفخم كان اللقاء ، بدت شديدة الأنافة والثقة بالنفس ، و من أول لحظة سعت إلى محاولة ابهاري وإدخال الروع في نفسي حتي يسهل عليها إحكام السيطرة على الحوار وقيادته في الاتجاه الذي ترغب ، وبالتالي تحصل على دعاية مجانية بعد أن يتحول الصحفي المنبهر إلى واحد من المريدين المستعدين للقسم على أنها صاحبة خوارق وكرامات . لم يكن هناك بيننا سابق معرفة ومع هذا فقد فاجأتني بقولها : حسناً فعلت أنك قمت بتغيير " سير الكاتينة " لسبارتك اليوم . . كانت المعلومة حقيقية ولا يعرفها سواي والميكانيكي ، ومع هذا فقد تلقيت عبارتها في برود ولم يبدُ على أي اندهاش . ومرة أخرى قدمت لي زجاجة مياه غازية قائلة : لقد أحضرتها لك من الصندوق لعلمي أنك لا تشربها ساقعة . . وعلي الرغم من استغرابي الداخلي فإنني حرمتها من السعادة والزهو ولم أسألها : كيف عرفت ؟ ومن أخبرك ؟ واكتفيت بأن شكرتها في حياد .

بدأت تسرد لي رحلتها مع الخوارق وبداية اكتشافها قدرات غير عادية في نفسها منذ الطفولة ، وكيف كان يستعين بها الجيران في العثور على القطعة الضائعة أو فردة الحلقي المسروقة أو معرفة حرامي الغسيل ، ثم واصلت الحكى حتي وصلت إلى قصة التقائها المتأخر بشمهوش ملك الجن . . و هنا لم استطع كتم الضحك وأنا أقول لها ان التقاءها بشمهوش بعد كل هذه السنين هو بمثابة لقاء السحاب مثلما اجتمعت السيدة أم كلثوم بالموسيقار عبد الوهاب في أغنية انت عمري ! . وقد كانت ملحوظتي هذه كافية لرفع درجة الخلق عندها فتوقفت عن الاسترسال وقالت : من الواضح أنك تستخف بكلامي ولا يبدو أنك تصدق أو تتجاوب مع ما أقول . فبادرت معتذراً : أنا لا أستخف على الإطلاق لكن اعذريني فأحياناً القافية تحكم . . ومع هذا فتأكدي أنني سأنتقل عنك للقراء بمنتهي الأمانة .

قالت : لن تستطيع أن تنقل عني إذا لم تكن مؤمناً بكلامي ومصدقاً له ثم أردفت : ولعلمك فإن سخريتك هذه من الممكن أن تكلفك الكثير لأن من تتهمك عليهم قادرون على إيذائك . قلت لها : لأ أرجوك . . حوشي عني شمهوش أنا مش قده . قالت : ما زلت تسخر ؟ قلت جاداً : أنا لا أسخر أنا فقط في دهشة من أمرك أنت والأخ شمهوش وأمثالكما . . أليست لديكم القدرة على اقناع الناس بقدرانكم إلا من خلال تخويفهم وإلحاق الأذى بهم ؟ . قالت : ماذا تقصد ؟ قلت : ليس بإمكانك أن تحمليني على التصديق من خلال أن تحققي لي أحلامي مثلاً أو من خلال حل

مشاكل الوطن؟ لماذا لا تقومون بإطعام الفقراء وحل مشاكلهم في الاسكان والمياه والصرف الصحي؟ لماذا لا يتدخل شهورش في إعادة حق الفلسطينيين في أرضهم المحتلة وحل اسرائيل على الانسحاب . . ثم انطلقت مضيقاً: أنا لا أنكر وجود بعض الناس ممن حباهم الله قدرات تعلو على غيرهم في رؤية أشياء أو كشف غوامض أو الإتيان بغير المألوف . . لكن هذا في النهاية لا يعني شيئاً بالنسبة لي حتي وإن صح ، وأصدقائك من الجن الأحمر أو أيا كان لونه ما الذي نستفيد له أنهم جعلوك تستطيعين المشي فوق الماء مثلاً؟ لماذا لا تجعلوننا نعترف بسلطانكم ونقر بصلاحياتكم من خلال أشياء نافعة بدلاً من الهراء والأذى؟

رغم انقضاء سنين طويلة على هذا الحوار فقد ظل ماثلاً في ذهني دائماً ، خاصة وأنا أري الحافز السلبي هو السبيل لحمل الناس على الانصياع والخضوع ، وأشاهد السادة في مواقع الإدارة والمسؤولية لا يملكون من وسائل الإقناع بحجيتهم وقدرتهم وهيبتهم غير الحاق الأذى بالعاملين أو التهديد بهذا الأذى . ويبدو أن الجهاز الحكومي أصبح لا يضم سوى رؤساء صوريين منزوعي الصلاحية لا يملكون من مظاهر السيادة سوى القدرة على البطش والتنكيل ، أما القدرة على المكافأة والتحفيز الايجابي فخارج صلاحياتهم!

و من الواضح أن الفساد الطافح في الجهاز الإداري للدولة قد جعل الكثيرين يدركون أن الاجتهاد في العمل يحمل مخاطر التهميش وضياع المستقبل ، لذلك تجد المسؤولين يفرعون من وجود صلاحيات في أيديهم ويبادرون إلى التنازل عنها طواعية لرؤسائهم الأعلى ويكتفون بالحصول على مزايا الوظيفة دون أعبائها ، وهؤلاء بدورهم يقومون بالشيء نفسه وهكذا . . حتي تجد أتفه الأشياء تصل إلى الوزير وتحتاج لتوقيعه ، والمأساة أن هذا بدوره لا يقل عنهم ذعراً ويكتفي بلهظ القشطة فقط والقيام بدور السكرتير المطيع!

و من الطبيعي والأمر هكذا أن تفقد احترامك لهم وأن تستخف بهم . . ولكن هنا بالضبط يأتي دور شهورش القابع داخل كل منهم . . يبرز اليك شهورش ليعيدك إلى حظيرة الطاعة ويذكرك بأنه وإن كان عاجزاً عن مكافأتك وتقديم نفسه لك كمثال أعلي ، فإنه قادر على إيدائك وتكدير حياتك وجعلك تمشي تكلم نفسك!

كاوتشا والانتبخ

من المعروف لكل من قضى فترة من حياته خارج مصر أن الامتحانات التي تُعقد للطلاب المصريين تحت اسم "ابناؤنا في الخارج" هي في الأغلب الأعم امتحانات مزورة . . مثل الانتخابات التي يعقدها ابناؤنا في الداخل لمجلس الشعب والشوري وخلافه . ولا تنشأ عادة أي مشكلات نتيجة تزوير الامتحانات وجلس أولياء الأمور مع ابنائهم وقيامهم بالكتابة بأنفسهم وحل الامتحان بأكمله ، كما لا تنشأ أي مشاكل عندما يجلب الأب أصدقاءه المتميزين ليساعدونه في المواد التي يعجز عن حلها بمفرده حتي لا تكون الدرجات النهائية في كل المواد محل شك . أيضا لا تكون هناك اية مشكلة في أن يكون توزيع أوراق الاسئلة والاجابة حسب الطلب وطبقا لرغبة الأب الممتحن ، ولا أن يمتد زمن الامتحان حتي ينتهي الجميع مهما طال الأمد .

و رغم كل هذا فقد حدثت المشكلة . .

حدثت لأن الاستاذ الدكتور رئيس المكتب الثقافي والتعليمي المسؤول عن الامتحانات التي تعقد بمقر مكتبه لم يكن على ما يرام ، كان مزاجه متعكرا لمروره بظروف صعبة ، فخلافه الاخير مع سيادة السفير كان مدويا ، وصلت تفاصيله لأعضاء الجالية ، وكان أكثر ما ضايقه معرفته بأن طلبة الدراسات العليا المصريون يطلقون عليه إسم : الأنتبخ ، وأن الذي نقل اليه هذه المعلومة هو السفير نفسه أثناء قيامه بالتحقيق معه ، وأثار حنقه عدم قدرته على ان يجبر السفير بأن الجالية المصرية تسميه هو الاخر : السفير كاوتشا .

أما سبب الخلاف بينهما فبسيط . . السكرتيرة العربية الحسنة التي تعمل لدي الأنتبخ _ وله فيها مآرب أخرى _ كان الأخ كاوتشا يطمع في أن يتم تداولها بينهما من باب الأخوية والجدعنة ، غير أن الأنتبخ أكل وحده حتي يشم ، مما أحفظ عليه سيادة السفير وجعله يدبر مع أصدقائه خطة تم بمقتضاها شراء ذمة السكرتيرة أو ما تبقى منها ، فقامت بتسجيل مكالمات الغرام بينها وبين رئيسها ثم رفعت دعوي تحرش ضد الأنتبخ العاشق وأرسلت صورة من الدعوي لسيادة السفير حتي يري شأنها في مروضه الذي وعدا بالزواج ولم يف بالوعد .

أقام السفير الدنيا وأقعدا أسفا على الأخلاق المهذرة وكرامة الوظيفة التي انتهكت وسمعة مصر التي تمرغت في التراب . وصل الموضوع لمصر وتم تكليف السفير باجراء تحقيق ، ولم يتردد كاوتشا في أن يذيع الموضوع بتفاصيله على الجالية المصرية حرصا منه على البروسترويك والجلاسنوست ، وتوقع الجميع أن يعود الأنتبخ إلى مصر بنفضيحة ولا يكمل مدته ، إلا أن مصر التي دائما ما ترتفع فوق الجراح وتسمو على ألمها الشخصي لم تفعل مع الرجل أي شئ ، ليس لأنه واصل لفوق ولكن لأنها أمتنا التي تحمي ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، وأحيانا . . تستلف ولا تسدد .

لم ينس الأنتبخ الإهانة ، وواتته الفرصة للإنتقام عندما أقيمت الامتحانات التي تعقد تحت

أشرافه، وهي كما ذكرنا امتحانات صورية يجلس فيها الأب والأم والأبناء يفترشون الأرض ومعهم السندوتشات واليوسفتندي وترموس الشاي كأنهم في القناطر يوم العيد. السيد السفير له ولدين يدخلان الامتحان هذا العام، لذا فقد قرر الدكتور أنتيخ أن يعيد البراءة والنزاهة إلى الامتحانات ويمنع كل اشكال الغش، ويحظر دخول أولياء الأمور إلى اللحنة وأن تكون امتحانات حقيقية مثل التي كانت تعقد في مصر زمان أيام داحس والغبراء، فلما ثار الناس عليه قال لهم أن شيخ الجامع أخبره أن الغش في الامتحانات حرام وهو لن يرتكب هذه المعصية. إستدعاه السفير إلى مكتبه يستوضح منه الأمر فأصر على موقفه، فلما عتقه السفير وحاول تهديده أطلق صيحته مدوية في جنبات السفارة: أتحاربون رجلا يقول ربي الله؟ ثم انصرف غاضبا.

عقد كاوتشا مجلسا ضم موظفي السفارة وأعضاء الجالية الذين بنوي الدكتور أنتيخ التنكيل بأبنائهم الذين يجهل معظمهم الكتابة باللغة العربية. جلسوا ليتدارسوا الموقف، اتفقوا على أن يذهب وفد منهم إلى الرجل لمحاولة إثناءه عن موقفه. قابله وتحدثوا اليه لكنه لم يتزحزح. أخبروه بأنهم يعرفون برغبته في تأديب كاوتشا لكنهم وابتاءهم ليس لهم ذنب في هذا الصراع وبأن معني إجراء امتحانات نزيهة هو أن يرسل أبناءهم جميعا، فنصحهم بأن يستغفروا الله ولا يربوا اولادهم على الغش والتزوير.

وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود والامتحان يبدأ غدا، فتم الانتقال إلى الخطة البديلة. . في الصباح تمهر الاباء والابناء في مدخل البناية وعندما نزل اليهم الدكتور استقبلوه بوابل من الشتاتة وخلعت امرأة حانقة شبشبها وطاردته، ففر هاربا. . إنتحى أحد المتمردين جانبا وقام بإتصال تليفوني: كله تمام يا افندم. حضر السفير بسرعة لانقاذ الموقف المتدهور وقام بإلغاء الامتحان الذي كان قد بدأ بالفعل بوجود عدد قليل من التلاميذ.

دارت اتصالات محمومة بمصر. . السفير بشرح للمسؤولين أن الأنتيخ يريد أن ينفرد بالتلاميذ دون أولياء أمورهم وهو رجل له تاريخ في التحرش. لذلك فقد كان عليه أن يوقف المهزلة. والدكتور يشرح للمسؤولين أن كاوتشا له أبناء يريد نجاحهم بالغش لذلك يرفض الامتحانات النزيهة. قامت مصر بإيفاد مبعوثة رفيعة المستوى قامت بنقل الامتحانات من المكتب التعليمي لتعقد بمقر السفارة وفي حضن السفير كاوتشا.

أوضحت سيادتها بأن الوضع في مصر لا يحتمل هذا العبث وعليهم ان يرتفعوا المستوي الموقف، وقامت بنفسها بتوزيع البونبون والشوكولاتة على ابنائها التلاميذ، وجلست بجانبهم على الأرض وساعدت أولياء الأمور في نقل الكتب الخارجية بين بعضهم البعض حتي يسهل استخراج الاجابات النموذجية، ثم عادت إلى مصر بعد أن اطمأنت على ابنائها وبناتها زهور الوطن وأمل المستقبل.

ملحوظة: بعد أنتهاء مدته بالخارج وعودته إلى الوطن تقلد كاوتشا منصبا كبيرا، كذلك الأنتيخ تمت مكافأته بمنصب محترم، ذلك لأن مصر أبدا لا تنسى أبناءها. . السفلة!

الرجل الفاشنكاح

منذ عدة سنوات دُعيت وصديق لي للقاء مسؤول خليجي يشغل منصبا كبيرا، ولما كنا لم نلتق به من قبل ولا نعرف شكله عن قرب، فقد هالطنا الصورة المفزعة التي رأيناها عليها. عندما ولجنا من باب الحجرة بالقصر الكبير في صحبة السيد الوكيل رأينا رجلا ضخما الجثة مترامي الأطراف يجلس مضطجعا على أريكة تحوطها الوسائد، ولهول حجمه وثقل حركته لم يستطع أن ينهض، فصافحنا تقريبا من الوضع نائما. إنطلق سيادته يتحدث بعفوية في موضوعات شتى، ولم يكن جهله وتواضع مداركه مما يمكن إخفاءه، وإن كنت لا أنكر أنه رغم بداوته كان خفيف الدم. وفجأة حدث ما أذهلنا وجعلنا نحمد في مقاعدنا من الخوف. إذ سقطت رأس الرجل وتدلّت فوق صدره فتصورنا أنه مات، لكن علو شخيره منحنا طمأنينة بأنه في غفوة ليس إلا. أشار إلينا الوكيل بيده ألا نقلق ولا نحدث صوتا. وكما غفا فجأة عاد الرجل ورفع رأسه بدون مقدمات واستمر في الحديث من حيث انقطع الإرسال. تكررت نوبات النوم الفجائي خمس مرات خلال ٤٠ دقيقة قضيناها بصحبة هذا الرجل الذي علمنا أنه بالكاد يفك الخط وعلما أيضا أن كسله وبلادته مضرب الأمثال في بلاده، ومن ثم وعلي سبيل الهزار فقد أطلقنا عليه إسم "الرجل الفاشنكاح"، ومن الغريب أن هذا الإسم الهزلي قد شاع في المدينة لدرجة أصابتنا بالقلق!

ما الذي ذكرني بكل هذا الآن؟ ذكرني به أنني طالعت صورة هذا الرجل على شاشة قناة خليجية هذا الأسبوع في إحدى نوبات يقظته القليلة. رأيت الرجل الفاشنكاح يحمل على عمرو موسى بضراوة ويسبه سبا عنيفا على نحو غير معتاد في الأعراف الدبلوماسية، والمناسبة هي أن الأمين العام لجامعة الدول العربية قد بعث برسالة إلى السادة أعضاء مجلس التعاون الخليجي لفت نظرهم فيها إلى أن الخطر الكبير الذي يتهدد العرب هو البرنامج النووي الإسرائيلي وليس البرنامج النووي الإيراني الذي يركزون جهدهم لإدائته.

ما كادت رسالته تصل حتي تلقى الرجل الرد على الرسالة في أعنف صورة. علق بعض المسؤولين الخليجيين بأن عمرو موسى "كمواطن مصري" يمكن فهم مخاوفه من أسلحة إسرائيل النووية، لكننا في الخليج نخشي الخطر الإيراني ولا تشغلنا إسرائيل!، وعلق البعض الآخر بأن رسالة موسى تتسم بالوقاحة ودعا إلى تلقيه درسا في الأدب، أما الرجل الفاشنكاح فقد عبر كل الحواجز وتجاوز كل الحدود ووجه لعمرو موسى إهانات شديدة السفالة.

لا أستطيع القول بأن إهانة عمرو موسى قد أزعجتني، فهذا الأمر لا يعنيني، وعمرو موسى نفسه لم ينزعج أبدا من إهانة المصريين في كل الدول العربية عندما كان وزيرا خارجية مصر، لكن

ما أثار دهشتي هو هذا المنحي الجديد في علاقة المسؤولين العرب بنظرانهم المصريين .. لقد كنت أظن دائما أن السادة العرب حكاما ومحكومين يستطيعون توجيه كل أنواع الإهانات لأفراد الشعب المصري داخل مصر وخارجها ويستطيعون التعدي على حقوق المصريين واستغلالهم وسرقة عرقهم بل وحتى قتلهم في الشوارع بالسيارات المنفلتة وهم بمأمن من أي عقاب ، وكنت أظن أن هذا يحدث تنفيذا لسنود عقد غير مكتوب بين المسؤولين المصريين ونظرانهم العرب يتم بمقتضاها استباحة شعب مصر وانتهاكه مع عدم المساس أبدا بالمسؤولين المصريين باعتبارهم المصريون الوحيدون الذين لديهم كرامة يتعين حفظها .

لهذا فقد أدهشتني الحملة البذيئة ضد عمرو وموسي .. وكان مما قالوه انه مجرد موظف عندهم ، يتقاضى مرتبه من أموالهم وبالتالي لا يحق له أن ينطق إلا بما يقررونه هم .

و الأمر الملحوظ أن حملة البذاءة تناولت الرجل بحسبانه مواطنا مصريا .. فهل يعني هذا بداية مرحلة جديدة لم يعد " الإخوة " العرب فيها يعبأون حتي بتنفيذ بنود العقد الجائر بإمكانية إهانة المصريين البسطاء فقط ، وانتقلوا لإجتياح كل ما هو مصري مستفيدين من خفة موازين مصر الحالية وإنعدام تأثيرها وعدم قدرتها على أي رد فعل بعد أن أصبح وزنها وقيمتها بين الدول صفرا؟

عادت بي الذاكرة إلى مجموعة حوادث وقعت ضد المصريين وعصرت قلب مصر من الحسرة . تذكرت الطبيب المصري الذي تم اغتصاب ابنه في السعودية ولم ينصفه أحد بل وتم إيداعه السجن لأنه جأر بالشكوي .. حينها بدت الخارجية المصرية عاجزة عن فعل أي شيء ، وتذكرت أحداث خيطان في الكويت عندما تم التكيل بالصعابدة المصريين ولم نستطع إعادتهم إلى الوطن أو صيانة حقوقهم في الغربية .. وأعظتهم الخارجية المصرية ظهرها ، وتذكرت النعوش التي كانت تعود من العراق يوميا تحمل جثث المصريين أيام شهر العسل مع نظام صدام ، وحينها اكتفت الخارجية المصرية باستخراج شهادات الوفاة !

و تذكرت لاعب الكرة الجزائري الذي فقأ عين مواطن مصري في القاهرة وعاد إلى بلده في اليوم التالي ، وغيرها عشرات الحوادث التي تم فيها دهس كرامة المصريين وأغلبها للدهشة حدثت عندما كان عمرو وموسي وزيرا للخارجية ، ثم تدور الأيام ويتلقى عمرو وموسي شتائم من بعض " الأشقاء " الذين يتم تحريكهم بالزميلك وعلي رأسهم صديقي الرجل الفاشنكاح .. فاللهم لا شماتة .

الحب والوقت...مه يقتل مه؟

بيقولوا الحب بيقتل الوقت ، بيقولوا الوقت بيقتل الحب ، يا حبيبي تعا تا نروح . قبل الوقت وقبل الحب . هكذا حدثنا فيروز وأخبرتنا بالحدوثة .

كتب في مذكراته :

عزيزتي ندى . . المرات التي التقينا فيها قليلة ، وتاريخي معك قصير ، وعلاقتنا كلها عبارة عن أربعة لقاءات فقط . .

في المرة الأولى جمع بيننا حوار عابر في مكتبة الديوان ثم استكملناه في المحل المجاور ، هل تذكرين ؟ جلسنا نشرب القهوة وأدهشني أنك فتحت قلبك وتحدثت إلي بصدق نادر . كنت أخشي أن تفضحني عيناى حيث احببتك في صمت منذ استمعت اليك تعزفين في تلك الليلة الشتوية في بيت صديقنا المشترك . . الفنان التشكيلي . لم أشأ أن أطلعك على ما اعتراني وفضلت أن أحتفظ به لنفسى على أمل أن تكفل الأيام بتدويبه كما تفعل دائماً !

ولكن ها أنت تجلسين أمامي تروين لي فصولاً من حياتك ، وإذا بالأمر تندفع في اتجاه لم أحسب له . حدثتيني عن ندى الإنسانية . . التي لا يعرفها أحد . تعود من العمل إلى وحدتها القاتلة داخل القوقعة الإختيارية . عرفت منك ان طاقتك الشعورية قد تحولت نحو العمل لأن الحب الحقيقي لا يأتي . . طفرت من عينيك الدموع بينما تحكين عن ملابس الأطفال التي تغزلينها وينقصها فقط . . وجود الأطفال .

قلت لي : هل تعرف أن كل نجاح أصيبه يشعرني بالأسى بدلا من أن يفرحني ، وحتى عندما أنظر للمستقبل لا أرى نفسي فيه إلا وحيدة . ما زلت أتذكر أسئلتك الحيري : ما فائدة الجمال ، وما جدوى الذكاء ؟ ما قيمة شخصيتي التي تجذب الناس إلى مع أنها لم تمثل لي سوى لعنة دائمة ، الرجال يقتربون وعندما يكتشفون أنني مستقلة مادياً ولا أدعي السذاجة والأهم . . لا أكذب ، لا يستطيع أحدهم أن يصمد في خطوبة تفضي للزواج .

أدهشني أنك لم تحجلي من الاعتراف بزيارتك للطبيب النفسي في محاولة لإعادة التوازن إلى نفس مبعثرة . هل تعرفي أنك عصفت بي عندما قلت أنك تحديقين في المرأة عندما تشد بك الوحدة حتى تتعرفى على شكل العذاب ! قلت أنك مستعدة أن تتركي الدنيا كلها وتنضوي تحت جناح رجل حقيقي يحترم ضعفك ويحنو عليه ولا يضيف منه إلى رصيد عظمتة الزائفة .

عندما ألقيت بأحمالك على أعتابي سمعت نفسي أقول لك : أحبك وأتمنى أن أقضي العمر معك . . أحب الأطفال مثلك وأريد أن أصير أباً ، أحلم برفقة إنسانة ذكية ومتفوقة وحنونة . ما زلت أتذكر دهشتك وارتباكك والتماع عينيك ببريق الفرحة .

في اليوم التالي التقيتك في مطعم "برستيج" ، كنت في غاية الروعة ، ورغم الحيرة البادية كان وجهك رائقاً ينطق بالسعادة . كنا لا نزال تحت تأثير مفاجأة الأمس ، ورأيتك تنهضين لفتح بابك بعد أن سمعت طرقاتي عليه ، وارتفعت توقعاتي من الدنيا لتصل عنان السماء حين فاجأني بقولك : هل تعرف أن ما قربني منك هو أن لك موسيقى داخلية هامسة مضبوطة على موجتي ؟ ومع ذلك فقد أخافني سؤالك : أيدوم لنا بستان الزهر ؟

في اللقاء الثالث على النيل كان الأمر مختلفاً . . ظلال الفرحة التي رأيتها قبل أيام رحلت . . بقيت الحيرة وأضيف اليها القلق والتوتر ، وبدأ لي أن رغبة في المقاومة قد حلت محل الرغبة في المضي نحو السعادة . كنت تصمتين كثيراً وتشردين بعيداً ، ولم يفلح إجتهادك ادعاء المرح في أن تخفي حقيقة أنك تتألمين .

في اللقاء الرابع كان التدهور قد بلغ مداه . ذهبت اليك في الأقصر حيث كنت تعزفين في حفلة رجل الأعمال التي أقامها لأصدقائه بين الآثار . عندما طلبت حضوري أحسست أنك تستنجدين بي . يومها لم تكن ملاحظتي بشأن رجل الأعمال الذي يأتون له بالفيليه المشوي والأرز بالخلطة والموسيقين الموهوبين في صحن واحد . . لم تكن هي ما أغضبك . . كنت غاضبة من الحياة ذاتها .

كان حديثنا في تلك الليلة بطعم جهنم ، وأعترف بأنني لم أعرف التعاسة كما عرفتها حين رأيتك تفتحين حقيبة يدك وتفرغين محتوياتها على المائدة قائلة : ماذا تريد مني ؟ هذا هو ما ستجده عندي . . توفرانيل وبروزاك ومضادات للتعاسة و . . . قيء أغالبه طول الوقت .

وقتها شعرت أن نصف ندي يحارب نصفها الآخر ، وتمت أن أعرف أيهما النصف الحقيقي ، لشد ما وددت أن يكون هو النصف الذي أحبته ، إذاً لحاربت الدنيا من أجل أن أحبه وأصونه . حاولت أن أخفف عنك وقلت صادقاً : إن لديك الكثير الذي لا تدري كنهه ، لديك ذلك العطر الإنساني الفريد الذي تسلل عبره إلى نفسي وأخذني إليك ، لديك كل ما يحتاجه إنسان ليكون إنساناً .

من أغرب الأشياء أن أحد الأشخاص من معارفك مر بنا في تلك اللحظات . . هل تذكرين ؟ وجدت ابتسامتك تظهر وكأبتك تستحيل مرحاً وكأنك ترفعين " الأفيش " المبهر في وجه الدنيا !

عارفة يا ندي ؟ أحيانا أحس أنك مستاءة مني بسبب أنك أطلعتني على دخيلة نفسك وفتحت لي نافذة على روحك فلم يعد بوسعك أن تنعمي برويتي مبهوراً بالفنانة الجميلة المرحه ذات الحضور والشخصية .

ندي . . مر وقت طويل ولا أدري ماذا أفعل . أنا لا أشعر بالوحدة ، بل أشعر بما هو أقسى وأمر . . أشعر بالوحشة . الوحدة يكفي علاجاً لها العثور على رفيق ، أما الوحشة فتحتاج لتغيير العالم !

آخر الكلام

* قال الشاعر أبو القاسم الشابي :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ، فلا بد أن يستجيب القدر

وقال الرئيس بيرة : سلامتها أم حسن . . .

و انا أميل للرأي الثاني .

* قال الشاعر الراحل نجيب سرور في وصف مصر المحروسة :

يا بلاد الهوى يا بلاد يا بلاد النجوى فؤاد

* سألت المديعة المسؤول المفتخر : هل لدينا ورق نستطيع أن نستخدمه في ممارسة الضغط على

اسرائيل ؟ فأجاب بثقة : نعم لدينا ورق .

المديعة المسكينة لم تفهم أن سيادته يقصد أن عندهم في البيت ورق . . . عنب !

* بلغ بند الانترنت " المجاني " في فاتورة تليفوني ٥٠٠ جنيه . . أساءل صارخاً : هل كانوا

يقطعون رطلا من لحمي - ثمناً للخدمة - لو كان الانترنت بفلوس ؟ !

* يبدو أن عدوان كلاب سمو الأمير على الأطفال المصريين لن يتوقف ، الأمر الذي يدفع

للظن أن سموه قد قام بضبط مصر متلبسة بالفعل الفاضح ، أو قام بتصويرها عريانة ، مما كسر

عينها وجعلها ذليلة في مواجهة أسرته و كلابه !

* قرأت للشاعر نزار قباني قوله :

أحبك جداً وأعرف أنني تورطت جداً

وأحرقك خلفي جميع المراكب . . .

تذكرت ممدوح سماعيل في غربته وناجيته بصوت مهموس كما الفنانة ماجدة : ممدوح . . نزار

حرق مراكب وغرقها وما حصلش حاجة . . إرجع يا ممدوح . . ماما مساحاك . . وبابا حبيب

لك مراكب جديدة تحرقها . . ممدوح . .

* كتب الأستاذ مجدي الجلاد تحت عنوان : " أنا نادم ومهزوم وأكاد أنضم لحزب الفساد " . . .

كتب يسأل السيد الرئيس : " هل ترضي لي ولأبنائك الصحفيين الهزيمة في مواجهة الفساد ؟ "

و سؤالي أنا للصديق رئيس تحرير المصري اليوم : مجدي . . إنت بتتكلم جد؟!

✽ كتب الأستاذ شارل فؤاد المصري مدافعاً عن المعتقد المسيحي بنقل جبل المقطم من موضعه في عهد الخليفة المعز لدين الله . . شارل يؤكد أن المعجزة التي قام بها القديس سمعان الخراز حقيقية وأن الجبل انتقل فعلاً . أنا لا أشكك في معتقدات أحد، لكن الأمر الذي يخصني باعتباري من سكان المقطم هو : ألا يوجد أحد مسلماً كان أو مسيحياً لديه خردل من إيمان يسفلت لنا شارع ٩ ويوصل لنا الميه؟

✽ لطاف ولاد الإيه . . الحكومة تعلن عن إنشاء عاصمة جديدة، يتلو هذا توبيخ الرئيس للحكومة وإعلان انخيازه لمشاريع الفقراء بدلا من العاصمة المقترحة، يتلو هذا هتاف الصحف للسيد الرئيس نصير الضعفاء . . والحقيقة المضحكة أنه ليس هناك لا مشاريع عواصم ولا مشاريع للفقراء . . لطاف ولاد الإيه!

✽ قال الشاعر فؤاد قاعود :

غابت مفاتيح الأمان . .

وما اسعفتش الكهانة

ما عدت عارف حاطط راسي ع المخدة . .

ولأمر يحها على دانة . .

الكارثة مش باينة ملاحها . .

لكنها جيانا جيانا

✽ قال الزعيم الشاب مصطفى كامل : " لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً "

بينما قال زعيم الأمة سعد زغلول : " ما فيش فايدة . . غطيني وصوتي يا صفية "

أرايتم الفرق بين الحماس الرومانسي للشباب الثائر والحكمة المقطرة للشيخ العجوز؟

فہرِسِ المحتویات

٩	مقدمة
١٣	أصدقائي
١٥	- أباطة . . لتحصيل الديون المدومة
١٩	- بلوتونيوم الحاج عاشور
٢٣	- منصور شجرة ونظرية خشبة المحب !
٢٧	- رؤوف وزه ومناسبتة الإجتماعية الخاصة
٣١	- شهادة هند رستم وشهادة مأمون عجمية
٣٥	- ميدان شوماخر العتبلي " التحرير سابقاً "
٣٩	- وفي الليلة الظلماء يُفتقد البشوري
٤١	- قالت لي السمراء : " اسقيني مانحة "
٤٣	- كلابظات السيد العميد
٤٧	- شارع هياتم
٥١	- ممدوح موتجومي . . رمزاً لمصر الصامدة
٥٥	- عزت بلتكانة والذين خربشوا الكارت
٥٧	- لا تنسوا عسرانا !
٥٩	أصدقاء كده وكده
٦١	- صفحة مهترئة من كتاب الصداقة
٦٥	- جحيم إسمه . . زوجات أصدقائي !
٦٩	- صديق من الزمن الجميل
٧٣	- قصة بيع السيارة
٧٧	- حُبك كالإهانة . . لا يُنسى
٨١	سكافولي
٨٣	- الى حين تصريف البضاعة !
٨٧	- الهجرة بعيداً عن الكيلو ٢١
٨٩	- مناشدة ضمير فخامة الذئب !
٩٣	- يا باشا أو يا ماما . . لا فرق !
٩٥	- المارشال بهلول يعرف أكثر !

سفر الوكسة

- ٩٩
 ١٠١ - يا أمة ضحكت من " وكستها " الأمم !
 ١٠٣ - لا حرمنا الله من الفكاهة
 ١٠٧ - على خطي الحبيب . . بورقية !
 ١٠٩ - كونشر تو القطط والذئاب !
 ١١١ - فاروق حسني مديراً لليونسكو . . افرح يا قلبي !
 ١١٥ - يا قوم : أليس منكم رجل متعلم ؟
 ١١٩ - الدفاع عن صاحب الحق . . الخسيس !
 ١٢٣ - إغواء شهنيدر بحيرة فيكتوريا !
 ١٢٧ - هولوكوست لا يمكن إنكاره

هولوكوست لا يمكن إنكاره

- ١٢٩ - فولكلور
 ١٣٣ - أطباء . . وقتلة !
 ١٣٧ - البيع بأسلوب الصدمة والترويع
 ١٣٩ - ثورة الأتذال والخونة !
 ١٤٣ - مصر في الهولوكوست
 ١٤٧ - مسرحية يصدر عنها فحيح !
 ١٤٩ - التجربة التي تذيب الجلاميد
 ١٥١ - مصر على شفا الحرب الأهلية
 ١٥٥ - آه يا لبناه

آه يا لبناه

- ١٥٧ - أنت السيد وسواك . . المسوخ
 ١٥٩ - مع الرصين . . ذاك افضل
 ١٦١ - أبو لهب الدبلوماسي وكوندوليزا حمالة الخطب !
 ١٦٣ - النوم مع العدو !
 ١٦٧ - السكتات

السكتات

- ١٦٩ - الدبلوماسية المصرية و " عدة الشغل "
 ١٧٣ - موسم السُّحت الكبير
 ١٧٧ - وطن في السبنسة
 ١٧٩ - على حساب صاحب المحل
 ١٨٣ - اللصوص وأصدقاؤهم اللصوص

١٨٧	 ركة الطيبة
١٨٩	 - مدرسة ابلة نظيرة الصحفية
١٩٣	 - ما الدنيا إلا مسمطٌ كبير !
١٩٥	 - كشري ابو طارق ومهلبية هاني سرور
١٩٩	 - أذل البُعْثيك أعناق الرجال !
٢٠٣	 العبت اللذيذ
٢٠٥	 - الحمّام جاهز يا باشا
٢٠٩	 - سيادتك كويانيّة ولا طيّاري ؟ !
٢١٣	 - أنا مش كافر !
٢١٧	 - مركز صيانة الثفا !
٢١٩	 - هل تعتبر مخالفك في الرأي حماراً ؟
٢٢١	 - أصحاب الدال و . . اكتب يا شيخ حسن !
٢٢٣	 - العبت اللذيذ والجديّة التي لا تطاق
٢٢٧	 الجديّة التي لا تطاق
٢٢٩	 - تداول السلطة . . والإنسان المحترم
٢٣٣	 - نظرية الجزمة الدوّارة !
٢٣٥	 - حظ آل سعود . . وانحياز البنتاجون
٢٣٩	 - يا حضرات القضاة . . لستم بأشوات ولا بكوات !
٢٤١	 - أشياء جميلة في صحبة بلال فضل
٢٤٣	 - تأملات في الموت
٢٤٧	 - حديث ذو شجون عن الفوز الميمون
٢٥١	 - فيصل القاسم يواصل إنتقامه !
٢٥٣	 - صاحب الجلالة السائح !
٢٥٥	 حواديت
٢٥٧	 - عن الذين يجهلون قيمة أنفسهم
٢٥٩	 - والله يامصر زمان !
٢٦٣	 - حياة وآلام المثقف الجريح
٢٦٥	 - الرحلة ٩٩٠ . . على ضفاف المأساة
٢٦٩	 - الوالي والفرنسيس

- ٢٧١ - العلم . . حين يُكيل بالبتنجان !
٢٧٣ - العمل تحت رئاسة شمهورش !
٢٧٥ - كاوتشا والأنثىخ
٢٧٧ - الرجل الفاشنكاح
٢٧٩ - الحب والوقت . . من يقتل من ؟
٢٨١ - آخر الكلام

أخذ الأستاذ مأمون يروي للأولاد في حصة التاريخ
عن أخبار دولة المماليك الجوية التي حكمت
مصر في العصر الحديث تمييزاً لها عن دولة المماليك البحرية
التي عرفت سلاطين عظام خاضوا أعظم المعارك
مثل السلطان "وحشُمر البندقداري"
صاحب الضربة البحرية الذي انتصر علي السلطان "البيكيكي"
و أغرق أسطولهُ في موقعة "متشخرمين" .. هذا وقد حاول
مفتش المادة أن يفهم من الأستاذ
عجمية أين قرأ عن موقعة متشخرمين هذه، وأي المراجع استند إليها..
فلم يصل الي شيء، مما عجل بقرار الرفت
والجلوس الأبدي علي القهوة.

.....

الطريف أنهم ينقسمون في النطق الخاطئ لإسم مدرب
الأهلي إلي فريقين: فريق ينطقها جوزيه "بالجيم المصرية"..
و كلما سمعتها تنطق هكذا تخيلتهم يتحدثون عن
جوزين حمام بالفريك، وأما الفريق الآخر وهو الأكثر
حصافة فينطقها بالـجيم المعطشة لأنها تُكتب بحرف الـآ. الأفرنجي،
و الواقع أنهم لا يعرفون أنه لا وجود للجيم
المعطشة في اللغتين الاسبانية و البرتغالية و أن هذا الحرف في
هاتين اللغتين ينطق خاء، وإسم الرجل
كما أرادته له أمه
و أرادته له أبوه هو
"خوسيه".